الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل:.....

الرقم التسلسلي:.....

مكة وعلاقاتها بالحواضر الحجازية والدول المجاورة من القرن 19ق.م إلى القرن 7م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم

تخصص تاريخ الحضارات القديمة

إعداد الطالبة:

سلوى بوشارب

تحت إشراف الدكتور:

الطاهر دراع

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د.عبد العزيز بلحرش	أستاذ محاضر	رئيسا	جامعة منتوري-قسنطينة
د.الطاهر دراع	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	الجامعة الإفريقية -أدرار-
د.زيدان ميلود	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة أحمد لخضر- باتنة
د.بلقاسم رحماني	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر

السنة الجامعية: 2007-2008م.

P

[إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ]

[آل عمران: 96]

الشكر والتقدير

يسعدني أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأستاذي المشرف الدكتور **دراع الطاهر** الذي تبنى فكرة هذا العمل العلمي وتابع سيره بكل دقة وعناية، ليس هذا فحسب بل كانت توجيهاته ونصائحه بمثابة النور الذي رافقني طيلة إنجازي له.

كما لا يفوتني أيضا أن أوجه خالص شكري ووفائي إلى عائلتي الكريمة التي لم تدّخر جهدا إلا ومنحتني إياه بل تحملت الأعباء والمعاناة في سبيل تفرغي لإنجاز هذا العمل، فقد كانت نعم السند المعنوي والمادي فلهم مني كل التقدير والاحترام.

ومن الجديرين بالشكر والتقدير أيضا عمال وموظفي مكتبة قسم التاريخ والآثار بجامعة منتوري قسنطينة وكذلك عمال جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الذين لم يبخلوا علي بما تحتويه المكتبتين من مصادر ومراجع كنت بأمس الحاجة إليها طيلة فترة إنجازي لهذا العمل.

إلى هؤلاء جميعا جزيل الشكر والتقدير

الأستاذة بوشارب سلوى

قائمة الرموز المستعملة

م: الميلادي

ق.م: قبل الميلاد

د-ت: دون تاريخ

تر: ترجمة

تح: تحقيق

مج: المجلد

ج: الجزء

ص: الصفحة

ط: رقم الطبعة

ع: العدد

إهداء

إلى من تجمعني بهم أقوى الروابط قداسة وأسمى المشاعر الإنسانية رقيا، إلى من شببت على الدنيا فكان الأمل، إلى من انشغلت بغيره فكان بي منشغل، إلى من كان لي والدا وأخا وصديقا، منبع الحنان الصافي ومورد الهوى الكافي إليك عبد الحميد أقول ربح البيع ونعم الكسب كسبك.

إلى من عشقت عمري لأجلها لأني إذا مت أخجل من دمعها، إلى من حملتني ثقلا ووضعتني كرها وأرضعتني حبا وإيمانا وأنشأتني على الطاعة وحسن الخلق إليك أمي يا مقصد الولهان ومورد الضمآن ومأمن الهيمان أقول: ربح البيع هنيئا نجاحك أمي.

إلى شموع المستقبل الراقي، زهور أشواقي عند فرحة التلاقي، إليكم أشقائي: عبد الله، مهدي، منى، مريم، آمنة، خولة.

إلى من أهدتني نورا في ليلة ظلماء جعلني ونجوم السماء سواء، إلى من فضلت أن تبقى وردة في بستان الخفاء لترسل لي عبقها صباح مساء، إليك خالتي آمنة، أقول: ربح البيع.

إلى من منحاني قسطا من الدعاء، فنعم البيع ونعم الشراء، إلى جدي محمد وجدتي خديجة.

إلى من سرقهما مني القدر و لم أروّ عيني منهما بالنظر رحمة واسعة عليكما سكان القبر، شهيد الوطن جدي رمضان، وجدتني الغالية فضة.

إلى أوتار قيثارتي الخمس، حليمة حين الليل حمس، صورية الشوق من الحب اقتبس، فاطمة حين الهوى من الهوى يحترس، أمينة حين رحت الأمان ألتمس، ليلى بعد ليل توارى ومن دون روح ذاك تنفس.

إلى من احتلوا من بعد اخوتي الصدارة، فغزوا في المدينة أشواك الحضارة، واحتكروا معالم الأخوة والإمارة: سليمة سلمت عيوني من شراك هواك، حتى عيون فؤادي تدرك أن تراك. سليم وقاموس الأخوة قد عجز، لسانه ما عاد يرتجز، فخر ساجدا من فاقة العوز، نسيم بيقر في حدود أخي، ركن المتاع وأخرج الجواز فكان أصغر اخوتي، محمد الصالح أرقى ما أمه شقي وأدنى ما حظي به ندي.

إلى كل صديقاتي: وردة، خديجة، آمال، عبلة، رفيقة، زينة، فوفة، لمياء، نجلاء، سيسة، شبيلة، وهيبة.

إلى طلبتي ثمرة نجاحي تمنياتي لكم بالتفوق والنجاح

مقـــــدمة

لقد حظيت منطقة الحجاز ببعض الدراسات من قبل المؤرخين والدارسين العرب والأجانب، وذلك لأهمية هذه المنطقة في المسار الحضاري للإنسان العربي القديم، والدور الذي أدته كوسيط بين شمال شبه الجزيرة وجنوبها. لكن هذه الدراسات تبقى قليلة إذا ما قارناها بما كتب عن المناطق الحضارية الأخرى في شبه الجزيرة كاليمن وبلاد الشام وغيرهما.

وبما أن موقع الحجاز الجغرافي جعله يتوسط نمطين مختلفين من الحضارة، حضارة عرب الجنوب وحضارة عرب الشمال، فإن هذا التنوع والثراء الحضاري قد ساهم من دون شك في نشأة كيانات سياسية مستقلة عرفت عند الدارسين بالحواضر الحجازية الكبرى، وهي مكة، يثرب، والطائف. لا شك أن تبوأ مكة دور الريادة بينها هو الدافع الأساس الذي جعلني أخصها بالبحث والدراسة، في محاولة مني للكشف عن مختلف الأسباب والعوامل التي جعلتها تنتقل من دور البداوة إلى الحضارة، أو بعبارة أدق من قرية بواد غير ذي زرع إلى أم لجميع القرى المحيطة بها، لها مكانتها داخليا وخارجيا. ولهذا جاء بحثي تحت عنوان: "**مكة وعلاقاتها بالحواضر الحجازية والدول المجاورة**.

إن معظم الدراسات التي تناولت تاريخ مكة قد ركزت على الجانب الديني فيها، ذلك لوجود بيت الله بها. ومن هذا المنطلق وحسب إطلاعي فقد رأيت أنه من الواجب بل من الضروري أن أساهم في إعادة كتابة تاريخ هذه المدينة بشكل أكاديمي علمي، دون أن أهمل بقية الجوانب الحياتية للإنسان المكي القديم. التي أهلته في الحقيقة لإقامة علاقات مع الحواضر الحجازية القريبة منه والقبائل المحيطة به، وكذلك مع الدول المجاورة له.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع مجموعة من الأسباب الشخصية والعلمية الضرورية، أذكرها فيما يأتي:

1-رغبتي الملحة في البحث في هذا الموضوع، خصوصا بعد رفض بعض الأصدقاء له ووصفه إياه بالتافه، والحكم عليه مسبقا لمجرد أنه لا يتناول تاريخ بلاد المغرب القديم، وأنه قتل

بحثا. وهذا طبعا في نظري لا يتفق والمنهجية العلمية في اختيار المواضيع المدروسة، لأنه في اعتقادي ما من موضوع يمكن أن يقتل بحثا. لأن الوصول إلى الحقيقة التاريخية المطلقة في الدراسات الإنسانية والاجتماعية يعد ضربا من الخيال، وعليه فإن تناول نفس الموضوع بالبحث والدراسة من قبل الكثير من الباحثين لا يعني بالضرورة قتله، بل يكشف لنا عن جوانب جديدة فيه، خاصة أن تعامل أحدهم مع الحادثة التاريخية وقراءتها لها يجعل نتيجته تختلف عن نتيجة الآخر.

2-إدراكي لأهمية هذا الموضوع أكثر بعد موافقة أستاذي المشرف عليه، نظرا لما يتمتع به من خبرة في هذا المجال، لأنه سبق له أن أجرى بحوثا ودراسات في تاريخ العرب القديم عموما.

3-لقد كانت قلة الدراسات التاريخية المختصة في هذا الموضوع في بلادنا نتيجة النقص الواضح في عدد المهتمين به، تمثل دافعا قويا شجعني على اقتحام هذا الميدان الصعب، الذي حاولت فيه طرح أفكار جديدة تساعد على الأقل في التأريخ لبعض الأحداث الواردة في القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساس لدراسة تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم بوجه عام، ومكة على وجه الخصوص.

وللوصول إلى أهداف هذه الدراسة وتغطية أهم جوانبها، توجب عليّ طرح مجموعة من التساؤلات والفرضيات التي حاولت الإجابة عنها وفقا للمنهج العلمي المتبع في الدراسات التاريخية الأكاديمية:

1-ما هي أهم الأسباب والعوامل التي أدت إلى نشأة هذه الحاضرة في تلك المنطقة؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار العامل الديني عاملا رئيسا في نشأتها؟ خاصة أن معظم المصادر والمراجع تربط تاريخ نشأتها بتاريخ بناء الكعبة؟

2-كيف استطاع المكيون القدامى التأقلم مع طبيعة منطقتهم الجغرافية وبيئتها المناخية القاسية؟ وهل كان لهذه البيئة وما تميزت به أثر في تكوين طريقة تفكيرهم وتطور معتقداتهم؟

3-كيف استطاع قصي بن كلاب وأبنائه من بعده أن ينظموا المجتمع المكي القديم وينقلونه من طور البداوة إلى المدنية؟ وهل هذا هو السبب فعلا الذي أدى ببعض الباحثين إلى القول بأن قصي هو مؤسس مكة الحقيقي؟

4-كيف كانت طبيعة الحكم بمكة، هل كان ثيوقراطيا دينيا، أو ديمقراطيا أم قبليا؟

5-ما هو الدور الذي لعبته دار الندوة ومجلس الملأ في الحياة السياسية بمكة؟

6-إلى أي مدى نجح أبناء عبد مناف بن قصي في إقامة علاقات خارجية لمكة مع الدول

المجاورة لهم؟ وما هي الأساليب والطرق التي اتبعوها للمحافظة عليها؟

7-ما هو سر تعايش مختلف الديانات بمكة ؟ وإلى أي مدى نجح المكيون في استغلال مكانتهم الدينية في إقامة علاقاتهم الداخلية والخارجية، خاصة الاقتصادية والدينية منها؟

أما الإشكالية المحورية لموضوع هذا البحث، فتتمثل في دراسة مختلف الأسباب والعوامل التي جعلت مكة تتبوأ مكانة مرموقة وتنفرد بإقامة علاقات مع الحواضر الحجازية والدول المجاورة لها، دون غيرها من الحواضر الحجازية الأخرى مثل يثرب والطائف.

وللإجابة على هذه التساؤلات والإشكاليات المطروحة، فقد اعتمدت في تنظيم للمادة الخبرية وتحليلها ومناقشتها لاستخراج نتائجها على ثلاثة مناهج تكمل بعضها البعض.

1-المنهج الوصفي: قد اعتمدته في عرضي للمادة الخبرية عند اقتضاء الأمر، لأنه في بعض الأحيان يتوجب عليّ وصف بعض الوقائع التاريخية بكل دقة حتى يتسنى لي تحليلها ومناقشة تفاصيلها للخروج بنتائج دقيقة وموضوعية.

2-المنهج التحليلي: وقد استخدمته في تحليل كل المعطيات العلمية من نصوص وأقوال وآراء التي وردت في هذه المذكرة.

3-المنهج المقارن: وقد اتبعته في تقريب بعض الأحداث أو الوقائع التاريخية من ذهن القارئ، عن طريق مقارنتها ببعض الأحداث التي حدثت قبلها أو بعدها زمنيا، حتى أتمكن من تبسيطها أكثر. لأن الباحث لا يكتب لنفسه أو لمن هو في مستواه العلمي فقط، بل يكتب لكل القراء على اختلاف مستوياتهم العلمية.

أما الصعوبات التي واجهتني أثناء إعداد لهذه الدراسة فهي كثيرة ومتنوعة.

1-إن النقص في الدراسات المتخصصة والمتعلقة أساسا بمكة وتاريخها –لأن معظمها يتحدث عن منطقة الحجاز أو شبه الجزيرة بصفة عامة- جعل عملية استخراج المادة الخبرية والاستفادة منها بشكل علمي ودقيق أمرا صعبا، لكنه ليس مستحيلا.

2-ثم أن توفر المصادر العربية وما تحتويه من تناقضات واختلافات في متونها ومضامينها قد سبب لي هو الآخر صعوبة في استخراج المادة الخبرية منها، وتوظيفها بشكل علمي وموضوعي، لذلك فقد بذلت جهدي في إيجاد حل لهذه العقدة المصدرية والمرجعية العلمية. وحاولت أن استعمل ما تيسر منها وفقا للمنهج العلمي المطلوب في الدراسات الأكاديمية المتخصصة.

ونظرا لتعدد جوانب موضوع هذا البحث، فقد استعنت بعدد كبير من المصادر والمراجع

سنورد فيما يأتي بعضا منها بالدراسة والتحليل.

أولا: المصادر الجغرافية: أهمها كتاب "البلدان" "لليعقوبي" (ت 284هـ)، وكتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لمؤلفه "المقديسي" (ت380هـ) وكذلك كتابي "المسالك والممالك" لمؤلفيهما "ابن خردادبة" (ت 300هـ) و"الاصطخري" (ت القرن 4هـ). الذين وظفتهم بشكل أساسي في الفصل الأول في كل ما يتعلق بالبيئة المكية بمختلف مظاهرها الجغرافية وطبيعتها المناخية، وذلك بهدف إعطاء صورة كاملة على المنطقة التي تجري فيها أحداث هذا الموضوع، ومدى تأثيرها على مجرياتها، خاصة بالنسبة لتأثيرها الواضح على نوعية النشاطات الاقتصادية التي مارسها المكيون القدامى.

ثانيا: الكتب المقدسة:

1-القرآن الكريم: هو أصدق كل تلك المصادر وأدقها، لأنه لم يتعرض إلى أي تحريف أو تزييف، لذلك لا يمكن لأي دارس لتاريخ العرب القديم أن يستغني عنه، على الرغم من أنه لا يذكر كل الأحداث والمواقف بالتفصيل، فهو لا يهدف إلى التأريخ للمجتمع العربي القديم بشكل خاص ولا الإنساني بشكل عام، بقدر ما يهدف إلى إرساء القيم الروحية من خلال ذكره لأحداث تاريخية كأمثال يضربها للذين يتفكرون. ولهذا جاءت الأخبار الواردة فيه مختصرة اختصارا غير مخل بالمعنى لكنه دون تفصيل، وهذا لا ينقص من قيمته المصدرية.

لقد تحدث القرآن الكريم عن بداية نشأة هذه المدينة منذ قدوم سيدنا إبراهيم بولده إسماعيل – عليهما السلام- وزوجه هاجر إليها، ثم عودته إليها ثانية لبناء بيت الله بها.

كما أشار في أكثر من موضع فيه إلى الكثير من الأحداث المرتبطة ارتباطا وثيقا بالمجتمع المكي القديم، وخصص لبعضها سورا خاصة بها، مثل سورة الفيل، التي تتحدث عن حملة أبرهة على مكة، وكذلك سورة قريش التي وردت فيها رحلتي الشتاء والصيف، اللتان تدلان على علاقات مكة الخارجية مع سكان الشام في الشمال، وسكان اليمن في الجنوب.

هذا فضلا عن إعطائه لنا فكرة واضحة عن الحياة الدينية الوثنية في مكة قبل الإسلام، وكذلك بعض الممارسات والعادات الاجتماعية التي كانت منتشرة في المجتمع المكي القديم.

2-أما التوراة: فقد استعملتها في الفصل الأول في نشأة مدينة مكة، لأنها هي الأخرى قد ذكرت هجرة سيدنا إبراهيم بابنه وزوجته إلى مكة، لكنها زيفت تفاصيل الحدث ، حيث ذكرت أن إبراهيم قام بتلك الرحلة بإيعاز من زوجته "ساراي" (سارة) بسبب غيرتها من جاريتها "هاجر"، كما تحدثت أيضا عن أمر الرب لإبراهيم بأن يأخذ ابنه وزوجته إلى برية بئر السبع، وهذا رأي

ضعيف، لأن القرآن أشار إلى أن إبراهيم قدم بهما إلى مكة، وهي يومئذ عبارة عن واد غير ذي زرع.

3-الحديث النبوي الشريف: يعتبر الحديث الشريف بالنسبة لموضوع هذا البحث المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، حيث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا، ذلك أن النبي ρ كان معاصرا لبعض الأحداث التي وقعت في تلك الفترة، مثل حادثة "حلف الفضول"، وتجديد بناء الكعبة، لأنه من وضع الحجر الأسود مكانه. لذلك فهو خير من نقل لنا صورة واضحة عن الواقع المكي الذي عاشه بكل حيثياته.

وعلى الرغم من أن الحديث قد دون فيما بعد إلى أن اعتماده على الإسناد وتوخي رواته الحذر في نقله قد أعطى معلوماته مصداقية كبيرة، خاصة تلك التي وردت في كتب الصحاح، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم، وسنن ابن ماجه، وغيرها من الكتب التي استعملتها في هذا البحث. لأنني اعتمدت على متون أحاديثها في جميع فصول هذه المذكرة دون استثناء.

4-كتب التفسير: كما استعنت أيضا بكتب التفسير التي تأتي في نظري في المرتبة الثالثة بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، نظرا لما يتمتع به أصحابه من سعة في الإطلاع وقدرة على التأويل لمعرفتهم بأسباب نزول الآيات وقول الأحاديث. لذلك فقد كانوا عونا لي لفهم ما جاء فيهما من أحداث مجملة تحتاج إلى تفصيل وشرح لتوظيفها بصفة علمية وموضوعية، وبأسلوب تاريخي دقيق.

ومن أشهر كتب التفسير التي اعتمدت عليها كتاب "جامع البيان في تفسير القرآن" المشهور "بتفسير الطبري" (ت310هـ)، و"تفسير القرآن الكريم" لـ"ابن كثير الدمشقي" (ت774هـ)، وكذلك كتاب "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" لمؤلفه "ابن حجر العسقلاني".

5-كتب الأنساب: وهي من أهم المصادر التي استفدت منها في البحث عن تاريخ المجتمع المكي القديم وطريقة تكونه، على الرغم من أنها تهتم كثيرا بتراجم وسير أشراف العرب بصفة عامة، والمكيين بصفة خاصة، إلا أنها كثيرا ما كانت تذكر أيضا علاقات هؤلاء السادة لعبيدهم وإيمائهم، لذلك فقد أفادتني أكثر في دراسة طبقات المجتمع المكي القديم ومعرفة علاقات أفراده بعضهم ببعض، مع تحديد مكانة كل فرد منهم حسب الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

كما استعملتها أيضا في دراسة العلاقات الاجتماعية التي ربطت المكيين القدامى بالشعوب القريبة منهم، حيث تذكر المصادر أسماء العديد من أشراف مكة وشريفاتها الذين تزوجوا من شريفات وأشراف من قبائل أخرى خارجها. ومن أشهر كتب الأنساب التي استعملتها "كتاب نسب

قريش" لمؤلفه "مصعب الزبيري" (156-236هـ)، وكتاب "جمهرة نسب قريش" لعمه "الزبير بن بكار"، اللذان استعملتهما في تحديد نسب قريش، كما استفدت منهما أيضا في التأريخ لعلاقات مكة الاجتماعية كما سبق وأشرت. وهناك كتب أخرى لا تقل أهمية عن الأولى هي كتاب "جمهرة أنساب العرب" "لابن حزم الأندلسي" (384-456هـ)، وكتاب "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" "للقلقشندي".

6-كتب السيرة: ومن أشهرها كتاب "سيرة الرسول ρ" لصاحبه "محمد ابن هشام" (ت213هـ)، الذي استعملت الجزء الأول منه في معظم فصول هذا البحث، نظرا لذكره لمعظم أحداثه، وكتاب "الطبقات الكبرى" لمؤلفه "محمد بن سعد" تلميذ الواقدي صاحب كتاب "المغازي".

7-كتب الأدب: وقد استعملت أيضا هذا النوع من الكتب نظرا أهمية الشعر كمصدر أساس في دراسة تاريخ العرب القديم، فهو ديوانهم وجامع أخبارهم السياسية والثقافية والاجتماعية وغيرها من مجالات حياتهم المختلفة.

ومن أشهر هذه الكتب، كتاب "الأغاني" لمؤلفه "الأصفهاني" (ت356هـ)، الذي استعملت الأجزاء (1، 2، 3، 7) في التعريف ببعض أعلام الحنفية التي ذكرتها خلال دراستي للأوضاع الدينية بمكة في الفصل الثاني، كما استخدمتها أيضا أثناء دراستي لعلاقات مكة الاجتماعية والدينية بالحواضر الحجازية الأخرى والقبائل وكذلك الدول المجاورة لها في الفصل الثالث.

كذلك كتاب "بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب" لصاحبه " الألوسي" الذي استعملت أجزاءه الثلاثة الأولى في معظم فصول هذا البحث. بالإضافة إلى كتب الشعر ومختلف فنون الأدب كـ"الأصمعيات" و"المفضليات"، و"جمهرة أشعار العرب".

8-كتب التاريخ السياسي: هي آخر نوع من الكتب التي استعملتها في هذه المذكرة، من أهمها كتاب "أخبار مكة وما جاء فيها" لـ"الأزرقي" (ت 250هـ)، الذي يعتبر من أكثر المصادر التي استعملتها في التأريخ لهذه المدينة، ودراسة مختلف أوضاعها، إضافة إلى كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" لـ"المسعودي" الذي استخدمته هو الآخر بشكل كبير في معظم فصول المذكرة.

ثانيا: المراجع العربية:

أما المراجع التي اعتمدت عليها فهي كثيرة ومتنوعة أيضا، منها ما هو عام ومنها ما هو خاص ودقيق، أذكر منها:

1-جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء (4، 6) والذي استفدت منه

بشكل كبير في الفصل الأول والثاني.

2-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية وكذلك كتابه "مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول" اللذين استخدمتهما في جميع فصول هذا البحث، بالإضافة إلى كتابي "تاريخ العرب القديم" لكل من "توفيق برو" و"نبيه عاقل"، اللذان استفدت منهما أيضا في دراسة أوضاع مكة الاقتصادية والدينية في الفصل الثاني، كما استعملتهما أيضا أثناء تطرقي لعلاقات مكة مع القبائل والدول المجاورة لها، واستعنت بكتاب "أيام العرب" "لأحمد جاد المولى" ومؤرخين آخرين في دراسة لعلاقات مكة، وأيضا كتاب "الطائف" للمؤرخة "نادية صقر" الذي ساعدني في التعرف على نوعية العلاقات التي كانت تربط مكة بثاني حاضرة في الحجاز من حيث الأهمية وهي الطائف، وغيرهم كثير من الدراسات الأكاديمية والمقالات العلمية التي لا يسعني المكان لذكرها هنا.

خطة المذكرة:

بعد اطلاعي على المصادر والمراجع المذكورة في القائمة الخاصة بهم، استطعت أن أضبط خطة هذا البحث التي تتكون من مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة وملاحق ذات اتصال وثيق بموضوع البحث، مع قائمة للمصادر والمراجع وفهارس للآيات والأحاديث الشريفة، والقبائل والموضوعات الواردة فيها.

يتناول **الفصل الأول** أسماء مكة ومعانيها ومختلف المظاهر الطبيعية التي تميزت بها البيئة المكية قديما، إضافة إلى عوامل نشأة هذه المدينة وتطورها كفصل تمهيدي، يمثل مدخل عاما لموضوع هذا البحث.

أما **الفصل الثاني** فقد تطرقت فيه إلى أوضاع مكة المختلفة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية والدينية، في عهد قصي بن كلاب وأبنائه من بعده، حيث تناولت في المبحث الأول منه طبيعة نظام الحكم بمكة من خلال دراستي لأهم المؤسسات السياسية التي شكلت جهازها الإداري والحكومي مثل: مجلس الملأ وغيره. في حين قمت في المبحث الثاني بدراسة المجتمع المكي بمختلف طبقاته وفئاته، وبعض عاداته وتقاليده التي كان يسير عليها. أما المبحث الثالث، فقد خصصته لدراسة الأوضاع الاقتصادية ومصادر الثروة في مكة، تناولت فيه الصيد وأنواعه ودوره في توفير الغذاء، بالإضافة إلى أهم الوسائل التي كان صيادو المجتمع المكي يستعملونها في قنصهم للحيوانات التي تتوفر عليها منطقتهم.

ثم درست مدى تأثر المكيين القدامى ببيئتهم من خلال ممارستهم لمهنة الرعي وتربية

الحيوانات التي تتناسب وظروفهم البيئة والاجتماعية، وقد تناولت فيه أيضا بعض الصناعات البسيطة التي كانوا يمارسونها. وفي الأخير تطرقت إلى امتهانهم للتجارة وسيطرة هذه المهنة على غالبية النشاطات الأخرى. في حين خصصت المبحث الرابع والأخير لدراسة الأوضاع الثقافية والدينية عند المكيين.

أما الفصل الثالث: فتناولت فيه علاقات مكة بالحواضر الحجازية والقبائل والدول المجاورة. تطرقت في المبحث الأول منه إلى علاقات مكة بأشهر حاضرتين في منطقة الحجاز هما يثرب والطائف.

ثم تعرضت إلى علاقاتها مع القبائل الضاربة على طول الطرق التجارية التي تمثل هي نقطة التقائها.

كما عالجت في المبحث الثاني منه علاقاتها مع كل من الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين والتبابعة اليمنيين وسكان الحبشة.

ثم ختمت هذا البحث بخاتمة ضمنتها بعض الاستنتاجات والنتائج التي توصلت إليها بعد قيامي بدراسة هذا الموضوع من مختلف جوانبه.

الفصل الأول:

لمحة تاريخية عن مكة

المبحث الأول: أسماء مكـــة ومعانيـــها

المبحث الثاني: جغرافيـــــة مكـــة

المبحث الثالث: نشأة مدينة مكة وتطورها

يتناول هذا الفصل أسماء مكة بمختلف معانيها، إضافة إلى دراسة مختلف مظاهرها الطبيعية، وذلك قصد معرفة البيئة المكية وكيفية تعامل الإنسان المكي القديم معها. كما يتضمن أيضا مختلف الأسباب والعوامل التي أدت إلى نشأة هذه الحاضرة.

المبحث الأول: أسماء مكة ومعانيها

لقد اهتم الإخباريون منذ القديم بالبحث في أسماء مكة، ومعانيها، خاصة المتأخرين منهم الباحث اللغوي مجد الدين الشيرازي الذي جمع حوالي ثلاثين (30) اسما[1]، بعضها مأخوذ من القرآن، والسنة النبوية الشريفة، وبعضها الآخر مأخوذ من كتب الإخباريين الأوائل.

ومن أسمائها الواردة في القرآن ثمانية (08) أسماء واضحة الموضع صريحة اللفظ وهي:

مكة، وقد جاء هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ][2].

أما في السنة، فقد ورد في قوله ρ: «إن الله حبس على مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد إن كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من النهار، وإنها لن تحل لأحد من بعدي، فلا ينفر صيدها ولا يختلى شوكها ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى وإما أن يقتل»[3].

---

[1]-الفاسي المكي (محمد بن أحمد بن علي): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تح: محمد الذهبي، ج1، ط2، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1999م، ص93.

[2]-سورة الفتح، الآية: 24.

[3]-أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحج، باب: لا ينفر صيد الحرم، ج1، ص315.

أما اشتقاق كلمة مكة فقد اختلف الإخباريون فيه على عدة أقوال، نذكر منها:

فالأزرقي يرى أن لفظ مكة مأخوذ من: تمككت المخ من العظم تمككا، إذا استخرجته منه لأنها تمك الفاجر عنها، فتخرجه منها، ويؤكد ذلك قول الراجز في تلبيته:

يا مكة الفاجر مكي مكا ولا تمكي مذحجا وعكا[1].

في حين يرى الماوردي بأنه مأخوذ من: امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصا شديدا، مشبها إياه بازدحام الناس فيها[2].

أما ياقوت الحموي، فيرى أن هذا التشبيه ضعيف لأن مص الفصيل الناقة لا يشبه بازدحام الناس بها، بل بجذبها الناس إليها[3].

وهناك سبب آخر أورده المخزومي في كتابه "الجامع اللطيف في فضل مكة والبيت الشريف"، وهو قلة الماء بها[4].

في حين ذكر الشرقي بن القطامي: «أنها سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجزنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه، أي نصفر فيه صفير المكاء[*]، وكانوا يصفرون ويصفقون إذا

---

[1]-الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، تح: علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1424هـ-2003م، ص223، الفيروز أبادي (مجد الدين محمد): القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ص309.

[2]-الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب الدينية، بيروت، لبنان، د-ت، ص199.

[3]-الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت): معجم البلدان، تح: فري عبد العزيز الجندي، ج5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ-1990م، ص210.

[4]-ط5، المكتبة الشعبية، بيروت، 1979م، ص99، محمد بن عبد الله عايض: فضائل مكة الواردة في السنة، جمعا ودراسة، ج1، ط1، دار ابن الجوزي، 1421هـ-2001م، ص24.

[*]-المكاء بتشديد الكاف وهو مخفف الصفير، ورد في قوله تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) [سورة الأنفال، الآية: 25].

انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج6، دار الجيل، بيروت، 1408هـ-1988م، ص4251. ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسين): جمهرة اللغة، تح: رمزي منير البعلبكي، ج2، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987م، ص1083. وقد ذكر في قول أعرابي: ورد الحضرة فرأى مكّاءً يصيح فحن لبلاده فأنشد:

ألا يا أيها المكاء ما لك هاهنا ألاء وشيح فأين تبيض

طافوا بها»[1].

وجاء اسم مكة في القرآن الكريم بلفظ آخر هو "بكة" في قوله تعالى: [إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ] [2].

أما ما قيل في سبب تسمية مكة بهذا الاسم، فقد اختلف الإخباريون في تفسيره، فمنهم من قال: لازدحام الناس بها[3] وهي على ذلك مشتقة من البك، يقال بكّ الناس بعضهم بعضا أي تدافعوا وتزاحموا، ويؤكد ذلك قول الراجز:

إذا الشريب أخذته أكه فخله حتى يبك بكا[4].

ويرى عبد الله بن عمرو بن العاص أنها سميت بذلك لأنها تبك أعماق الجبابرة، أي تدقها[5]، فما قصدها جبار إلا أهلكه الله[6]: ومن خلال دراستي لهاتين التسميتين، فلقد لاحظت أن الإخباريين قد اختلفوا في لفظي مكة وبكة، أهما لغتان بمعنى واحد أم هما بمعنيين مختلفين، فمنهم من قال بالرأي الأول وحجتهم في ذلك أن العرب كانوا يبدولن الميم باء، فيقولون: ضربة لازم ولازب لقرب المخرجين، وهذا قول مجاهد. أما القائلون بالرأي الثاني أنهما اسمان والمسمى بهما شيئان مختلفان لأن اختلاف الأسماء موضع اختلاف المسمى، ومن القائلين بهذا فقد اختلفوا أيضا في المسمى بهما على قولين: أحدهما أن مكة اسم البلد كله، وبكة اسم البيت، ذكره الطبري[7]، والثاني أن مكة الحرم كله

فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى الشام لا تصبح وأنت مريض.

انظر: ياقوت: المصدر السابق، ص210.

[1]-ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ص211.

[2]-سورة آل عمران، الآية: 96.

[3]-ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): سيرة النبيρ، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1975م، ص72.

ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة: تاريخ المستبصر، تح: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م، ص12.

[4]-ابن دريد: المصدر السابق، ج1، ص378. ابن منظور: المصدر السابق، ص250.

[5]-ابن بافقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني): مختصر تاريخ البلدان، مطبعة ليدن، 1885، ص16.

[6]-ابن المجاور: المرجع السابق، ص12. ابن الأثير (مجد الدين أبو السعدات): منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ج1، تح: محمود محمد الطناحي، دار المأمون للتراث، د-ت، ص147.

[7]-الطبري (أبو جعفر بن محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج4، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1405هـ-1984م، ص9، نشوان بن سعيد الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج1، تح: حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م، ص388.

وبكة المسجد ذكره الماوردي[1].

من خلال دراستنا لأسباب تسمية مكة بهذين الاسمين، من الأرجح أن يكونا لغتان بمعنى واحد، وإنما أبدلت ميم مكة باء على عادة العرب في قلبها.

وسميت مكة أيضا بالبلد في القرآن الكريم قوله تعالى: [لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ] [2]، وقد فصل الطبري بأن المقصود بالبلد هو مكة.

وسميت مكة بهذا الاسم على عمومه تفخيما لها كما يقول للثريا النجم، والبلد في اللغة تعني الصدر أي صدر القرى[3].

ومن أسمائها أيضا البلد الأمين في قوله تعالى: [وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ][4]. والبلدة في قوله: [إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ][5].

وقد ورد ذكرها في حديث الرسول ρ في خطبة الوداع قوله: «الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات، والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، ذو الحجة ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذي الحجة قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليست **البلدة**، قلنا: بلى»[6].

أما البلدة في اللغة، فهي البلد وقيل، أن البلد أعم والبلدة طائفة من البلد[7]، وذكرت أيضا في شعر أبي سفيان بن حرب:

أبا مطر هلما إلى صلاح فيكفيك الندامى من قريش

---

[1]-المصدر السابق، ص200.

[2]-سورة البلد، الآيتين: 1-2.

[3]-ابن منظور: المصدر السابق، ص254.

[4]-سورة التين، الآية: 3.

[5]-سورة النمل، الآية: 91.

[6]-البخاري، صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، ج3، ص84.

[7]-ابن منظور: المصدر السابق، ص254.

وتنزل بلدة عزت قديمـــا وتأمن أن يزورك رب جيش[1].

وهناك اسم آخر أطلق على مكة وهو أم القرى، ورد في قوله تعالى: [وَهَـٰذَا كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا][2].

اتفق كل من الطبري وابن كثير في تفسيرهما لهذه الآية أن المراد بأم القرى مكة[3]، في حـــين اختلف بعض الإخباريين في وجه تسميتها بذلك على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن الأرض دحيت من تحتها فهي أقدم الأرض[*].

والثاني: لأنها أعظم القرى شأنها فهي أكثر البلدان شبه الجزيرة شهرة.

أما الثالث: فلأنها قبلة يؤمّها جميع الأمم لوجود بيت الله فيها، فهي مركز ديني يستقطب النـــاس من كل مكان على اختلاف ألسنتهم وانتماءاتهم العرقية[4].

---

[1]-المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مج3، تح: عبد الحميد الهنداوي، ط1، دار الكتـــب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـــ-1999م، ص207، الأليوسي (محمد شكري): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1، تح: محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1314هـــ، ص228

[2]-سورة الأنعام، الآية: 92. وردت أيضا في قوله تعالى: [وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُـرَىٰ وَمَـنْ حَوْلَهَا] [سورة الشورى، الآية: 7].

[3]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: سورة القصص، ج6، ص142، الطبري: المصدر السابق، ص9، ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل): تفسير القرآن العظيم، ج3، دار الأندلس للطباعة، بيـــروت، لبنـــان، د-ت، ص75.

[*]-وقد أثبتت الدراسات العلمية أن مكة أقدم الأرض، والكعبة مركزها، فقد بنيت في قلب مكة، كما تؤكد ذلك حقـــائق إسلامية لها علاقة بعملية الطواف، ذلك أن الحجر الأسود هو علامة بدء الطواف حول الكعبة، وأنهم إنمـــا يبـــدءون طوافهم منه جاعلين الحجر الأسود عن يسارهم، ويسيرون هكذا في سائر طوافهم حول الكعبة حتى يختمون طوافهم به وهو على يسارهم، فإذا قارنا بين نظرية مركزية الكعبة وعملية الطواف الذي يمشي فيه الطائفون صوب اليسار، أضف إلى ذلك كله دورة الكرة الأرضية العامة من هذه الناحية، فنكون قد أدركنا جزءا من سر الطواف صوب اليسار خلافا للتيامن الذي عليه آداب الشريعة الإسلامية. انظر: عبد القدوس الأنصاري: الكعبة أسماء وعمارات ومعبدا لا معبـــودا وتاريخا قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، مكة، 1984م، ص125.

[4]-الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح: خالد عبد الغني محفـــوظ، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426هـــ-2005م، ص246، ابن المجاور: المرجع السابق، ص14.

لهذا، فمن الممكن أن تكون مكة قد مثلت نواة لتجمع بشري تجاورت فيه البلدان والمنشآت المستقرة المحيطة بها، حيث يرى المؤرخ هشام جعيط أن هذه التسمية تعني حرفيا أم المدن[1]. ويدل هذا المفهوم في اعتقادي على مركزية مكة وتفوقها على باقي المدن والحواضر الحجازية الأخرى، يثرب والطائف وغيرهما.

وذكرت مكة باسم القرية في قوله تعالى: [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ][2]، وقد فسر الإخباريون هذه الآية بأن مكة (القرية) كانت آمنة مطمئنة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا، فسميت بذلك لأمنها[3].

أما معناها اللغوي فهي اسم لما يجمع فيها جماعة كثيرة من الناس، وهو مأخوذ من الجمع من قولهم: قريت الماء في الحوض إذا جمعته، ويسمى ذلك الحوض مقراة[4].

كما ذكرت أيضا باسم معاد في قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ...][5]. وقد ورد في صحيح البخاري في تفسير ابن عباس لهذه الآية أن المراد بها مكة[6].

غير أن هذا الاسم حسب رأيي هو أقل وضوحا من الأسماء السابقة الذكر، لذا فهو لا يزال يحتاج إلى بحث أكثر عمقا وتدقيقا من قبل المهتمين بدراسة أسماء مكة وذكر معانيها.

وتوجد لمكة أسماء أخرى هي محل اختلاف بين الإخباريين والمفسرين من حيث نسبتها إلى مكة أو للكعبة، أو لكليهما معا، مثل: الحرم، والمسجد الحرام، والبيت العتيق[7]...إلخ.

ولعل سبب اختلافهم يعود إلى تسمية الكل باسم البعض أو ذكر اسم البعض والمراد به الكل.

وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر أغلب أسماء مكة بكل وضوح، فإن الإخباريين الذين حاولوا إعطاء

---

(1)-هشام جعيط: نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط3، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005، ص206.
Mohamed Assad Bey: Mohamed (571-632), Payot, Paris, 1956, p36.

(2)-سورة النحل، الآية: 112.

(3)-الطبري: المصدر السابق، ص 311. الفاسي المكي: المرجع السابق، ص96. ابن المجاور: المرجع السابق، ص13

(4)-السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن): الروض الأنف، مطبعة الجمالية، مصر، 1322هـ-1971م، ص99.

(5)-سورة القصص، الآية: 85.

(6)-البخاري: صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك، القصص، ج6، ص142. ابن كثير: المصدر السابق، ص305.

(7)-المخزومي: المرجع السابق، ص101.

تسميات ومدلولات أخرى لمكة لم يتمكنوا من توضيح الرؤى للباحثين في هذا الميدان، ومن ثمة فقد حاولت بقدر المستطاع أن أوضح غموض بعض الأسماء ومعانيها مع الأخذ بأكثر الآراء دقة عند اللغويين.

ومن أهم هذه الأسماء:

الباسة: بالباء الموحدة والسين المهملة، قال مجاهد: لأنها تمس من ألحد فيها أي تهلكه وتحطمه[1]، من قوله تعالى: [وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا] [2]، وذكر الأزرقي أنها تبسهم بسا أي تخرجهم إخراجا إذا ظلموا فيها[3].

الناسة: بالنون والسين المهملة، قال الماوردي: لأنها تنس من ألحد فيها أي تطرده وتنفيه[4]، ذكر النووي أنها مأخوذة من النس، يقال: نس ينس أي يبس، ومعناها الطرد والنفي[5]، كما أطلق عليها النساسة بمضافة السين وتشديدها، ومعناه كمعنى الناسة والباسة.

إن الدارس لهذه الأسماء الثلاث يجدها تشترك في معنى واحد وهو إخراج وطرد من ظلم فيها، رغم اختلافها في حرفي النون والباء مع محافظتها على نفس المعنى اللغوي.

وسميت مكة أيضا صلاحا، بصاد مهملة مفتوحة لأمنها، ويؤكد ذلك قول أبو سفيان:

أبا مطر هلم إلى **صلاح** فيكفيك الندامى من قريش[6]

ذكر ابن جماعة[*] وابن سيده أن من أسمائها العرش والعريش، في حين ذكرها النووي باسم قادس والمقدسة لأنها تطهر من الذنوب[7].

---

(1)-النووي: المصدر السابق، ص156.

(2)-سورة الواقعة، الآية: 5.

(3)-المصدر السابق، ص222.

(4)-المصدر السابق، ص200، المطهر بن طاهر المقديسي: كتاب البدء والتاريخ، ج3، باريس، د-ت، ص125.

(5)-المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(6)-المبرد أبو العباس: المصدر السابق، ص207، الماوردي: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(*)-وهو العز بن جماعة الحافظ الإمام قاضي القضاة عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن قاضي القضاة بدر الدين بن إبراهيم بن سعد بن جماعة الكناني الحموي الأصل الدمشقي المورد، ثم المصري الشافعي المذهب، ولد سنة 694، سمع من الدمياطي وأجاز له ابن وريدة وأبو جعفر بن الزبير وأكثر السماع، فبلغ شيوخه ألفا وثلاثمائة (1300) شيخ، ولي قضاء الديار المصرية، مات بمكة 767هـ. انظر: أبو الفلاح الحي بن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مج6، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د-ت، ص ص105-106.

(7)-المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ذكر مجاهد أسماء أخرى لها منها: أم رحم: لأن الناس يتراحمون فيها. أم زاحم: من المزاحمة والزحام بها أيام الطواف، وذكرت باسم كوثى[**] نسبة لبقعة منها بها منزل لبني عبد الدار، وأفاد الفاكهي أنها منطقة بجبل قعيقعان[1]، والأرجح هو الرأي الأول.

ويرى السهيلي[*] أن من أسمائها الرأس لأنها أشرف الأرض كرأس الإنسان، وكذلك المكتان[2]، ولعله أخذها من قول ورقة ابن نوفل:

لبطن المكتين على رجائي حديثك أن أرى منه خروجا[3].

وأرى في تثنية السهيلي لاسم مكة، وهي واحدة شيء من الموضوعية، والمنطق لأنه يشير إلى أعلى البلد، وأسفله، أي إلى بطاح مكة وظواهرها.

وقد نظم القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفي سبعة أبيات ذكر فيها من أسماء مكة نحو الثلاثين (30) اسما:

بمكة أسماء ثلاثون عددت ومن بعد ذلك اثنان منهما اسم بكة
صلاح وكوثي والحرام وقادس وحاطمة البلد العريش بقرية

[**] –روى أعرابي أنه سأل أمير المؤمنين عليا: أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش، فقال: نحن قوم من كوثى، فأراد علي أنا مكيون من أم القرى وأنشد لحسان بن ثابت:

لعن الله منزلا بطن كوثى ورماه بالفقر والإمعان
ليس كوثى العراق أعني ولكن شرة الدار دار عبد الدار

انظر: الزبيدي (محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى): تاج العروس، ج3، تح: علي بشرى، دار الفكر، بيروت، 1414هـ-1994م، ص254.

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص223، النووي: المصدر السابق، ص156، الأليوسي: المرجع السابق، ص228، المخزومي: المرجع السابق، ص100.

[*]-أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن حسن بن حسين بن سعدون الخثعمي الأندلسي المالقي الضرير العلامة البارع صاحب الروض الأنفي، ولد سنة 508هـ، سمع من ابن العربي، كان إماما في لسان العرب واسع المعرفة، غزير العلم، عالما بالتفسير وصناعة الحديث، عارفا بالرجال والأنساب، خبيرا في أصول الفقه والتاريخ، مات بمراكش 581هـ.

انظر: ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج3، دار صادر، بيروت، لبنان، د-ت، ص143.

[2]-السهيلي: المصدر السابق، ص81، النووي: المصدر السابق، ص156، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص212، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تح: محمد زنهم عزب، ط1، دالر الثقافة، القاهرة، 1425هـ-2004م، ص79

[3]-المخزومي: المرجع السابق، ص102، الفاسي المكي: شفاء الغرام...، ص101.

ومعطشة أم القرى رحم بـــاسة وناسة رأس بفتـــــح همـــــزة
مقدســـــة والقـــــادسة نـــاشة ورأس وتاج أم كـــــوثى كبـــــرة
سبوحة أم رحمـــــان عرشـــــنا كذلك حرم البلـــد الأمين كبلـــــدة
كذلك اسمها البلد الحرام لأمنـــها وبالمسجد الأسنى الحرام تسمـــــت
وما كثرة الأسمـــاء إلا لفضلـــها حباها به الرحمن من أجل كعـــــبة[1].

والدارس لهذه القصيدة الجامعة لأغلب أسماء مكة ومعانيها سيدرك عظمة المسمى وعلو شـــأنه، يقول النووي: «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى كما فـــي أســـماء الله تعـــالى وأســـماء الرسول ρ ولا نعلم بلدا أكثر أسماء من مكة والمدينة[*] لكونها أفضل الأرض وذلك لكثـــرة الصـــفات المقتضية للتسمية»[2].

إن غياب ذكر اسم مكة في الكتابات الحجازية القديمـــة دفـــع بـــبعض المـــؤرخين المحـــدثين، والمستشرقين إلى البحث في المصادر الكلاسيكية القديمة (اليونانية والرومانيـــة) أمثـــال: المستشـــرق بروكلمان الذي اعتبر المدينة المذكورة في كتاب "جغرافية بطلميوس"[**] هي مكة[3].

يبدو أن بركلمان قد اعتمد على القرابة اللغوية بين اللفظتين "ماكورابـــا" اليونانيـــة و"مكـــرب" العربية الجنوبية.

فحسب رأيه: إن لفظة ماكورابا عربية أصابها بعض التحريف لتتناسب والنطق اليوناني، وهي في الأصل مكربة من التقريب، لأنها مقربة من الآلهة ومقدسة.

---

[1]-المخزومي: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[*]-يقصد بها حاضرة يثرب التي سميت بعد ظهور الإسلام باسم المدينة.

[2]-النووي: المصدر السابق، ص157، محمد بن عبد الله بن عايض: المرجع السابق، ص23.

[**]-الذي عرفه العرب تحت اسم بطلميوس القلوذي أو الجغرافي، وهو يوناني الأصل من مدينة بطلمية Ptolemais في صعيد مصر، قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، حيث قدم دراسة جغرافية، من بـــين مـــا تناول فيها: جغرافية شبه الجزيرة العربية. انظر: لطفي عبد الوهاب: العرب فـــي العصـــور القديمـــة، دار المعرفـــة الجامعية، الإسكندرية، 2003م، ص211.

[3]-تاريخ الشعوب الإسلامية، ج1، تر: نبيه أمين فارس، منير البلعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيـــروت، لبنـــان، 1948م، ص33.

W.M.Watt : Mahomet à la Meque, l'imprimerie Bussière a Saint amand, paris, 1958, P17.
Mohamed Assad Bey : Op-cit, p36. Encyclopédie de l'Islam, Tome 4, p332.

فاللفظة ليست علما لمكة، يقول المؤرخ جواد علي: وإنما هي نعت لها، كما في بيت المقدس والقدس، ثم صار النعت علما للمدينة[1].

وقد ذهب أوغست ميلر Augast Muller إلى أن المعبد الذي ذكره تيودور الصقلي بأنه معبد مشهور بين العرب هو الذي بمكة، في حين يرى المؤرخ جواد علي أن رأيه لا يستند إلى دليل مقبول خاصة أن المكان المقصود بعيد كل البعد عن مكة، فهو يقع على رأي موسل بمنطقة تسمى روانة[2].

بينما ذكر آخرون أنها مشتقة من مك البابلية [*]، ومعناها البيت[3].

يرد الأستاذ جواد علي على أصحاب هذا الرأي بأنه لم يعثر على اسم مكة في نص الملك نابونيد ملك بابل الذي سرد فيه أسماء المواضع التي وصل إليها في حملته على بلاد الحجاز، وكانت يثرب آخر مكان وصل إليه ذكره[4]، وهذا حسب رأيي ليس دليلا لإبطال هذا الرأي، لأن عدم ذكرها في النص قد يفسر بعدم وصول الملك إليها، كما لا يعني جهل البابليين باسم هذه المدينة.

فإذا صح الرأي الأول، يكون بطلميوس أول من أشار إلى مكة من المؤرخين القدام.

ومن خلال دراستنا لما جاء في المصادر القديمة حول أسماء مكة ومعانيها، فإننا لم نعثر على ما ذكره بطلميوس ولا على أي إشارة له، لكن هذا ليس معناه بطلان هذا الرأي. لذا لا أستبعد أن يأتي يوم يعثر فيه على اسم هذه المدينة مطمورا تحت أدين ثراها كما عثر على أسماء الكثير من المدن والقرى القديمة.

المبحث الثاني: جغرافية مكة

تقع حاضرة مكة بين درجتي عرض 21-28° شمالا، وبين خطي طول 30-38° شرقا[5]، ضمن منطقة الحجاز، وهي المنطقة التي تمتد فيها سلسلة جبال السراة[**] مخترقة شبه الجزيرة من

---

[1]-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م، ص10.

[2]-أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسولρ، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000م، ص87.

[*]-نسبة إلى بابل، وهي إحدى عواصم العراق القديم، ذكرها هيرودوت أثناء وصفه لحدائقها المعلقة. انظر: أحمد أمين سليم: تاريخ العراق القديم، ط1، دار الفكر، بيروت، 1998م، ص150.

[3]-ضرار صالح ضرار: العرب من معين إلى الأمويين، ط3، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 1966م، ص33.

[4]-جواد علي، المرجع السابق، ص10.

[5]-كمال موريس شربل: الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، ط1، 1418هـ-1998م، ص575، أحمد راتب عمروش وآخرون: موسوعة الأديان، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م، ص558.

[**]-تعد جبال السراة العمود الفقري لشبه الجزيرة العربية وهي التي جعلها الجغرافيون العرب قاعدة لتقسيماتهم وهي سلسلة جبال يصل ارتفاعها إلى 9000 قدم في منطقة مدين في القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة، وإلى ألف قدم ببلاد

شمالها إلى جنوبها[1].

أما بالنسبة لتسميتها بالحجاز، فلأنها تحجز بين المنطقة الضيقة التي توجد إلى غربيها نحو ساحل البحر الأحمر والمنطقة الفسيحة الممتدة شرقي هذه الجبال حتى الخليج[2].

وحاضرة مكة كما وصفها الجغرافيون القدامى[*] بلدة مستطيلة ذات شعاب بواد غير فسيح تكاد تحصره الجبال المحيطة به، فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس، وإلى الغرب منه نجد جبل قعيقعان[3]، وهي بهذا الموقع تبدو وقد ضيق عليها الجبلين المذكورين سابقا كالسلحفاة الرابضة ببطن ذلك الوادي.

يبلغ طولها من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين[**]، وأسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قعيقعان نحو الثلثين من ذلك[4].

وعلى الرغم من إحاطة الجبال بها فهي تملك ثلاث منافذ يصلها الأول بطريق اليمن، والثاني

الحجاز في الوسط، وإلى أكثر من 12000 قدم ببلاد اليمن. انظر: لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق، ص92، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص20، محمد خضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ج1، ط6، مطبعة الاستقامة، 1370هـ، ص7.

(1)-الهمذاني (الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1394هـ-1974م، ص323، ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى): كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص117.
Gustave Le bon : La civilisation des arabes, Imprimé par IMAG, Syracuse, Italie, édit1969, P13.

(2)-ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي): سورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م، ص29، الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص188، الأصفهاني (الحسن بن عبد الله): بلاد العرب، تح: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص14.

(*)-نذكر منهم: أ[ن حوقل، المقديسي، اليعقوبي...إلخ.

(3)-اليعقوبي (أحمد بن أبي إسحاق بن جعفر): البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ-2002م، ص153، ابن حوقل: المصدر السابق، ص28.

(**) -الفرسخ يساوي ثلاثة أميال، والميل يساوي 2,66كلم.

(4)-ابن حوقل: المصدر السابق، ص35، المقديسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ-2003م، ص83، الإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد): المسالك والممالك، تح: محمد جابر عبد العالي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1381هـ-1961م، ص21، الحميري: المصدر السابق، ص93.

ببلاد الشام والثالث بالبحر الأحمر الذي يبعد عنها بثمانين (80) كلم، مما جعلها تحتل موقعا وسطا على طريق القوافل التجارية المارة بها[1].

أما ما يميز هذه الحاضرة من الناحية التضاريسية، فيمكن تناولها على الشكل الآتي:

أولا: الجبال: ومن أشهر جبال مكة أخشباها[*].

1-جبل أبو قبيس: بضم القاف وفتح الباء، وهو من أعظم جبال مكة، يشرف عليها من ناحية الشرق[2]، حيث تشرق الشمس في رأسه منار يقال أنه منار إبراهيم υ، وفي أصله الصفا، لا يصعد إليه إلى من أربعة مواضع هي: على الصفا، على شعب عمر، على شعب علي رضي الله عنهما، أو على جبل أجياد الصغير[3].

وهو أحد الأخشبين، ذكره الأزرقي في قوله: «...أخشبا مكة أبو قبيس وهو الجبل المشرف على الصفا إلى السويداء إلى الخندمة...»[4].

وقد اختلف في سبب تسميته بأبي قبيس على قولين: أحدهما أنه سمي برجل من إياد يقال له أبو قبيس، كان أول من بنى فيه، وقيل أن الرجل الذي سمي به من مذحج وليس من إياد[5]، والقول الثاني

---

(1)-ابن خردادبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1889م، ص135، محمد حسين هيكل: حياة محمدρ، ط9، مكتبة النهضة المصرية، 1965م، ص85، إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية، ج1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1344هـ-1925م، ص178.
Mohamed Assad Bey : Op-cit, p36.

(*)-الأخشبان أحدهما أخشب وهو كل جبل غليظ خشن. انظر:

(2)-النووي: المصدر السابق، ص46، الزهري (أبو عبد الله محمد): كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما جاء في كل جزء من الغرائب والعجائب تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية للنشر، د-ت، ص36، البشير قفاف: الصلات الحضارية بين مصر وشبه الجزيرة العربية منذ قيام الدولة الوسطى إلى غاية نهاية الدولة الحديثة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية 2005-2006، ص35.

(3)-اليعقوبي: المصدر السابق، ص153، الإصطخري: المصدر السابق، ص22، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في غرائب الأنصار وصف مكة والمدينة وبلاد المغرب، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، د-ت، ص5.

(4)-المصدر السابق، ص265.

(5)-الأزرقي: المصدر نفسه، ص266، النووي: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

أن الركن الأسود اقتبس منه[1].

والأول أرجح لأنه أقرب إلى الحقيقة، فهناك أماكن عدة في الحجاز أو في شبه الجزيرة عامة أطلق عليها أسماء أشخاص مثل اليمامة ، التي سميت بامرأة منها تدعى زرقاء اليمامة.

أما الأخشب الثاني فقد اختلف الإخباريون في تحديد اسمه، منهم من قال أنه الجبل الأحمر، وقال البعض الآخر بأنه جبل قعيقعان[2]، ومن المحتمل أن يكون هذا الأخير هو أحد الأخشبين لارتباط ذكره في معظم نصوص الإخباريين بذكر أبو قبيس.

2-جبل قعيقعان: بضم القاف الأولى وفتح العين، وبعضها مثناة وكسر القاف الثانية، وهو جبل معروف بمكة مقابل لجبل لأبي قبيس، وهو الأخشب الثاني كما سبق ذكره، وقد اختلف هو الآخر في سبب تسميته على قولين: الأول ذكره صاحب كتاب "الاستبصار في عجائب الأنصار" في قوله: «إنما سمي بقعيقعان لقعقعة السلاح فيه عندما اقتتلت جرهم فيما بينها»[3]. أما الثاني، فذكره ابن هشام في قوله: «...لأن تبعا لما قدم مكة كان سلاحه في قعيقعان، فسمي بذلك»[4].

هذا وإن اختلفا الرأيين في اسم صاحب السلاح بين جرهم وتبع، غير أنهما قد اتفقا في وجه التسمية وهي قعقعة السلاح.

وذكر البلاذري أخشبي مكة في بيتين لشاعر مجهول قال فيهما:

ألا لستم منا ولا نحن منكم برئنا إليكم من لؤي بن غالب
أقمنا على دفع الأعادي وأنتم مقيمون بالبطحاء بين الأخاشب[5].

---

[1]-الفاسي المكي: شفاء الغرام...، ص48.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص266، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص

[3]-مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص8، الأزرقي: المصدر السابق، الصفحة نفسها، الفاسي المكي: شفاء الغرام، ص51.

[4]-المصدر السابق، ص110.

[5]-أنساب الأشراف، تح: محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، 1959، ص43. وذكرهما أيضا ابن الحمام المري أحد أحد بن سهم بن مرة، وهو شاعر جاهلي في قوله:

أبونا كناني بمكة قبره بمعتلج البطحاء بين الأخاشب
لنا الربع من البيت الحرام وراثة وربع البطحاء عند دار ابن حاطب

انظر: عبد القدوس الأنصاري: المرجع السابق، ص120.

3-الجبل الأحمر[*]: الذي قيل فيه أنه الأخشب الثاني، وهو الجبل المشرف وجهه على جبل قعيقعان وعلى دور عبد الله بن الزبير[1].

4-جل الخندمة: يقع في ظهر جبل أبي قبيس، ما بين حرف السويد إلى الثنية في شعب عمر، ويشرف على الأجيادين [*] (أجياد الصغير والكبير) [2].

5-جبل ثبير: بثاء مثلثة مفتوحة، ثم باء موحدة مكسورة، ثم ياء مثناة وبعدها راء، وهو جبل يقع بالمزدلفة على يسار الذاهب منها إلى منى، وعلى يمين الذاهب من منى إلى عرفات[3]، وللعرب جبال عدة، يسمى كل منها ثبير، وكلها حجازية[**].

وكانت العرب تقول: أشرق ثبير كيما نغير، لأنها كانت لا تدفع من المزدلفة حتى تشرق الشمس على ثبير[4].

6-جبل ثور: يقع بأسفل مكة، يبعد عنها بنحو ميلين، وقد سماه البكري بأبي ثور، وقيل أن اسمه الأطحل، وفيه من كل نباتات الحجاز وشجره، بالإضافة إلى شجر اللبان الذي يكثر في بلاد

---

[*]-وهو اسم لثلاثة مواضع: الأول الجبل المذكور آنفا، والثاني حصن بسواحل الشام، كان يعرف بعثلين، والثالث البرج الأحمر بناحية سرقسطة بالأندلس. انظر: الفاسي المكي: شفاء الغرام... ص51.

[1]-الفاسي المكي: المصدر نفسه، ص50.

[*]-وهما جبلان مقابلان لجبل قعيقعان، يخرج إليهما من باب إبراهيم، وسميا بأجياد لأن السميدع كان أول من جاد بالدم فيهما بعد قتاله مع قطورا. انظر: مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص6.

[2]-الأصفهاني: المصدر السابق، ص33، الفاسي المكي: المصدر السابق، ص526.

[3]-اليعقوبي: المصدر السابق، ص153، النووي، المصدر السابق، ص46.

[**]-سنذكر منها: ثبير غيناء، وهو الجبل المشرف على حق الطارقين، ويسمى أيضا أبا الرخمي، ويشرف بينهما الطريق إلى نجد، وثبير الأعرجي وهما حراء وأبا الرخم. انظر الأصفهاني: المصدر السابق، ص34.

[4]-المقديسي: المصدر السابق، ص83. الإصطخري: المصدر السابق، ص23، الأزرقي: المصدر السابق، ص276، وقد ذهب هذا القول مثلا يضرب للإسراع، حيث كانت العرب تقول: أسرع يا ثبير، أدخل في الشروق كي نسرع نحن في النحر. انظر: الميداني (أحمد بن محمد أبو الفضل): مجمع الأمثال، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1961م، ص507، الحموي: تقي الدين أبو بكر: خزانة الأدب وغاية الأرب، ج2، ط1، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1967م، ص327.

اليمن[1].

7-جبل حراء: يقع بأعلى مكة، مقابل لثبير، لا يصعد إلى أعلاه إلا نم موضع واحد على رصفة ملساء، وهو في جميع جوانبه منقطع لا يرقاه راق، يبعد عن مكة بنحو ثلاثة أميال.

كانت العرب تعظم هذه الجبال الأخيرة، وتذكرها في أشعارها، فمن ذلك قول أبي طالب:

وثور ومن أرسى ثبير مكانه وراق ليرقى في حراء ونازل[2].

8-جبل الحجون: بفتح الحاء بعدها جيم مضمومة، وهو جبل يقع بأعلى مكة، به المقبرة المشهورة على يسار الداخل إلى مكة، ويمين الخارج منها إلى منى[3]، وقد ذكر الأزرقي أن قصيا لما مات دفن بالحجون، فتدافن الناس بعده بها[4].

قال الشاعر:

كم بالحجون وبينه من سيد بالشعر بين دكادك وأكامن

وقال آخر:

سنبكيك ما أرسى ثبير مكانه وما دام جارا للحجون المحصب[5]

وهو الذي قال فيه الحارث بن مضاد الجرهمي عندما أخرجتهم من خزاعة من مكة:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر[6].

---

(1)-الأزرقي: المصدر السابق، ص293. اليعقوبي: المصدر السابق، ص152. الأصفهاني: المصدر السابق، ص33. الفاسي المكي: المصدر السابق، ص529.

(2)-القزويني (زكرياء بن محمد): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، 1380هـ-1960م، ص119.

(3)-اليعقوبي: المصدر السابق، ص152 النووي: المصدر السابق، ص81.

(4)-المصدر السابق، ص270، ابن الأثير (عزالدين حسن علي): الكامل في التاريخ، مج2، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1385هـ-1965م، ص23.

(5)-العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح: فؤاد عبد الباقي، مج3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د-ت، ص617.

(6)-ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج1، دار صادر للطباعة والنشر، لبنان، 1380هـ-1960م، ص73، الأزرقي: المصدر السابق، ص69، ابن كثير: البداية والنهاية: تح: أحمد بن شعبان، مطابع دار البنيان الحديثة، 1423هـ-2003م، ص158، أبو العباس عبد المؤمن الشريشي: شرح المقامات الحريرية، ج2، د-ت، ص108.

ومن جبال مكة أيضا المروة والصفا ومنى، وكلها جبال مشهورة لارتباطها بعبادة المكيين وطقوسهم الدينية، مما جعلها محل تقدير لديهم[1].

ثانيا: الشعاب: توجد بمكة شعاب كثيرة لدرجة أنهم ضربوا بها المثل، فقالوا: أهل مكة أدرى بشعابها، نذكر منها:

1-شعب الحجون: وفيه المقبرة المشهورة باسمه، يقول فيه كثير بن كثير:

كم بذلك الحجون من حي صدق من كهول أعفة وشباب[2].

2-شعب الصفي: وهي الشعب الذي يقال فيه: صفي السباب، وهو ما بين الراحة والراحة[*]. وهو الجبل الذي يشرف على دار الوادي وبين نزاعة الشوا، الذي يقول فيه الشاعر:

إذا ما نزلت حذو نزاعة الشوا بيوت ابن قطر فاحذروا أيها الركب

أما سبب تسميته بشعب الصفي، فقيل: أن الناس في الجاهلية كانوا إذا فرغوا من مناسكهم نزلوا المحصب، فوقفت قبائل العرب بفم الشعب، فتفاخرت بأدائها وأيامها ووقائعها، حيث يقوم من كل بطن شاعر أو خطيب، ينشد شعرا أو يلقي خطبة يفاخر بها الحاضرين[3].

فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة، قال تعالى: [فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا] [4].

3-شعب أجياد الصغير:

وهو الشعب اللاصق بجبل أبي قبيس ويستقبله أجياد الكبير، وعلى فهم الشعب ديار آل المغيرة

---

[1]-ابن حوقل: المصدر السابق، ص36، المقديسي: المصدر السابق، ص86، الحميري: المرجع السابق، ص ص531، 552.

[2]-اليعقوبي: المصدر السابق، ص153. ابن حوقل: المصدر السابق، ص37، الأزرقي: ص271.

[*]-وقد سمي بالراحة لأن قريشا في الجاهلية كانت تخرج إلى شعب الصفي، فتبيت به الصيف تعظيما للحرم، ثم تخرج، فتستريح في الجبل المسمى بالراحة. انظر: الأزرقي: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]-الأزرقي: المصدر نفسه، الصفحة نفسها، اليعقوبي: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[4]-سورة البقرة، الآية: 200.

منها دار هشام ابن العاص ابن المغيرة ودار زهير بن أبي أمية بن المغيرة[1].

أما سبب تسميته بأجياد فقد قيل أن خيل تبع كانت فيه فسمي أجيادا بالخيل الجياد[2].

4-شعب أرنى:

يقع في الثنية[**] في حق آل الأسود وقالوا إنما سمي بذلك لأنه كانت تسكنه البغايا فكن إذا دخل عليهن أحد قلن: أرنى أرنى أي أعطيني فسمي الشعب شعب أرنى[3].

5-شعب آل الأخنس:

يقع بين جبل حراء وجبل سقر[*] وفيه حق آل زراويه حلفاء بني زهرة بن كلاب، ويقال له أيضا شعب العيشوم وهو نبات يكثر فيه.

6-شعب المطلب:

وهو الشعب الذي خلف شعب الأخنس ابن شريف، فيتفرع في بطن ذي طوى والمطلب هو السائب ابن أبي وداعة[4].

7-شعب زريق:

وهو فرع من وادي ذي طوى أمام سبب تسميته فقيل فيه أن زريق كان مولى لنافع ابن علقمة ففجر بامرأة يقال لها درة، فرجم في ذلك الشعب فسمي شعب زريق [5].

8-شعب المأزمان:

---

[1]-الأزرقي، المصدر السابق، ص288.، اليعقوبي، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[2]-المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، تح: يوسف أسعد داغر، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1965، ص51، المخزومي، المرجع السابق، ص34.

[**]-الثنية وتسمى أيضا الحزنة وهي التي يهبط منها إلى شعب عمر وبني مطيع وبها بئر بكار. انظر: الازرقي: المصدر السابق، ص296.

[3]-الأزرقي: المصدر السابق، ص297.

[*]- وكان يسمى في الجاهلية جبل الستار، وكان يقال له جبل كنانة وكنانة هو واحد من العبلات من ولد الحارث ابن أمية ابن عبد شمس الأصغر. انظر: الأزرقي: المصدر نفسه، ص285.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص285.

[5]-الأزرقي: المصدر نفسه، ص101.

الذي يقع بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرنة[1]والملاحظ على هذه الشعب أن وجودها مرتبط بوجود الجبال فالكثير منها يقع بين جبلين. أما بالنسبة لتسميتها فقد أخذ بعضها أسماء الجبال التي تقع بينها، وأخذ بعضها الآخر من أسماء من سكنها مثل شعب علي وشعب علي رضي الله عنهما[2].

ثالثا: المناخ والنباتات:

بعد دراستنا لمختلف المظاهر الطبيعية لحاضرة مكة سنتحدث في هذا العنصر عن طبيعة مناخها من خلال دراسة درجة الحرارة فيها وكميات التساقط ، وعلاقة كل منهما بنوعية الغطاء النباتي الذي يكسو المنطقة حلتها الخضراء.

1-درجة الحرارة:

لقد وصف المقديسي طبيعة مناخ مكة ، وارتفاع درجة الحارة بها بقوله: «...يكون بالحرم حر عظيم وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة...» [3].

يبدو أن درجة الحرارة كانت ترتفع ارتفاعا شديدا في فصل الصيف خاصة في النهار ولكنها تنخفض ليلا يؤكد ذلك قول النبي ρ : «من صبر على حر مكة تباعدت منه جهنم مسيرة مائة عام، وتقربت منه الجنة مسيرة مائتي عام» [4].

إن شدة حرارة الصيف بمكة هي التي دفعت بعض أهلها إلى البحث عن الظلال في أكنان الجبال المحيطة بها، فيحتمون بها من حر الشمس التي أحرق لهب ألسنتها وجوههم وأجسادهم. وهذا ما زاد في أهمية جبال مكة[5]. أما بعضهم الآخر خاصة الميسوري الحال منهم فقد فضلوا الذهاب إلى الطائف لقضاء فصل الصيف بها[6]. وهم الذين قال فيهم النميري:

---

(1)-اليعقوبي: المصدر السابق، ص154، ابن حوقل: المصدر السابق، ص37..

(2)-مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص10.

(3)-المصدر السابق، ص83.

(4)-عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، د-ت، ص302، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط3، دار الفكر، دمشق، 1403هـ-1983م، ص225.

(5)-أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص26، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، تر: عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د-ت، ص06.

(6)-Sediilot, L.B: histoire général des arabes, paris 1977, p41.

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف[1].

ويذكر ابن خردادبة أن من أراد من أهل مكة أن يأتي الطائف عن طريق العقبة عليه أن يأتي عرفات، ثم بطن نعمان، ثم يصعد عقبة حراء، ثم يهبط ويصعد عقبة خفيفة فيدخل الطائف[2].

2- التساقط:

أما بالنسبة لتساقط الأمطار بمكة فما يكاد فصل الصيف الحار والجاف أن ينتهين حتى يأتي الخريف وبعده الشتاء ليعيش المكيون رعب تهديد السيول لهم، ولأماكن عبادتهم، حيث تحدث الإخباريون عن تخريب السيول للكعبة، فذكر الأزرقي عدد منها حدث بعضها في عهد جرهم وبعضها الآخر في عهد خزاعة، وكان هذا الأخير مدمرا فأحاط بالكعبة ورمى بالشجر اسفل مكة وجاء برجل وامرأة متين، فعرفت المرأة وكانت من بني بكر يقال لها فارة أم الرجل، فلم يعرف فسمي السيل باسمها[3].

وعلى الرغم من كون المدينة ساحلية مطلة على البحر الأحمر، إلا أنها لم تستفد من الرياح الرطبة المشبعة بالبخار، ويعود ذلك إلى جود الجبال كحاجز طبيعي مما جعلها تعاني من قلة التساقط وتذبذبه، ولعل هذا التذبذب هو الذي حدد نمط ونوعية النباتات التي نمت بتلك المنطقة.

3- النباتات:

لقد كان لهذه الظروف المناخية القاسية أثرها الواضح على غطاء المنطقة النباتي حيث ذكر الإخباريون أنه كان ينبت بمكة في عصورها القديمة، وبالضبط عند قدوم جرهم إليها غياض ملتفة من سلم وسمر ونباتات تسمن المواشي. لكن هذه الغياض بدأت تتلاشى تدريجيا، ولم يعد ينبت فيها سوى الضغابيس[*] والغضى[**] والسنا والجثجاث[***] وشجر السواك، منها الكبات[****] وهي نباتات

---

[1]- ابن خردادبة: المصدر السابق، ص134، الشنتمري (يوسف بن سليمان بن عيسى): أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج1، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1401هـ-1981م، ص193، حماد بن حامد السالمي: الشوق الطائف حول قطر الطائف، ق1، ط1، دار الشريف للطباعة، السعودية، 1420هـ-1999م، ص69.

[2]- ابن خردادبة: المصدر السابق، الصفحة نفسه.

[3]- .الأزرقي: المصدر السابق، ص159، نبيه عاقل: المرجع السابق، الصفة نفسها، توفيق برو: تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق، سورية، 1981م، ص165.

[*]-جمع ضغبوس، وهو نبات طويل يشبه العراجين، يقول ابن الأثير: الضغابيس نباتات ضعيفة، يشبه بها الضعيف من الرجال. انظر: ابن الأثير مجد الدين: المصدر السابق، ص123.

استعمالها المكيون في التداوي من الأمراض التي كانت تفتك بهم [1].

أما الأشجار المثمرة كالنخيل وغيرها، فيذكر ابن حوقل وغيره من الجغرافيين القدامى: «أنه ليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية، فإذا جزت الحرم فهناك عيون وأبار وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل» [2].

إن ربط ابن حوقل بين وجود الشجر المثمر، وتوفر العيون، والآبار خارج مكة، وليس بداخلها يبين لنا مدى شحة المياه بمكة، ومن ثمة قلة النباتات بها.

يبدو أن قسوة المناخ من جهة، وقلة النباتات من جهة أخرى هي التي دفعت بالمكين إلى الاعتماد على التنقل لجلب أرزاقهم من خارجها، فتركوا ممارسة الزراعة، ومارسوا الصيد لغنى جبالها بأنواع عدة من الحيوانات البرية كالغزلان والأيائل، بالإضافة إلى ممارستهم الرعي لكسب قوتهم.

ولعل الذي ساعد المكيين على ممارسة الحرفتين السابقتي الذكر هو ما توفرت عليه المنطقة من ثروة حيوانية سواء المستأنسة منها أو غير المستأنسة [3]، وهذا ما نفصل فيه في الحياة الاقتصادية.

المبحث الثالث: نشأة مكة وتطورها

يتعرض كل باحث في تاريخ مكة إلى إشكالية بداية تأسيسها، وذلك لغياب النصوص التاريخية الدقيقة، والمعاصرة للفترة المدروسة، التي تتناول هذه المرحلة الأساسية من تاريخ المدينة. لذا سأحاول بما توفر لدي من مادة خبرية أن أعالج هذه الإشكالية بكل دقة وموضوعية.

ولما كانت أحداث هذه المرحلة من تاريخ مكة تعتمد على ما ذكرته كتب الإخباريين من

(**)- نوع من النباتات ذات السقان القوية. أنظر: لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق، ص93.

(***)–نبات أصفر طيب الرائحة.

(****)–هو ثمر الأراك قبل أن ينضج. انظر: ابن الأُير مجد الدين، مصدر سابق، ص124.

(1)-الأزرقي: المصدر السابق، ص122، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص301.

(2)-ابن حوقل: المصدر السابق، ص37، الإصطخري: المصدر السابق، ص23، القزويني: المصدر السابق، ص113، أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1998، ص145.

(3)-دراع الطاهر: المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ القديم، ج1،د-ط، 1424هـ 2003م، ص20.

روايات وأساطير، تتفق في بعض الأمور وتتضارب في أخرى، فقد اختلف المؤرخون المحدثون في قراءتها وتفسيرها إلى عدة آراء:

-**الرأي الأول**: يرى أصحابه(*) أن تاريخ مكة يعود إلى ما قبل قدوم سيدنا إسماعيل وأمه إليها أي قبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد (19ق.م) [1].

-**الرأي الثاني**: يرى أصحابه(**) أن تاريخها يبدأ بمجيء سيدنا إبراهيم بزوجه وولده إليها ونزول قبيلة جرهم معهما، أي منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد (19ق.م)[2].

-**الرأي الثالث**: فيرى أصحابه(*) أن تاريخها الحقيقي يبدأ بتولي قصي بن كلاب ولايتها، أي القرن الخامس الميلادي (5م)[3]. وسنتعرض فيما يأتي لكل رأي بالدراسة والتحليل.

فمكة إذن حسب أصحاب الرأي الأول كانت قبل قدوم سيدنا إسماعيل وأمه هاجر إليها، مركزا تجاريا ينزل فيه التاجر والمسافر للتزود والراحة، حتى يستطيع مواصلة سفره حيث يريد[4]. ويبدو أنهم انطلقوا في ذلك مما قد ذكرناه في تسمية بطلميوس لمكة بمكورابا، وقرابتها اللغوية بمكربة اليمنية، بالإضافة إلى وقوعها على طريق القوافل التجارية للدلالة على أن أصل سكانها من اليمن[5]. لذا لا يستبعد أن تكون مكة واحدة من تلك المحطات التجارية التي أسسها اليمانيون على طول الطريق

(*)-من بينهم: جواد علي، محمد نافع مبروك، محمد حسين هيكل..الخ.

[1]-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص11، محمد نافع مبروك: تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، ط2، مطبعة السعادة، مصر، 1952، ص123، ضرار صالح ضرار: المرجع السابق، ص33.

(**)-من بينهم: محمد مصطفى النجار، سهيل زكار، محمد أفندي غنيم...الخ.

[2]-محمد أفندي غنيم: خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام، ط1، العامرة الشريفة، مصر، 1316هـ، ص58، محمد مصطفى النجار: عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام، ط1، دار الطليعة، الأزهر، مصر، د.ت، ص49، سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث حتى سقوط بغداد، ط4، دار الفكر، 1402هـ-1988م، ص35.

(*)-من بينهم: إبراهيم الشريف، حسن إبراهيم حسن، المستشرق موتو جومري وات...الخ.

[3]-إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص88، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، ط7، مكتبة النهضة، القاهرة، 1964، ص45.

[4]-جواد علي: المرجع السابق، ص12.

[5]-محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، 1999م، ص398.

الممتد من اليمن إلى أعالي الحجاز[1].

وهذا ما تؤكده بعض روايات الإخباريين أمثال الأزرقي، الذي قال[2]: «...إن إبراهيم خرج ومعه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا وقال أبهذه أمرت يا جبريل، فيقول جبريل: إمضي، حتى قدم مكة وهي ذات سمر وعضاه وبها أناس يقال لهم "العماليق" خارج مكة وحولها...» ويواصل في موضع آخر أن العماليق كانوا بها لما قدم وفد عاد للاستسقاء.

كما ذكر عبيد بن شرية الجرهمي في أخباره[3] «أنه لما نزل إسماعيل وأمه هاجر بمكة كانت جرهم[*] أهل البلد الحرام فنشأ إسماعيل فيهم». في حين ذكر الهمذاني «أن قبيلة جرهم لم يكونوا سيارة يوم عثروا على سيدنا إسماعيل وأمه، بل كانوا مقيمين حول مكة، ووادیها يومئذ خاو لا يدخلونه إلا لرعي»[4].

من خلال دراستنا لهذه النصوص يتضح لنا أن أطراف مكة وما حولها هي التي كانت مأهولة من قبل العماليق أو الجرهوميين، وليس واديها الذي وصفوه بأنه ظل خاو وأنهم لا يدخلونه إلا لرعي حتى نزلت به هاجر وولدها.

لذا لا يستبعد أن يكون بطن الوادي هو محل إقامة مؤقتة سواء للمارين به، أو العماليق المقيمين بقربه، أو عبارة عن مركز تجاري تتم فيه المبادلات التجارية، نظرا لما يتمتع به من حصانة

---

(1)-محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص85.

Emile Dermenghem : La vie de Mohemet, édit Charlot, 1950, Paris, p35.

(2)-الأزرقي: المصدر السابق، ص30، أبو الفضل الميداني: المصدر السابق، ص180، ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي): المنتظم في أخبار البشر، تح: محمد عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ-1990م، ص ص265-266،

(3)-أخبار عبيدة بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1347هـ، ص315.

(*)-قبيلة يمنية تنسب إلى أبيها جرهم بن قحطان بن عابر، انتقلت إلى الحجاز وأقامت به ثم نزلت بمكة وكان على رأسها يومئذ مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هي بن نبت بن جرهم بن قحطان. انظر: عبيد بن شرية: المصدر السابق،ص398، الهمذاني: الإكليل، ج1، تح: محمد علي الأكوع الحوالي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1385هـ-1963م، ص117، البلاذري: المصدر السابق، ص7.

(4)-الهمذاني: المصدر السابق، ص101.

طبيعية، وموقع وسط بالنسبة للقرى المحيطة به[1].

والمؤكد أن تحول هذا المكان من مركز تجاري إلى مقر لتجمع بشري منظم (مدينة) كان بعد مجيء سيدنا إبراهيم بزوجه وولده إليها، وظهور زمزم، ونزول جرهم معهما، بالإضافة إلى بناء البيت من قبل إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-[2]. وهذا ما يؤكده الباحث لويس ما مفورد في قوله[3]: «...وهكذا يتبين لنا أن المدينة قبل أن تصبح مقرا لإقامة ثابتة، بدأت بأن كانت مكانا للاجتماع، يختلف إليه الناس من حين إلى آخر. فقطب المغناطيس يأتي قبل الوعاء... وعلى ذلك فإننا نجد البذرة الأولى للمدينة في مكان الاجتماع لإقامة الطقوس، فيصبح ذلك الاجتماع بمثابة كعبة يحج إليها الناس أي المكان الذي يجذب إليه مجموعات من الأسر والعشائر، لأنه إلى جانب ما قد يتوفر عليه من المزايا الطبيعية، كانت تتركز فيه قوى روحانية لها قدرة أكبر ودلالة كونية أوسع، لأن مصدرها سيكون أكثر خلودا وأبعد صيتا».

وهكذا توفرت أهم الشروط للاستقرار، والبناء الحضاري المتمثلة في الماء كعنصر ضروري للحياة، والعبادة كغذاء للروح. مما شجع القادمين إليها على الاستقرار بها، ومن ثم المساهمة في بناء المدينة وتطويرها، وهذا ما يراه أصحاب الرأي الثاني الذين نسبوا تأسيسها إلى سيدنا إسماعيل. معتمدين في ذلك على ما ذكرته معظم كتب الإخباريين والمحدثين القدامى، قال ابن عباس: «...أول ما اتخذت النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها عن سارة، ثم جاء بها إبراهيم وابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت...» [4].

«...عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جراب فيه ثمر وسقاء فيه ماء ثم انطلق إبراهيم إلى الشام»، فلما نفذ الماء وانفجر زمزم بعد سعي هاجر بين الصفاء والمروة، يضيف ابن عباس «...كانت كذلك حتى مرت رفقة من جرهم مقبلين من طرف كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا فعلموا أنه يدور على

---

[1]-محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص86، جواد علي: المرجع السابق، ص12.

[2]-محمد مصطفى النجار: المرجع السابق، ص49،

W.M. Watt: Op-Cit, P, 22.

[3]-لويس ما مفورد: المدينة على مر العصور، تر: إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو-مصرية، القاهرة، 1964م، ص15.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص30، ابن الجوزي: المصدر السابق، ص266، ابن كثير: قصص الأنبياء من القرآن والأثر، تح: صدقي جميل العطار، ط1، بيروت، لبنان، 1420هـ2003م، ص135.

ماء فنزلوا الوادي واستأذنوا أم إسماعيل في البقاء معها، قال الرسولρ [1]: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس»[2]، وجاء في التوراة أن إبراهيم υ أخذ زوجه هاجر وابنها إلى برية بئر السبع ثم نقلهما إلى جبال فاران [3].

في حين ذكر المسعودي رأيا آخر يخالف فيه ابن عباس بشأن نزول جرهم مع أم إسماعيل وولدها يقول فيه أنه بعد القحط الذي أصاب بلاد اليمن تفرقت كل من جرهم والعماليق في طلب الماء والمرعى، فيممت العماليق نحو تهامة[*] وعليهم السميدع بن هوبر[**]، وأثناء مرورهم أشرف روادهم على الوادي، فرأوا طيرا عائفا فعرفوا أنها تدور على ماء فنزلوا بطن الوادي واستأذنوا أم إسماعيل في البقاء معهما، فشب إسماعيل فيهم، وعيل منهم، ثم كانت زيارة إبراهيم الأولى التي طلب فيها منه تغيير عتبة بابه[4].

أما بالنسبة لنزول جرهم بمكة فهو يرى أنه حدث بعد سماعهم بنزول بني كركر بالوادي، وما هم فيه من خصب وإدرار للضرع، بخلاف حال القحط التي هم فيها، فبادروا نحو مكة وكان عليهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعد، حتى أتوا الوادي واستوطنوه مع أم إسماعيل وابنها ومن تقدمهم من العماليق. ومنهم تزوج إسماعيل زوجه الثانية شامة بنت مهلل بن سعد بن عوف التي أمره أبوه في زيارته الثانية له أن يثبتها، ودعا لهما بالخير والبركة[5].

إن الدارس لهذين النصين يلاحظ الاختلاف بين الإخباريين حول من نزل مع أم إسماعيل

---

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص31، ابن الجوزي: المصدر السابق، ص266، المخزومي: المصدر السابق، ص158 محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، ط6، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1937، ص59، مقبل بن هادي الوادعي: الصحيح، المسند من دلال النبوة، ط1، دار الأرقم للنشر، الكويت، 1405هـ-1985م، ص268.

[2]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب: بدأ الخلق، باب: يزفون النَسَلانُ في المشي، ج4، ص174.

[3]-الإصحاح، 21، سفر التكوين، الآية: 21؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ص156، عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د-ت، ص104.

[*]-تهامة: قطعة من اليمن وهي جبال مشتبكة أولها في بحر القلزم مما يلي غربيها وشرقيها بناحية صعدة وجرش ونجران، وشمالا حدود مكة وجنوبها حدود صنعاء، وسميت تهامة بتغير هوائها، من تهم الذهن، أي تغير ريحه. انظر: الاصطخري: المصدر السابق، ص26، الحميري: المصدر السابق، ص141.

[**]-وهو السميدع بن هوبر بن لاوي بن قيطور بن كركر. انظر: عبيد بن شرية: المصدر السابق، ص398.

[4]-المصدر السابق، ص18.

[5]-المصدر نفسه، ص21.

وابنها بطن الوادي، أهم العماليق أو جرهم، غير أن الإشكالية لا تتعلق فقط بمن نزل أولا بل في وضعية النازل في حد ذاته، هل نزل من حولها إليها أم كان مارا بالقرب منها ثم نزل إليها.

نلاحظ من خلال دراستنا لنص ابن عباس أنه يجعل نزول جرهم بعدما كانوا سيارة مع أم إسماعيل وابنها، في بطن الوادي أصل أول تجمع بشري، شكل النواة الأولى لبناء اجتماعي منظم في إطار حضاري مكونا أهم حاضرة في بلاد الحجاز.

أما بالنسبة لنص المسعودي الذي انطلق أيضا من كون إسماعيل وأمه هما أول من سكن المنطقة، إلا أن جماعتهما قد توسعت بانضمام العماليق إليهم، ثم ازدادت توسعا بمجيء جرهم بعد سماعهم برخاء المنطقة وخصبها. ولعل ذلك كله قد حدث بعد دعاء سيدنا إبراهيم υ قال تعالى: [رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ][1].

واستجاب الله Y لدعاء خليله إبراهيم، فقدم كل من العماليق وجرهم واستقروا بالمنطقة.

على الرغم من اختلاف الإخباريين حول تسمية الجماعة التي شكلت اللبنة الأولى لبناء المجتمع المكي القديم، فقد اتفقوا على المنطقة التي قدمت منها، وهي بلاد اليمن، وعلى أسباب استقرارهم بها، وهي توفر الماء (ماء زمزم) وبناء البيت مقر العبادة[*].

ذكر الإخباريون أن بناءها كان بعد زيارة إبراهيم الثالثة لولده، حيث وجده كما قال الأزرقي: «...جالسا تحت الدوحة قريب من زمزم، فلما رآه قام وصنعا كما يصنع الوالد بولده، ثم قال إبراهيم: يا إسماعيل إن الله Y قد أمرني أن أبني له بيتا هاهنا»[2]، وأشار إلى أكمة[**] مرتفعة، وبدآ يحفران

---

[1]-سورة إبراهيم، الآية: 37.

[*]-كان بناء المعبد في المدن القديمة شرط أساسي لبناء أي مدينة، حيث كانت البيوت تبنى حول المعبد، وهو في مكان مرتفع عنها لقدسته، ومكة من هذه المدن القديمة، لذلك اقترن تاريخ تأسيسها ببناء الكعبة كأهم معلم بها.

[2]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب: يزفون النسلان في المشي، ص75. الأزرقي: المصدر السابق، ص29، محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ρ في العهد المكي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، 1979م، ص67

[**]-هي الموضع الذي يكون أشد ارتفاعا مما حوله، لكنه دون الجبل. انظر: الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص75.

على القواعد، ثم أخذ إسماعيل يحمل الحجارة(***) على رقبته وإبراهيم يبني، فلما ارتفع البناء وشق على الخليل تناول الحجارة قرب إليه إسماعيل المقام، فكان يقوم عليه، فلما انتهى البناء إلى موضع الحجر الأسود طلب من ابنه حجرا يضعه ليكون علما للطواف، فجاءه جبريل بالحجر الأسود، قيل نزل به من الجنة أو أتى به من جبل ابي قبيس، وجعل الخليل طول البيت تسعة أذرع، وعرضه على أساس آدم(****) من الركن الأسود إلى الركن الشمالي اثنين وثلاثين (32) ذراعا. ومن الشامي إلى الغربي اثنين وعشرين (22) ذراعا، ومن الغربي إلى اليماني واحد وثلاثين (31) ذراعا، وجعل بابه بالأرض غير مبوب[1].

وقد صور القرآن الكريم هذه الحادثة التاريخية والدينية في قوله تعالى: [وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ][2]، وقوله أيضا: [وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ][3].

وبعد أن أتما بناء الكعبة(*) أمر الله إبراهيم بأن يؤذن في الناس للحج قال تعالى: [وَأَذِّنْ فِي

(***)-يذكر المسعودي أن الخليل υ كان يبني بحجر الدبش غير منحوت، بناء رضا، أي أنه كان يضع الحجارة فوق بعضها البعض دون ملاط من الطين أو قصة –نورة-. انظر: المسعودي: المصدر السابق، ص22، عبد القدوس الأنصاري: المرجع السابق، ص124.

(****)-ذكر الإخباريون أن أول من بنى البيت بعد الملائكة هو سيدنا آدم υ وقيل ابنه شيت. انظر: الهمداني: الإكليل، ج1، ص98؛ أحمد محمد المكي: إخبار الكرام بأخبار البلد الحرام، تح: الحافظ غلام الله، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1405هـ-1975م، ص123.

(1)-الأزرقي: المصدر السابق، ص نفسها، المسعودي: المصدر السابق، ص22، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة...، ص96، بن خلدون: المقدمة، ط1، دار الفكر الإسلامي، 1424هـ-2004م، ص383.

(2)-سورة الحج، الآية: 26.

(3)-سورة البقرة، الآيتين 127-128.

(*)-واسم الكعبة متداولا في الأحاديث النبوية وفي كلام العرب المنثور والمقفى، وتذكر مصادر اللغة أن اسم الكعبة مشتق من مادة التكعيب، وهو التربيع. ومنه الكعب الذي سمي بهذا الاسم لنتوئه وخروجه من جانبي القدم، وكان في بلاد العرب كعبات أخرى منها: كعبة نجران، وفي اعتقادي أنها بنيت تقليدا للأولى التي بناها سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل –كما أسلفنا-. انظر: النووي: المصدر السابق، ص116، ابن منظور: المصدر السابق، ص405، الفيروز آبادي: المصدر السابق، ص123.

النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ][1]. ولعل ذلك يعتبر إعلانا رسميا لنشأة هذه المدينة المقدسة حول بيته الحرام.

وإن صح ما ذكرته كتب الإخباريين بأن إسماعيل شارك أباه في بناء الكعبة وهو ابن الثلاثين (30) سنة[2]، وباعتبار أن إبراهيم في الفترة (1940-1765ق.م)، وأنه رزق بولده إسماعيل وهو في السادسة والثمانين (86) من العمر، فإن إسماعيل يكون قد ولد فيه (1854 ق.م)، وعليه يكون بناء الكعبة حوالي (1824ق.م) [3].

لقد ارتبط حكم مكة بولاية البيت وسدانته منذ بنائه، فكان أول من ولي عليها، وأقام حكمه بها سيدنا إسماعيل υ طيلة الفترة الممتدة (1824-1754ق.م)، ثم تلى الأمر بعده ابنه نابت، وبعده قيدار[4].

وقيل أن الزعامة انتقلت مباشرة بعد نابت إلى جده مضاض بن عمرو الجرهمي، وظلت في أيدي جرهم زمن طويل[5]، بعدها ستسكت المصادر طيلة الفترة اللاحقة من (1754-587ق.م)، أي من حكم نابت إلى مجيء قبيلة خزاعة من اليمن لتحل محل جرهم في حكم مكة، حيث اكتفت ببعض الإشارات إلى أهم من حكم مكة من ولد إسماعيل أمثال: عدنان بن أدد[*] الذي قاد العرب في ذات عرق ضد الملك بخت نصر البابلي (605-561ق.م) الذي خرب بيت المقدس وأخضع مملكة اليهود

---

[1]-سورة الحج، الآية: 27.

[2]-ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): المعارف، تح: ثروة عكاشة، ط2، دار المعرفة، مصر، د-ت، ص34، المسعودي، المصدر السابق، ص22، حمزة بن حسن الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط3، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 1965، ص33، ابن الوردي (زين الدين): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد رفعت البدراوي، ج1، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1389هـ-1970م، ص24.

[3]-بيومي مهران: المرجع السابق، ص399.

[4]-ابن هشام: المصدر السابق، ص71، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج1، دار صادر، بيروت، د-ت، ص222، ابن قتيبة: المصدر السابق، ص34، النويري (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر 16 مطابع دار الكتب المصرية، 1374هـ-1955م، ص22.

[5]-ابن هشام: المصدر السابق، ص71. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص221، البلاذري: المصدر السابق، ص7، المسعودي: المصدر السابق، ص22، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص92.

[*]-عن أم سلمة زوج النبي ρ أنها قالت: سمعت رسول الله ρ يقول: «عدنان بن أدد بن زيد ثرى بن أعراق الثرى» قالت أم سلمة: فزيد هو الهميسع وثرى هو نبت، وأعراق الثرى هو إسماعيل υ. انظر: الهمداني: الإكليل، ص111.

وسبى شعبها وأراد غزو الحجاز[1]، وابنه معد ابن عدنان الذي تزوج بابنت جوشم ابن جلهمة الجرهمي، فولدت له نزارا الذي أنجب أربعة أولاد هم: إياد، إنمار، ربيعة، مضر، ويذكر أنه آثر إيادا بولاية الكعبة لما حضرته الوفاة، وأعطى مضر ناقة حمراء، وربيعة الفرس، أما إنمار فأعطاه جارية تسمى بجيلة فعرف بها[2].

أما بالنسبة لتدهور الأوضاع بمكة، وهلاك جرهم وتولي خزاعة[**] أمرها، فقد اختلف الإخباريون بشأنها على ثلاثة آراء:

الرأي الأول: مثله المسعودي الذي أرجع غلبة خزاعة على جرهم إلى كثرة ولد إسماعيل، الذين غلبوا على أخوالهم من جرهم، وأخرجوهم بالقوة فلحقوا بقبيلة جهينة، فأتاهم في بعض الليالي سيل فذهب بهم[3].

في حين ذكر ابن هشام وهو صاحب الرأي الثاني ما يخالف المسعودي حيث أعاد هلاك جرهم، وخروجهم من مكة إلى تعاون بني بكر بن عبد مناة بن كنانة مع عمرو بن الحارث الغبشاني قائد خزاعة على قتالهم وإخراجهم منها عنوة، كرد فعل على بغيهم فيها، وأكلهم مال الكعبة بغير وجه

---

[1]-سفر أرميا الإصحاح 34، الآية:1، الزبيري (أبو عبد الله المصعب): كتاب نسب قريش، تح: إليفي بروفينسال، دار المعارف للطباعة والنشر، 1953، ص3، الفاسي المكي: شفاء الغرام، ص168، كمال سليمان الصليبي: الإطار الخارجي لجاهلية العرب، مطابع جامعة الملك سعود، 1984، ص321.

[2]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص4، اليعقوبي: المصدر السابق، ص223، بن قتيبة: كتاب المعاني الكبير، ج1 تح: سالم الكرنوكي، دار النهضة، بيروت، 1953، ص528، وفي الحديث أن الرسول ρ قال: «لا تسبوا ربيعة ولا مضر إنهما كانا مؤمنين». انظر: النويري: المصدر السابق، ص9. صفي الرحمان المباركافوري: الرحيق المختوم، ط1، دار الإمام مالك للكتاب، البليدة، الجزائر، د-ت، ص36، جون شيفر، مادة إياد، دائرة المعارف الإسلامية، مج3، ص166.

[**]-لقد اختلف علماء النسب في تحديد نسبها، فمنهم من رأى أنهم من ولد قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد = =بن عدنان ذكره ابن حزم، في حين ذكر ابن قتيبة أنهم من ولد الصلت بن النضر بن كنانة، أما صاعد الأندلسي فقد قال بأنهم من ولد قحطان، وهو القول الراجح خاصة إذا علمنا أنهم سموا بذلك لانخزاعهم من قومهم بني عمرو بن حارثة وبقائهم بمكة بعد تفرق أهلهم. وإلا لا يكون لاسمها أي معنى. انظر: ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد): جمهرة أنساب العرب، تح: إليفي بروفنسال، دار المعارف، 1948، ص28، بن قتيبة: المعارف، ص98، صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تح: حياة علوان، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1985، ص124.

[3]-المسعودي: المصدر السابق، ص23، وقيل لأنهم هلكوا بداء العدسة. انظر: البلادري: مصدر سابق، ص7.

حق رغم نصح مضاض بن عمرو لهم[1]، وفي ذلك يقول الحارث بن مضاض الأصغر وهوي صف حالة قومه بعد خروجهم من مكة[2]:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهرا ووصلة ولم تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذلك البيت والخير ظاهر
فبدلنا بها ربي دار غربة بها الذئب يعوي والعدو المحاصر
سكنا بها قبل الضباء وراثة لها عن بني هيني بن نبت بن جرهم

وذكر الأزرقي رأي آخر ربط فيه بين تدهور الأوضاع بمكة التي تزامنت مع تهديم سد مأرب باليمن حوالي القرن الأول قبل الميلاد، وهجرة مزيقيا بن ماء السماء[*]، في جماعة من الأزد إلى بلاد الحجاز الذين وصفهم بقوله[3]: «كلما نزلوا بلد غلبوا عليه وقهروا أهله». إلا أنهم لما اقتربوا من مكة أرسل قائدهم مزيقيا إلى جرهم يستأذنهم في الإقامة معهم، حتى يعود رواده ورسله من بلاد الشام، فأبت جرهم عليه ذلك وقالوا: «لا والله لا نحب أن تضيق علينا مراتعنا ومواردنا، فارحلوا عنا حيث أحببتهم فلا حاجة لنا بجواركم»، ومع هذا فقد أرسل إليهم مزيقيا ثانية، ولكن هذه المرة بلهجة أكثر حدة وعنفا، قائلا [4]: «أخبرهم بأنه لا بد لي من المقام بهذا البلد حولا حتى يرجع رسلي، فإن تركوني طوعا نزلت وحمدتهم، وإن أبوا قاتلتهم وأقمت على كرههم».

نلاحظ من خلال دراستنا لهذه النصوص أنه على الرغم من اتفاقها على الطريقة التي خرجت بها جرهم من مكة وهي القتال، إلا أنهم اختلفوا فيمن أخرجهم. أهم بنو إسماعيل لما كثر عددهم، أم بني بكر الذي تحالفوا مع عمرو بن الحارث الغبشاني، أو قتال بني مزيقيا لهم قبل تفرقهم، وانخزاع

---

[1]-بن هشام: المصدر السابق، ص72، النويري: المصدر السابق، ص23، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص45، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1964، ص110.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص69، ابن هشام: المصدر السابق، ص72، الماوردي: المصدر السابق، ص203.

[*]-هو عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن أمرئ القيس ابن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد= =بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرض بن قحطان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج1، دار الكتب المصرية، 1340هـ-1922م، ص350.

[3]-الأزرقي: المصدر السابق، ص65، الهمذاني: صفة جزيرة العربي، ص372.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص372.

جماعة منهم بمكة عرفت بخزاعة[1]. ولعل هذا الرأي الأخير هو الأقرب إلى الحقيقة، وهذا ما تؤكده الحوادث التاريخية الآتية.

أما بنصي الأزرقي السابقي الذكر فيمكن أن نستنتج المكانة التي تبوأتها مكة في نفوس العرب، حيث يبدو ذلك واضحا في تعامل مزيقيا بن ماء السماء مع سكان الأماكن التي نزل بها وكيفية تعامله مع سكان مكة، رغم ما سمعه عنهم من ظلم وبغي، لكنه فضل استعمال اللين في تعامله معهم فأرسل إليهم يستأذنهم، وربما فعل ذلك حتى لا تقول العربي يوما عنه أنه اعتدى على بيت الله وأهله.

ولعل رفض جرهم وتعنتهم هو الذي دفعه إلى اللجوء إلى القوة مستفيدا من سوء علاقاتهم ببني إسماعيل لظلمهم إياهم، مما شجعهم على الوقوف إلى جانبه ضد أخواله. الذي انهزموا وخرجوا من مكة صاغرين، عائدين إلى بلادهم اليمن، تاركين أمر مكة وولايتها إلى بني نزار بن معد بن عدنان[2]، واستمر ذلك إلى أن تفرق[*] قوم عمرو وانخزعت منهم جماعة تولت أمر مكة بعد هجرة بني إياد إلى العراق القديم. وذلك حسب رواية أوردها الفاسي، مفادها أن امرأة من خزاعة متزوجة عند بني إياد بن نزار قد نظرت إليهم، وهم يدفنون الحجر الأسود بعد أن تعذر عليهم حمله معهم، فافتقده بني مضر وعظم الأمر في نفوسهم. عندها اقترحت الخزاعية على قومها بأن يأخذوا من بني مضر ميثاقا يولوهم بموجبه ولاية البيت، وتدلهم هي على مكان الحجر[*]، ففعلوا ووليت خزاعة أمر

---

[1]-ابن الأثير مجد الدين: المصدر السابق، ص147، ابن موفق بومدين: الهجرات اليمنية نحو الشرق الإفريقي وأثرها الحضاري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية، 2006-2007، ص104.

[2]-الأزرقي: المصدر نفسه، ص67، المسعودي: المصدر السابق، ص29، صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص124

[*]-فمنهم من خرج إلى العراق، ومنهم من صار إلى بلاد الشام ومنهم من قصد عمان واليمامة والبحرين، وفي ذلك= =يقول جماعة البارقي:

حلت الأزد بعد مأربها الغور فأرض الحجاز فالسـروات
فاحتوت منهم خزاعته الكعـبـة ذات الرسوم والآيـات
ومضت منهم كتائب صـدق منجدات تخوض عرض الفلاة
فأتت ساحة اليمامة بالإضمـعـان والخيل والقنـا والرمـاة
واتلأبت جماعـة منهـم تؤم قافية البحرين بين أيدي الرعاة
فأقرت قراهـا بعمـان فعمان محـل الحمـاة
وأتت منهم الخورنـق أزد فاحتووا ملكها وملك الفـرات
وسمت منهم ملوك إلى الشأم على التبينـة المضمـرات
فتلكم الأكرمون من ولد الأزد لغسان سـادة السـادات

مكة والبيت[1].

ظلت خزاعة تلي أمر مكة فترة طويلة قدرها المؤرخون بحوالي خمسمائة (500) سنة، عرفت مكة خلالها تطورا ملحوظا، فقد عمل زعيمها عمرو بن لحي على تنشيط الحج إلى الكعبة بعد تدهور الأوضاع بمكة وقلة أعداد الحجاج الوافدين إليها، بسبب بغي جرهم واعتدائهم على تجار القوافل، والحجاج المارين بها، أو الوافدين إليها في موسم العبادة. فأخذ يقيم الموائد لإطعامهم، ويجلب الماء من الآبار المحيطة بمكة لسقايتهم، فوفر لهم بذلك إقامة مريحة طيلة موسم الحج حتى يضمن عودتهم في الموسم القادم، فنال بذلك مكانة كبيرة بين قومه، والقبائل الضاربة حول مكة[2].

إذ يذكر الإخباريون أنه كان مطاعا في قومه لدرجة أنه حملهم على عبادة الأصنام التي قدم بها من بلاد الشام، ونصبها حول الكعبة[3]، قصد ترغيب القبائل في الحج إلى البيت، وبالتالي ازدهار التجارة التي تعتبر المورد الأساسي للاقتصاد المكي.

انطلاقا مما ذكره الإخباريون بشأن عمرو بن لحي يتضح لي أنه لعب دورا كبيرا في إعادة بعث مكة من جديد من خلال الإنجازات الكبرى التي قام بها في تنظيم شؤون مكة الإدارية. بإيجاده لمنصبي السقاية والرفادة، وخدمته لحجاج بيت الله. حيث أقام معهم علاقات طيبة ساعدته على تقوية اقتصادها.

إن قلة المادة الخبرية المتعلقة بهذه الحقبة المهمة في تاريخ مكة ترجع إلى سكوت المصادر عن حيثياتها، إذ أجدها تكتفي بذكر أول من ولي أمر مكة من خزاعة وهو عمر بن لحي الذي حملته

انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص373.

(*)-يبدو لي أن قصة الحجر الأسود ما هي إلا ذريعة تذرعت بها خزاعة لتتولى أمر مكة، أو هي مختلقة في الأساس من قبل الإخباريين لملأ فجوة من الفجوات التاريخية التي يعاني منها تاريخ مكة بشكل عام.

(1)-الفاسي المكي: شفاء الغرام، ص86، السهيلي: المصدر السابق، ص84. وقد ذكرها أيضا المسعودي لكنه لم يشر إلى الدور الكبير الذي لعبته الخزاعية من خلال مشورتها على قومها، واكتفى بإخبارها عن مكان الحجر. انظر: المسعودي: المصدر السابق، ص29.

(2)-جواد علي: المرجع السابق، ص14، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص193، أبو عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، دار اليقضة العربية، بيروت، 1969م، ص168.

(3)-الأزرقي: المصدر السابق، ص100، المسعودي: المصدر السابق، ص29.

مسؤولية تغيير دين إبراهيم ϑ[*]، ثم تقفز على كل الأحداث التاريخية لتستأنف حديثها عن آخر حكام مكة وهو أبو غبشان الخزاعي الذي ارتبط ذكره بذكر قصي بن كلاب صاحب الإصلاحات التي جعلت أصحاب الرأي الثالث من المؤرخين المحدثين يعتبرونه المؤسس الحقيقي لمدينة مكة مع تشكيكهم في كل الأحداث التي كانت قبله، لعدم اعتمادها في رأيهم على المرجعية التأريخية الموضوعية نتيجة تضارب آراء الإخباريين حولها، حيث يرى المؤرخ هشام جعيط أن مدينة مكة أنشئت حقا وتشكلت مع بروز دور القرشيين بفضل ما قام به قصي بن كلاب من إصلاحات، وهو شخصية تقع بين الأسطورة والواقع[1]. ولمعرفة قوة هذا الرأي من ضعفه لا بد من معرفة من هو قصي وكيف تولى أمر مكة، وجعل منها حاضرة ذائعة الصيت في كل البلاد العربية؟

يذكر علماء النسب أن قصيا[*] من قريش، وقريش كلها من نسل رجل واحد هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. هذا ما أجمع عليه علماء النسب، أما ما فوقه فقد اختلفوا فيه. فقريش إذن في نظرهم هم فهر وأبناؤه أما ما فوقهم فليس بقرشي[**] بل يقال له كناني[1].

(*)-يذكر الإخباريون أنه لما أكثر عمرو بن لحي من وضع الأصنام حول الكعبة، وغلب على المكيين عبادتها قال: شحنة بن خلف الجرهمي محذرا من أن يحدث له ولقومه مثلما حدث لجرهم:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحدا أبدا ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل ... ليصطفي دونكم للبيت حجابا

انظر: المسعودي: المصدر نفسه، ص30.

[1]-هشام جعيط: المرجع السابق، ص206.

(*)-قصي: تصغير قاصي، وسمي بذلك لأنه قصا عن قومه، فكان في بني عذرة. انظر: ابن دريد: المصدر السابق، ج1، ص896.

(**)-أما تسمية قريش بهذا الاسم، فقد اختلف الإخباريون في أسبابها: فقيل أنها سميت بقريش بن بذر بن يخلد بن الحارث بن بخلد بن النضر بن كنانة لأنه كان دليل بني النضر في أسفارهم، وكان إذا قدم بالعير قالت العرب قدمت عير قريش. أما بقية الآراء فقد اعتمدت على التفسير اللغوي للكلمة التي تعني التفتيش، والتجمع، والتكسب. فبالنسبة للتفتيش، فقد قيل أن النضر بن كنانة وأبناءه كانوا يقرشون عن حاجة الناس في الموسم فيسدونها بأموالهم. أما التجمع فقد قيل لقصي القرشي لتجمع القوم حوله في بطحاء مكة بعد أن كانوا فلولا في ظواهرها. وفي حالة أخذه لمعنى

ويؤكد ذلك قوله ρ: «نحن قريش بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا»[2]، وقال أيضا: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[3].

وقصي عند النسابين العرب هو زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن...بن عدنان، وأمه فاطمة بنت سعد بن سيل الأزدي[4].

قال الرسول ρ : «أيها الناس إن صريح ولدي آدم υ من الأولين والآخرين أبناء كلاب بن مرة، قصي وزهرة لفاطمة بنت سعد بن سيل الأزدي».

توفي أبوه وهو صغير، فتزوجت أمه بعد أبيه برجل من بني عذرة، اسمه ربيعة بن حرام، ولصغر سن قصير أخذته معها، وتركت أخاه زهرة بمكة، فلما شب قصي قال له رجل من بني عذرة الحق بقومك فإنك لست منا، فسأل قصي أمه فقالت: أنت أكرم منه نفسا ونسبا، أنت بن كلاب بن مرة،

التكسب فقد سمو به لأنهم كانوا تجارا، من التقرش وهو التجارة. والراجع في نظري أنهم سمو به لتجمعهم حول قصي لأنه حسب إطلاعي على ما ورد في مصادر الإخباريين حول تاريخ مكة أنهم لم يذكروا اسم قريش قبل ظهور قصي، رغم أنهم ذكروا النضر بن كنانة وبعض ولد إسماعيل ممن حكموا مكة قبله. انظر: مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص12، ابن سعد: المصدر السابق، ص72، الأزرقي: المصدر السابق، ص78، المسعودي: المصدر السابق، ص33، النويري: المصدر السابق، ص16، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص173، محمد سليمان الطيب: موسوعة القبائل العربية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993، ص760.

[1]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص12، ابن قتيبة: المصدر السابق، ص68، البلاذري: المصدر السابق، ص39 ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص11، السمعاني (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد): الأنساب، ج1، تح: عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، د-ت، ص27، عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1976، ص46.

[2]-بن ماجه، السنن، كتاب: الحدود، باب: من نفى رجل من قبيلته، ج2، رقم: 2612، ص871.

[3]-أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ρ، رقم الحديث: 2276، ج4، ص1782، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص173، ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار المعرفة، مصر، د-ت، ص30.

[4]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص14، ابن قتيبة: المصدر السابق، ص70، البلاذري: المصدر السابق، ص47 ابن حزم: المصدر السابق، ص12، السمعاني: المصدر السابق، ص27، القلقشندي: المصدر السابق، ص356.

وقومك آل بيت الله، فكره قصي الغربة ورجع إلى قومه، فأقام بينهم[1].

تعرف قصي أثناء إقامته بمكة على حليل بن حبشية الخزاعي، وكان يلي الكعبة وأمر مكة. فخطب إليه ابنته حبى فزوجه إياها، وولدت له أربعة ذكور سمى اثنين منهما بإلهين، عبد مناف وعبد العزى وواحد بداره، وآخر به، عبد الدار وعبد قصي، فكر ماله وعظم شرفه[2].

فلما توفي حليل رأى قصي نفسه أحق بولاية الكعبة وأمر مكة، وأن قومه هم ورثة إسماعيل ٧ وصريح ولده. فاستنفر قومه ودعاهم إلى إخراج خزاعة من مكة، وكتب إلى أخيه لأمه رزاح بن ربيعة يستنصره، فأجابه فيمن تبعهم من بني عذرة، فقامت الحرب بين قصي وحلفائه وخزاعة، انهزمت فيها هذه الأخيرة وخرجت من مكة تاركة الأمر لقصي وقومه[3].

وفي رواية أخرى أن قصي اشترى ولاية البيت من أبي غبشان بزق خمر[*]، فلما سمعت خزاعة بذلك اجتمعت عليه فقالتها بمن كان معه من بني كنانة، ثم استنجد بأخيه لأمه الذي أتاه في نفر من قومه من قضاعة.

ولما اشتد القتال بينهما تداعوا إلى الصلح على أن يحكم[*] بينهم عمرو بن عفو بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، فحكم لصالح قصي، وجعل كل دم أصابه من خزاعة موضوع فشدخه تحت قدميه، وأن كل دم أصابته هي وحلفاءها من بني بكر ففي الدية مؤداة، وبذلك انتصر

---

[1]-ابن هشام: المصدر السابق، ص73، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص237، المسعودي: المصدر السابق، ص31، ابن الأثير : المصدر السابق، ص18..Encyclopédie de l'Islam : Tome 5, Paris, 1985, p523

[2]-ابن هشام: المصدر السابق، ص74، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص237، القلقشندي: المصدر السابق، ص356.

[3]-ابن هشام: المصدر السابق، ص74، القلقشندي: المصدر السابق، ص356.

[*]-فقيل أخسر من أبي غبشان فذهبت مثلا، وأكثرت الشعراء القول في ذلك منه:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر فبئس صفقة البادي
باعت سدانتها بالنزو وانصرفت عن المقام وظل البيت والنادي
أبو غبشان أظلم من قصـــــي واظلم من فهـر خزاعـــــة
فلا تلحوا قصيا في شـــــراه ولوموا شيخكم إذ كان باعــه

انظر: المسعودي: المصدر السابق، ص32.

[*]-هذا نوع من القضاء عند المكيين في القديم، وهو الاحتكام إلى شخص يعرفون حكمته ونسبه ووجهته في قومه، فلم تكن لهم دار يرفعون فيها مظالمهم.

قصي ووليّ على مكة حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي (5م)[1].

حيث تذكر المصادر أنه كان معاصر للنعمان بن المنذر (418-462م)، وبهرام جور ملك الفرس (420-438م)، لذلك يكون قصي قد تولى الحكم حوالي بين (420-438م)[2].

بعد أن نجح قصي في القضاء على نفوذ خزاعة، وأصبح سيد مكة وصاحب الأمر فيها[**]، أنزل قريش إليها بعدما كانوا بيوتات متفرقة في ظواهر مكة، في شعابها ورؤوس الجبال[3]. فقسمها بينهم أرباعا، فسمي بذلك مجمع، فكان أول ولد لكعب بن لؤي أصاب ملك فأطاع له قومه[4].

قال حذافة بن عامر يمدح عبد المطلب:

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهـــــر[5]

لقد قام قصي بالعديد من الإصلاحات والتنظيمات مست جميع النواحي الحياتية للمجتمع المكي القديم –الذي بدى كمجموعة بشرية شديدة التماسك ممثلة في قبيلة قريش وحلفائها- منها ثلاثة وظائف متعلقة بتنظيم شؤون بيت الله وزواره، وهي الحجابة والرفادة والسقاية، بالإضافة إلى وظائف أخرى تعلقت بالنظام الإداري والسياسي كالندوة واللواء وغيرها.

ويبدو أن هذه الوظائف والإصلاحات التي أحدثها قصي بن كلاب ليكسب حكمه شرعية

---

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص79، الطبري: المصدر السابق، ص180، ابن الأثير: المصدر السابق، ص19، الألوسي: المصدر السابق، ص245، جواد علي: المرجع السابق، ص42.

[2]-جواد علي: المرجع السابق، ص56، محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص400.

[**]-قال قصي يفتخر بنفسه وقومه:

أنا ابن العاصمين بن لؤي بمكة منزلي وبها رضيـــت

إلى البطحاء قد علمت معد ومروتها رضيتها بها رضيت

رزاخ ناصر وبه أساسي فلست أخاف ضيـــم ما حييت

[3]-Lammens.S-J:L'Islam croyances et institutions, imprimerie Catholique, Beyrouth,1926, 25

[4]-ابن هشام: المصدر السابق، ص74، ابن سعد: المصدر السابق، ص70.

[5]-ابن سيد الناس: المصدر السابق، ص29، أحمد زيني دخلان، السيرة المحمدية، ج1، المطبعة الميمنية، مصر، 1306هـ، ص8.

دينية[*]، والتي كان منشأها خدمة الكعبة، ومن حج إليها. هي التي جعلت مكة تنتقل من البداوة إلى المدنية، وهذا رأي بعض المستشرقين أمثال: متوجمري وات الذي اعتبر قصي بن كلاب المؤسس الحقيقي لمدينة مكة، الذي أصبحت بفضله أكثر من تجمع للخيم حول المعبد[1].

إن المبالغة في تعظيم قصي وقريش والإشادة بدوره في النهوض بمكة والعمل على تطويرها[**]، ربما هي التي جعلت بعض المستشرقين أمثال الأب لامنس يقول: «...إن قصي نفسه شخصية خيالية ابتدعها خيال الإخباريين العرب أو هو مجرد محارب قدم من الشمال واستقر بمكة»[2]. وقد بلغ به الأمر للقول بأن قبيلة قريش التي نجحت في حكم مكة، ونقلها من البداوة إلى المدنية كما أسلفنا بإنشائها مختلف النظم السياسية والاقتصادية والدينية، لا يمكن أن تكون من هذه القبائل المتبدية في تهامة والحجاز. لذا لا بد أن تكون حسب رأيه قد قدمت من الشمال أو من العراق، وربما هي بقايا من الأنباط[***]، الذي قضى الرومان على دولتهم في القرن الثاني للميلاد (2م)[3]، ذلك أن قريش برعت في التجارة التي برع فيها الأنباط من قبل، كما أن لغتها التي سادت بلاد العرب هي لغة شمالية[*] أكثر منها جنوبية[1].

---

[*]-هي عادة يمارسها الحكام القدامى عموما عند اعتلائهم كرسي الحكم لاعتقادهم أن السلطة مصدرها الآلهة، وما هم إلا مفوضين من قبلهم لتنظيم وخدمة البشر في الأرض، فما بالك بوضع مكة الخاص، ومدى ارتباط الحكم فيها بولاية البيت وسدانته.

[1]-M.Watt/ Op-Cit, P26.

[**]-لعل ما جعل هؤلاء الإخباريون يبالغون في نسب كل الإصلاحات لقصي على أساس أنه أول من استحدثها هو انتماؤه القرشي، وبما أن بداية كتابة تاريخ العرب بصفة عامة ومكة بصفة خاصة كانت في القرن الثاني للهجرة (2هـ) في ظل الحكم القرشي، سواء في عهد الدولة الأموية أو العباسية فيما بعد، لذا فمن الطبيعي أن يشيد الإخباريون بفضل قريش منذ القديم في النهوض بمكة والعمل على تطويرها.

[2]-Lammens : Op-Cit, P36, Francesco Gabrieli : Mahomet, édit Ablin Michel, Paris, 1960, p22.

[***]-هم عرب الشمال من أشهر ممالكهم مملكة تدمر، عاصمتها البتراء، قضى عليها الرومان حوالي القرن الثاني الميلادي. انظر: عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص171.

[3]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص169.

[*]-يجمع معظم اللغويين المحدثين أن لغة العرب لم تتطور من اللغة العربية القديمة مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الأرامية إلى النبطية إلى القرشية. وهذا ما تؤكده النصوص القديمة التي عثر عليها في البلاد العربية، حيث يعود أقرب نص قديم للكتابة العربية القديمة إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وهو نص امرئ القيس، وهذا

إن إدعاء لامنس بأن قصي شخصية خيالية ابتدعها خيال الإخباريين يخلو من دليل موضوعي يؤكده، بل كل الأدلة والقرائن تؤكد عكس ذلك، فالفترة التي عاش فيها قصي قريبة من الفترة الإسلامية، أضف إلى ذلك ذكره في أحاديث النبي ρ ووجوده في شجرة نسبه، فهو الجد الخامس له.

أما بالنسبة لقوله أن قصيا محارب قدم من الشمال، وأن قريشا ليست من القبائل الحجازية الأصل، فهي محاولة منه للربط بين تاريخ مكة وبلاد الشام الخاضعة لسلطة الروم. ولعله اعتمد في ذلك على ما أورده الإخباريين بشأن نشأة قصي في حجر زوج أمه رزاح بن ربيعة، الذي أخذهما معه من مكة إلى قومه بني عذرة، ثم استنجادهم بهم بعد عودته إلى مكة، ليكونوا عونا له في حربه ضد خزاعة كما تقدم ذكره، حيث يرى المؤرخ جواد علي[2] «أنه يمكن أن تكون تلك القبيلة من العرب النصارى النازلين في أطراف الشام والخاضعين لسلطة الروم».

غير أن ذلك لا يجعل من قصي مجرد محارب قدم من الشمال بالقدر الذي يراه لامنس، وإنما قد تساعدنا تلك المعطيات على محاولة معرفة مدى تأثر قصي بالبيئة التي عاش فيها، فنشأته بالقرب من مركز حضاري كبير (حضارة الروم في بلاد الشام)، تمنحه فرصة الأخذ بأسباب التقدم، الأمر الذي ساعده بعد عودته إلى مكة على إعادة بنائها من جديد بعد الضعف الذي أصابها من خلال إصلاحاته، بوضعه لتلك الوظائف التي نظمت نوعا ما علاقات مكة الداخلية والخارجية.

ومع هذا فإنه لا يمكن الجزم بان مكة بقيت على بداوتها حتى اجتمع أمرها لقصي، لأنه من العصير على أي باحث أن يتصور بقاء بلد له ما لمكة من مكانة دينية واقتصادية في حالة بداوة طيلة الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادي (19ق.م- 5م).

لذلك وبناء على دراسة لكل الآراء فإنني أرجح أن مكة قد عرفت الاستقرار أجيالا طويلة قبل قصي، فقد أطلق عليها القرآن الكريم أم القرى، أي أنها كانت عاصمة للقرى المحيطة بها. كما يمكن أن نستدل على ذلك بنص للطبري قال فيه[3]: «...فلما رأت خزاعة ذلك جلت عن مكة فمنهم من وهب **مسكنه** ومنهم من **باعه**، فولي قصي البيت وأمر مكة والحكم بها، وأنزل قبائل قريش أبطح مكة، وكان

ما سنتوسع فيه في المبحث الخاص بالوضع الثقافي في الفصل الثاني. انظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص403.

[1]-محمد بيومي مهران: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2]-المرجع السابق، ج4، ص117.

[3]-الطبري: المصدر السابق، ص160.

بعضهم في الشعاب ورؤوس الجبال، فقسم بينهم **منازلها**». ويؤكد هذا النص أن مكة كانت حاضرة قائمة بذاتها من الناحية العمرانية منذ عهد خزاعة وليس كما تذكر المصادر الأخرى أن أول دار بنبت بها هي دار الندوة، وهذه البيوت التي باعها أصحابها أو وهبوها أو تركوها ألم تكن مبنية؟

لقد ذكرنا في السابق أول مرفق من مرافق المدينة القديمة ألا وهو المعبد، أو الكعبة، وكيفية بناء المدينة حولها، على عادة الشعوب القديمة في بناء مدنهم[1]. غير أنني وجدت إشكالية بالنسبة لباقي المرافق الأخرى للمدينة، مثل السوق ومقر الإمارة أو الحكم وغيرها، التي لم تتحدث عنها المصادر إلا في عهد قصي الذي بنى دار الندوة وأوجد مختلف الوظائف ذات الطابع الديني والإداري، كما قام بتقسيم مكة إلى أحياء أو بلغة الإخباريين قسمها أرباعا بين قومه.

ومجمل القول أن مختلف الآراء التي تطرقت لها تمثل التطور التدريجي الذي شهدته مدينة مكة أثناء تكونها، بانتقالها من مركز تجاري إلى قرية في الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر إلى القرن الأول قبل الميلاد (19 إلى 1ق.م)، إذ كان أساس الحياة في هذا الوادي تقوم على قبول الهجرة من القبائل القادمة من الجنوب، وقد استمر النظام الحكومي قبل قصي عدة قرون، وكانت بعض الوظائف الدينية والاجتماعية موجودة، لكنها لا تزال في حالة بدائية، وكان على قصي أن يواصل ما بدأه عمرو بن لحي وغيره ممن حكموا مكة قبله[2].

وهذا ما سنحاول التفصيل فيه في الفصل الثاني بدراسة مختلف الأوضاع السياسية، الدينية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية في مكة في عهد قصي بن كلاب وأبنائه.

---

[1]-Fustel de caulanges, La cité antique, Imprimérie savernoise, 1959, P114.

[2]-إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص100.

الفصل الثاني:

أوضاع مكة في عهد قصي بن كلاب وأبنائه

المبحث الأول: الأوضاع السياسية

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية

المبحث الثالث: الأوضاع الاقتصادية

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية والدينية

لقد ارتبط تاريخ مكة منذ نشأتها بالكعبة ارتباطا وثيقا، وكان تقديس العرب لهذه الأخيرة سببا في اهتمام المكيين بتنظيم أمور الحج بها، وقد أدى ذلك إلى ظهور وظائف مختلفة منها ما هو متعلق بالكعبة، ومنها ما هو متعلق بمختلف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية[1].

وقد ظهرت هذه الوظائف كما تقدم ذكره في عهد عمرو بن لحيى لتتطور أكثر مع تولي قصي أمر الحكم بها، وهذا ما سنحاول التفصيل فيه بدراسة مختلف الأوضاع بمكة خاصة في عهد قصي وأبنائه لتوفر المادة الخبرية المتعلقة بذلك.

المبحث الأول: الأوضاع السياسية

يرى بعض المؤرخون المحدثون أن الأوضاع السياسية بمكة قد عرفت تطورا واضحا بعد تولي قصي أمرها حوالي القرن الخامس الميلادي، سيما في مجالي الحكم والإدارة، وسنحاول فيما يأتي التعرف على طبيعة الحكم بها فيما إذا كان ثيوقراطيا دينيا أو نظاما قبليا أم نظاما أرستقراطيا يعتمد على نفوذ الأسر وسيادتها السياسية والاقتصادية وأوضاعها الاجتماعية، وكيفية تطوره لإدارة شؤونها الحياتية؟

المطلب الأول: نظام الحكم

لما كانت بداية التفكير السياسي لمكة مرتبطة بنشأة مؤسسة الحرم، ووجود من يفكر في السلطة وممارستها، كان من الطبيعي أن تمتزج الأفكار السياسية مع نظيرتها الدينية في إطار البناء الحضاري بمفهومه الواسع[2]، فمجال الفكر السياسي بمكة إذن هو الحياة السياسية بشمولها وتداخلها مع الحياة الدينية بكل أبعادها، لأن الشرعية الدينية هي التي تعطي الحاكم الحق في الملكية أو الرئاسة.

إن تولي قصي حكم مكة بعد عودته إليها وانتصاره على خزاعة وشرائح لمفاتيح الكعبة من أبي غبشان الخزاعي –كما سبق وأن أشرنا- أو بزواجه[*] قبل ذلك من حبى بنت حليل الذي كان

---

[1] -الأزرقي، المصدر السابق، ص80، ابن هشام، المصدر السابق، ص79، مصطفى النجار، المرجع السابق، ص48.

[2] -ذراع الطاهر، المرجع السابق، ج1، ص28.

[*] –يعتبر هذا النوع من الزواج زواجا سياسيا خاصة إذا علمنا أن حبى هي وريثة حليل وأن قصي أراد إلى

يلي أمر مكة، يعد خطوة من أجل الحصول على الشرعية لحكمه.

يذكر الإخباريون أنه كان أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكا أطاع له به قومه، فابتنى دار الندوة(**)، وجعل بابها إلى البيت تيمنا به، وفيها كان يقضي أمور قريش كلها، فكانوا لا يعقدون لواء حرب لهم إلا عقده لهم قصي فيها، ولا تخرج لهم عير إلا بأمره، معرفة بفضله، وكانت إليه الحجابة والسقاية الرفادة واللواء، فاجتمعت له بذلك مظاهر الرئاسة والسؤدد والسلطة [1].

اعتمادا على ما ذكر الإخباريين، فإن حكومة مكة كانت من النوع الذي يسمى عند علماء الاجتماع "الباتریاكا" أي تتبع نظام الأبوة أو سيادة الرجل، حيث كان لمكة ولقريش زعيم بارز يخضع له الجميع هو قصي [2]. ومن مظاهر رئاسته لدار الندوة أربعة أمور هي:

1-كان يرأس اجتماعات قريش فيها للتشاور في أمورهم.

2-كانت له كلمة الفصل وسلطة اتخاذ القرار النهائي بإعلان الحرب أو السلم.

3-كان يتولى بنفسه حماية الكعبة وخدمتها، فلا يفتح باب الكعبة ولا يوصده إلا هو.

4-كان يشرف على سقاية الحاج ورفادته[3].

أما ما يمكن استنتاجه من مظاهر هذه الرئاسة، هو جمع قصي بين السلطتين السياسية والدينية، وعليه يكون النظام الذي سار عليه في حكمه لمكة هو النظام الثيوقراطي القائم على الجمع بين السلطتين. مع محافظته على بعض مظاهر الديمقراطية البدائية، وهي التشاور الذي يتم في دار الندوة، رغم انفراده باتخاذ القرار النهائي.

إن وجود دار الندوة في حد ذاتها يعد مظهرا من مظاهر التطور السياسي بانتقال السلطة من شكلها البدائي البسيط الممثل في سلطة شيخ القبيلة، يمارسها في مقر إقامته، وهي الخيمة إلى

الوصول إلى حكم مكة.

(**)-وهي في اللغة مأخوذة من النّدي، والنادي، والمنتدى، وهو مجلس القوم الذي ينتدون حوله، أي يذهبون قريبا= =منه، ثم يرجعون. انظر: ابن هشام، المصدر السابق، ص79، المخزومي، المرجع السابق، ص74، عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، ج3، ط1، دار مكة للنشر، 1399هـ-1979م، ص199.

[1]-ابن سعد: المصدر السابق، ص70، ابن هشام: المصدر السابق، ص79، الأزرقي: المصدر السابق، ص81، أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ، ص150.

[2]-نادية حسين صقر: الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط1، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، 1401هـ-1981م، ص28.

[3]-حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص48.

سلطة رئيس لمدينة قد تضم أكثر من قبيلة يمارسها في دار خاصة بالحكم والسياسة.

لذلك يعتبر إنشاؤها بداية لمرحلة جديدة تبلورت فيها النظم القبلية القديمة، وأخذت شكلا أكثر تطورا وتنظيما، حيث أصبح فيها شيخ القبيلة رئيسا لمجلس يجتمع فيه شيوخ عدة قبائل بمثابة أعضاء فيه، ومساعدين لرئيسهم وقائدهم، الذي يصبح بمقدوره بصفته رئيسا لهم أن يدخل في حياة الجماعة ما تحتاج إليه من إصلاحات وتنظيمات [1]، وفي اعتقادي أن قصي ما بنى دار الندوة إلا لذلك، وأن ما قام به من إصلاحات تصب في هذا المعنى أيضا.

فهل يمكن اعتبار مكة "مدينة-دولة" بالشكل الذي كانت عليه دويلات المدن العراقية أو اليونانية القديمة، لوجود مثل هذه المؤسسات السياسية؟

في الحقيقة أن النظام السياسي في مدينة مكة يشبه نظيره في الكثير من المدن العراقية القديمة[*]، التي اعتمدت في بداية تأسيسها على مؤسسة المعبد كمقر للسلطة وحكم المدينة، ثم بدأت تتطور شيئا فشيئا، بظهور جماعة من رؤساء القبائل، شكلوا مجلسا للتشاور مما أدى إلى ظهور مؤسسة أخرى[**]منافسة للمعبد وهي دار الحكم أو الإمارة، مقرها القصر الملكي[2]، لذا يحتمل أن تكون دار الندوة هي الأخرى غرفة من غرف قصر بسيط بناه قصي بن كلاب لنفسه[3].

يرى الأستاذ روبرت م مكايفر أنه من مظاهر رئاسة شيخ القبيلة على شيوخ آخرين يمثلون أعضاء مجلسه، هو انفراده بامتيازات وتشريفات خاصة برتبته العلية. حيث يقول[4]: «...تتحد صلاحياته وتتكرس امتيازاته وترجح حصته من الغنائم، فيعطى أول من تولى الرئاسة على هذا النحو أمثولة يكون للعادة دائما فعلها في تحويلها إلى تقليد، وفي تطوير التقليد إلى قانون، ومن أهم

---

[1]-روبيرت م مكايفر: تكوين الدولة، تر: حسن صعب، ط2، دار العلم للملايين، 1984، ص53.

[*]–من أهمها مدينة أور، كيش، سيبار، لجش، أوما...إلخ.

[**]–وهي الجمعية العمومية أو المجلس العمومي الذي أصبح المؤسسة السياسية الأولى في المدينة، أما في حالة الطوارئ فقد كانت المدينة تضع نفسها في يد حاكم مطلق يسمى بالسومرية "لوغال" Lugal وهو بمثابة ملك يتم انتخابه من قبل المجلس، حيث يذكر نص سومري ذلك «...اجتمعت كيش، ورفعوا إلى الملكية أبخور كيش رجلا من كيش...» غير أن مجلس مكة لم يصل إلى اتخاذ مثل هذا القرار. انظر: رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن، التاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1977، ص252.

[2]-أحمد أحمين سليم: حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 150.

[3]-السيد أمير علي: المرجع السابق، ص11، عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام، ص46.

[4]-المرجع السابق، ص53.

ما يرافق هذا التحول من خطوات هو إقدام الرئيس القوي الطموح على تعيين ابنه خلفا له، فتصبح الرئاسة وراثية». وهذا ما فعله قصي بإعطائه ابنه عبد الدار سدانة البيت ورئاسة الندوة.

يذكر الأزرقي أنه لما كبر قصي ورقى، كان ابنه عبد مناف قد شرف وعظم أمره، لكن بقية اخوته عبد الدار وعبد العزة لم يبلغوا ما بلغ أخوهم، ولما كان قصي وزوجه يحبان بكرهما عبد الدار، فقد قال قصي: والله لألحقنه به، ولأحبونه بذروة المجد، حتى لا يدخل أحد من قريش ولا غيرها الكعبة إلا بإذنه، ولا يقضون أمرا ولا يعقدون لواء إلا في داره، فأعطاه السدانة والحجابة ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة [1].

في حين أورد الفاسي أن قصيا أعطى ابنه عبد مناف الندوة والسقاية وأعطى عبد الدار السدانة والحجابة واللواء، وأعطى عبد العزى الرفادة[2].

والراجح ما ذكر الأزرقي بدليل بقاء دار الندوة لبني عبد الدار حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد الدار إلى معاوية بن أبي سفيان، فجعلها دارا للإمارة[3].

بعد وفاة قصي حوالي 480م، أقام أبناؤه الأمر من بعده، فكان لكل واحد منهم وظيفة معينة، وتماشيا مع هذا التنظيم الجديد، فقد ألغيت الرئاسة العامة التي كان قصي قد شغلها[4]، واستبدلت بمجلس رئاسي يعرف بمجلس الملأ[*]، الذي كان يضم إضافة إلى أبناء قصي زعماء البطون والعشائر الأخرى التي استحدثوا لها وظائف أخرى –سنتحدث عنها في التنظيم الإداري- تفاديا للتنافس على الحكم والوقوع في التناحر القبلي[5].

---

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص79، ابن الأثير عزالدين: الكامل، ص23.

[2]-الزهور المقتطفة، ص175.

[3]-البلاذري: البلدان وفتوحها وأحكامها، تح: سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، 1412هـ-1992م ص60.

[4]-ابن الأثير عز الدين: المصدر السابق، ص23، محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص96.

[*]–الملأ في اللغة التشاور والاجتماع، يقال: ما كان هذا الأمر عن ملأ منا أي عن تشاور واجتماع، والملأ أيضا الرؤساء، سمي بذلك لأنهم ملاء بما يحتاج إليهم فيه. وقيل: أشراف القوم هم وجهاؤهم ورؤساؤهم الذين يرجع إلى قولهم، وفي الحديث أن الرسول ρ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول: ما قتلنا إلا عجائزا صلعا، فقال ρ: "أولئك الملأ من قريش، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعالك"، أي أشراف قريش. انظر: ابن منظور: المصدر لسابق، مج1، ص159، الزبيدي: المرجع السابق، ص251.

[5]-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص25، مصطفى الرافعي: حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، ط1 دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ص25.

ومن هنا نستطيع أن نطلق على مجلس الملأ اسم حكومة مكة على الأقل من الناحية الشكلية، لأنه في جوهره ظل نظاما قبليا، كما سبق وأن ذكرت، إلا أن مبالغة الإخباريين في وصف ملأ مكة والدور الذي لعبه في تسيير شؤونها هي التي جعلت الأب هنري لامنس والمستشرق فيليب حتي يقولان بأن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل لها[1]، إلا أنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون مجلسا للشورى يجتمع في رؤساء القبائل للتشاور ومناقشة القضايا العامة[2]، أضف إلى ذلك أن سلطته كانت سلطة أدبية ليست لها قوة تنفيذية نظرا لتمتع كل بطن من البطون باستقلاليته وحرية تقبله للقرارات أو رفضها. لذلك لم تكن قراراته نافذة إلا إذا كانت بالإجماع، ورضا جميع البطون.

أما إذا كانت قراراته غير متخذة بالإجماع، فإن تنفيذها يبقى منوطا بحرية كل بطن منهم دون تعرضه لأية عقوبة[*] تذكر في حالة عدم تطبيقه [3]. ومع ذلك فإن قوة هذا المجلس كانت مستمدة من قوة زعمائه، وقدرتهم على الاتفاق والانسجام فيما بينهم حفاظا منهم على المصلحة العامة.

على الرغم من أن مجلس الملأ هذا كان وسيلة الحكم في مكة ينظم شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية العسكرية والدينية، إلا أنه لم يكن يخضع لأي قانون مكتوب، بل كانت قراراته وأوامره هي أحكام ذوي الرئاسة والسن والشرف، وهي مطاعة في عرفه وفي عرف غيرهم من أهل شبه الجزيرة، حكمت بذلك العادة وجرى بها العرف، فهم محافظون حريصون على كل ما وصل إليه آباؤهم، لا يقبلون تجديدا، سنتهم التعلق بالماضي وحب العرف والعادة التي تحفظ حقوقهم الموروثة، ومكانتهم ومصالحهم الاقتصادية[4]. وقد وصفهم القرآن في قوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا

---

[1]-تاريخ العرب المطول، ج1، ط1، دار الكشاف للنشر والتوزيع، 1965م، ص145.

Lamens : Les sanctuaires préislamique dans l'arabie occidentale, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1926, p64.

[2]-نبيه عاقل: المرجع السابق، ص238،

M. Watt : Op-cit, p28.

[*]-في حين يرى عبد اللطيف الطيباوي أنه يمكن للمجلس أن يفرض عقوبة على من يخالف سياسته خاصة إذا اتخذ القرار بالإجماع، هي قطع علاقته مع المخالف، وهو ما نسميه اليوم "المقاطعة" أو "فرض الحصار". انظر: عبد اللطيف الطيباوي: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، ط3، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1982م، ص118

[3]-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص48.

[4]-جواد علي: المرجع نفسه، ج4، ص50، أحمد أمين سليم: جوانب من التاريخ، ص152.

Mohamed Assad Bey : Op-cit, p38.

وَلَا يَهْتَدُونَ][1].

فالعرف إذن هو الذي جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد المحافظة على مصالحها، يرى المؤرخ سبتيمو موسكاتي أن مكة في هذه المرحلة كانت تحكمها قلة[*] قوامها التجار وأرباب المال، وهي طبقة أرستقراطية استأثرت بالسلطة والحكم[2].

في حين رأى المؤرخ محمد بيومي مهران أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاما من نظم الحكم القديمة التي يعرفها الناس، فلم يكن لها حسب رأيه ملك له تاج وعرش، ولم تكن لا جمهورية أرستقراطية، ولا جمهورية ديمقراطية، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها، وكل ما في الأمر هو أنها قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص قبائل البادية رغم تحضرها، فهي مقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل، والتنافس بينها قد يشتد حينا ويلين حينا آخر[3]. وهذا ما حدث فعلا بين بني عبد مناف وبين بني عبد الدار حول اقتسام وظائف الكعبة[**]، حيث رأى كل فريق منهما أنه أحق بها دون غيره، أما التطور الذي وصلت إليه قريش هو تكوينها لمجلس الملأ [4].

والحق أنه من العسير فعلا أن تحدد طبعة نظام الحكم بمكة لأنه وإذا كنا قد تعرضنا إلى بعض مظاهر الزعامة بمكة في عهد قصي الذي جمع كل السلطات في يده، فإن استمرارها بعده

---

[1]-سورة البقرة، الآية: 170.

[*]–وهو أحد أنظمة الحكم القديمة يسمى حكم القلة، حيث تستأثر فيه طبقة معينة ينشؤون الحكم وغالبا ما تجمع هذه الطبقة بين شرف النسب وقوة الثروة، وقد انتشر هذا النوع من الحكم في دويلات المدن الإغريقية مثل أثينا، غير أن هذا النظام في مكة كان أكثر خصوصية منه في أثينا.

[2]-الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوب بكر، د.ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، دت، ص205. مسعود خوف، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج12، بيروت، لبنان، 2004، ص31.

[3]-المرجع السابق، ص409، عباس محمود العقاد: موسوعة العقاد الإسلامية، مج1، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1970، ص856، أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ، ص151.

[**]–انقسمت قريش تبعا لذلك إلى معسكرين متتابعين، فانظم إلى معسكر بني عبد مناف كل من بني أسد بن عبد العزة وزهرة بن كلاب بن تيم بن مرة، وانظم إلى معسكر بني عبد الدار بنو مخزوم وبنو سهم بن عمرو وبنو جمع بن عمرو وبنو عدي بن كعب وعقد كل من الفريقين حلف تأكيدا منهم على ترابطهم وتضامنهم. سمي الأول بحلف الفضول، والثاني بحلف الأحلاف، وكادت الحرب الأهلية أن تندلع، إلا أن الملأ من قريش أدركوا ما تتعرض له مكانة مكة واقتصادها من خطر وقعت الحرب فتداعوا إلى الصلح فأعطي بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأبقوا المناصب الأخرى في يد بني عبد الدار، وبذلك رضي الطرفان، كما أن هذا الأمر فتح عيون بطون قريش كلها على الرغبة في المشاركة في حكم مكة مما دفع الملأ من قريش إلى استحداث وظائف جديدة إضافة إلى لوظائف الستة السابقة ليصبح عددا 15 خمسة عشر وظيفة. انظر: أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة، ص109.

[4]-ابن الأثير عزالدين: الكامل، ص22، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع نفسه، ص108.

يعد أمرا معنويا، حيث اشتركت عدة شخصيات منهم في صنع قرارات مجلس الملأ، الذي يختار أعضاؤه واحدا منهم كرئيس لهم جميعا ينوب عنهم إذا لزم الأمر.

إن الطبقة التي ينتمي إليها أولئك الأعضاء هي التي وضحت نوعا ما طبيعة النظام الذي أخذ صبغة الأقلية الأرستقراطية التي فرصت هيمنتها وسلطتها السياسية والاقتصادية على المدينة.

وجملة القول أن مكة قد عرفت نظاما دينيا وقبليا في البداية باعتبار أن المجتمع فيها قد حافظ على شكله القبلي إذ أنه كان عبارة عن اتحاد عشائري ارتبط بعضه ببعض من أجل قيمة الكعبة من جهة، وحماية مصالحته الاقتصادية من جهة أخرى، إلا أنه قد تطور وفقا للتطورات الاجتماعية، الاقتصادية والدينية وما تقتضيه مصلحة المدينة باستحداث مختلف الوظائف الإدارية التي شكلت أغلب المؤسسات الحكومية فيها.

المطلب الثاني: التنظيم الإداري

لما كان نظام الحكم لدى المكيين يعتمد على الشورى في بعض جوانبه، فقد تقاسمت بطون قريش مختلف المناصب التي شكلت أغلب مؤسساته الحكومية على الرغم من طابعها الديني، ويمكن تصنيف هذه الوظائف على النحو الآتي:

1- السدانة: وهي حجابة الكعبة والإشراف على خدمتها[1]، فهي بذلك وظيفة دينية توجب على من تولاها أن يحتفظ بمفاتيح الكعبة وأن يشارك الحجاج في آدائه لمختلف الشعائر والطقوس بالسماح لهم بالدخول إليها[2]. وبما أن نظام الحكم في مكة كان ذا طابع ديني فقد كان سدنة البيت هم حكام مكة وأولوا الأمر بها[3].

وقد تعاقب على رئاسة هذه الوظيفة معظم شيوخ القبائل التي نزلت بمكة وتولت الحكم بها، وكان آخر من ولي عليها حوالي منتصف القرن الخامس (5م) قصي بن كلاب الذي أورثها ابنه عبد الدار، فبقيت فيهم إلى أن باعها عكرمة بن عامر إلى معاوية بن أبي سفيان فجعلها دار لإمارته بمكة[4].

---

(1)-الأزرقي: المصدر السابق، ص80، الفاسي: الزهور المقطفة، ص175.

(2)-نبيه عاقل: المرجع السابق، ص240، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ط5، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975، ص81.

Francesco Gabrieli:Mahoment, édit Albin Michel, Paris, 1960, p23.

(3)-أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ط3، دار المعارف، مصر، 1372هـ، ص24.

(4)-أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، تح: إيليزة ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، د-ت، ص165 البلاذري: البلدان، ص60، محمد نافع مبروك: المرجع السابق، ص145.

2-السقاية: هي توفير المياه الصالحة للشرب لزوار بيت الله في بلد يعاني من الجفاف وقلة الماء الشروب، في الوقت الذي كان يستقبل فيه أعدادا كبيرة من الحجاج[1]، لذلك كان على صاحب هذه الوظيفة أن ينقل الماء من الآبار[*] القريبة من مكة إلى حياض من أدم يضعها بفناء الكعبة [2].

يذكر الإخباريون أن قصيا كان يسقي اللبن المخيض والماء المنبوذ بالزبيب حتى هلك، فقام بالأمر بعده هاشم وبنوه حيث كان عبد المطلب بعد حفره لبئر زمزم يشتري الزبيب فينبذوه فيها ليكسّر غلظة مائها ويسقي منها الحجاج[3].

3-الرفادة: وهي خرج كانت قريش تخرجه من أموالها كل حسب قدرته فتدفعه إلى قصي ليصدع به طعاما، للحجاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زادا[4]. وذلك امتثالا منهم لأمر قصي الذي خطب فيهم قائلا: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج من الله وزوار بنيه، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم»[5]. ففعلوا واستمرت هذه الوظيفة في بني هاشم بن عبد مناف بن قصي.

4-اللواء: ليست لهذه الوظيفة صبغة دينية، فهي تتعلق بشؤون الحرب، حيث يذكر الإخباريون أن قريشا كانت لها راية تسمى العقاب يخرجونها إذا شاركوا في حرب فيحملها من هو أكبر سنا وأعظم شرفا في بني عبد الدار، ويدافع عنها لتبقى مرتفعة[6]، فقد قتل سبعة منهم وهم يدافعون عنها أثناء غزوة أحد[7].

5-القيادة: وهي قيادة الركب في الحرب والسلم، كانت لبني عبد شمس بن عبد مناف، حيث تعاقب عليها بعده أمية وأبو سفيان وعتبة بن ربيعة[8].

---

[1]-محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص407، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص99.
Francesco Gabrieli: Op-cit, p23.

[*]–من أهم هذه الآبار: العجول التي حفرها قصي وبئر خم وروم حفرهما عبد شمس بن عبد مناف وزمزم الذي أعاد حفره عبد المطلب بن هاشم، وسنفصل فيها بدراسة الأوضاع الاقتصادية.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص80، المخزومي: المرجع السابق، ص74.

[3]-الفاشي: شفاء الغرام، ج1، ص474، الأليوسي: المرجع السابق، ج1، ص249.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص81، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص48، جورجي زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، 1966، ص330..Francesco Gabrieli: Op-cit, p23

[5]-الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص133، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص240.

[6]-الأزرقي: المصدر السابق، ص81، الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص142.

[7]-نبيه عاقل: المرجع السابق، ص142..Francesco Gabrieli: Op-cit, p23

[8]-الأزرقي: المصدر السابق، ص85، الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص157.

6-الإشناق: هي وظيفة خاصة بدفع الديات والمغارم، إذ كانوا بعد انتهاء الحرب يقدرون الخسائر لمعرفة ما يتوجب عليهم دفعه من ديات وتعويضات للمتضررين في الحرب، وكانت لبني تيم بن مرة[1].

7-القبة والأعنة: وهي خيمة كانوا يضرونها إذا خرجوا للحرب، يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وينعقد بها مجلسهم الحربي. أما الأعنة فهي أعنة الخيل، يتولى صاحبها الإشراف على خيل قريش ويدير شؤونها في الحرب وكانت لبني مخزوم منهم خالد بن الوليد[2].

8-السفارة: كانت مهمة القائد بها الاتصال بالقبائل ومفاوضتهم والسعي في الصلح بينهم، وكانت بني عدي وقد قام بهما في أوقات الحرب في مطلع القرن السابع الميلادي (7م) عمر بن الخطاب، فكان إذا وقعت الحرب بينها وبين غيرها بعث سفيرا وإذا نفرهم حي لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به[3].

9-الأيسار: وهي الأزلام، يشرف صاحبها على سهام كانوا يستقسمون بها لمعرفة رأي الآلهة عندما يهمّون للقيام بأمر هام كالسفر أو التجارة أو القتال، وكانت لبني جمح وقد تولاها في النصف الأول من القرن السابع صفوان بن أمية أخ أبو سفيان بن أمية بن حرب[4].

10-المشورة: كان صاحبها يستشار في الأمور الهامة ذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعوا على أمر حتى يعرضونه عليه، فإن وافقهم أقروه وإن رفضه تخيروا آخرا وكانوا له أعوانا، وكانت في بني أسد وكان آخر من تولاها منهم قبل الإسلام يزيد بن زمعة بن الأسود[5].

11-الأموال المحجرة: وهي أموال يوقفونها لآلهتهم، وهي تشمل النقود والحلي وهي بمثابة بيت المال بعد ظهور الإسلام، وكانت في بني سهم وآخر من تولاها منهم الحارث بن قيس[6].

12-دار الندوة[*]: وهي الدار التي بناها قصي بن كلاب في منتصف القرن 5م بجانب

---

(1)-مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص26. .Francesco Gabrieli: Op-cit, p23

(2)-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص250، محمد نافع مبروك: المرجع السابق، ص146.
Francesco Gabrieli: Op-cit, p23.

(3)-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص251، مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص26.

(4)-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص250، محمد نافع مبروك: المرجع السابق، ص147.

(5)-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص249.

(6)-محمد نافع مبروك: المرجع السابق، ص146، مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص25.

(*)–وهي دار مربحة مسقفة طولها 32 ذراعا وعرضها كذلك، وجمع ما فيها من الأعمدة (77) سبعا وسبعين عمودا، لها باب يدخل منه إلى المسجد، يعرف بباب الندوة. انظر: مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص26.

الكعبة، وكانت له رئاستها، ففيها كان يقضي أمور قريش كلها حتى وفاته، فاتخذها الملأ دار المشورة، يتناقشون فيها في الأمور الهامة التي تخص المجتمع المكي، فلا يعقد زواج أو يختن طفل إلا فيها، ولا يعقد لواء حرب ولا تغادر قافلة تجارة إلا منها وكان لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من العمر باستثناء أولاد قصي فقد كان يسمح لهم بدخولها[1]، وكذلك بعض من اتصف بالحكمة ورجاحة العقل رغم حداثة سنه[*].

13- الحكومة: وهي تشبه التحكيم والقضاء في الإسلام، إذ كانت مهمة صاحبها الفصل في الخصومات وكانت في بني سهم ولم يكن من يحتكمون عنده يحكم بقانون مكتوب، بل كان يعتمد على جري به العرف وحكمت به العادة من جهة وعلى حكمته ورأيه الخاص من جهة أخرى، لأنه لم يكن يتولى هذه الوظيفة إلا أصحاب الرأي السديد والملم والدهاء [2].

14- العمارة: تتمثل مهمة القائم بها في صنع الناس من التحدث جهرا بالسوء في الكعبة، أي أنه يحافظ على قدسيته المكان وحرمته[3].

بعد دراستنا لكل من طبيعة نظام الحكم والتنظيم الإداري، توصلنا إلى النتائج الآتية:

1- أن قريشا قد أظهرت قدرة كبيرة على التنظيم، فاستطاعت أن تقيم نوعا من التنظيم الحكومي والإداري الذي كان في جوهره تنظيما قبليا وإن بدى في مظهره أكثر تطورا، قابلا للتطور تدريجيا حسب ظروف مكة الاجتماعية، الاقتصادية والدينية الناتجة عن احتكاكها بالأمم المجاورة لها التي تربطها بها علامات وصلات حضارية من جهة، والظروف البيئية وطبيعة الفرد القرشي في حدّ ذاته من جهة أخرى[4].

---

[1]-بن سعد: المصدر السابق، ص70، ابن هشام: المصدر السابق، ص79، الأزرقي: المصدر السابق، ص79، البلاذري: فتوح البلدان، ص70، الماوردي: المصدر السابق، ص207.

Lamens : Les sanctuaires, p65, Mohamed Assad Bey : Op-cit, p38.

[*]-ولما كاتب سن الأربعين في نظر المكيين هي سن النضج والكمال لذلك لم يسمحوا لمن هم دونها من الشاركة في إبداء الرأي والاجتماع لمناقشة أمور العامة، إلا إذا وجدوا في رجل أصغر سنا جودة في الرأي وحده في الذكاء سمحوا له بدخول الدار والمشاركة في النقاش مثل حكيم بن حزام الذي دخلها وهو بن 15 (خمسة عشرة سنة)، وأبو جهل وهو بن ثلاثين سنة. انظر: جواد علي: المرجع السابق، ص47.

[2]-أبو جعفر محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص132، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص47.

[3]-الطاهر ذراع: المرجع السابق، ج1، ص47. .Francesco Gabrieli: Op-cit, p23

[4]-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، ط1، دار الفكر الفكر العربي للنشر، 1968، ص14.

2-أما فيما يتعلق بالتنظيم الإداري فيمكن تقسيم الوظائف السابقة الذكر إلى نوعين رئيسيين هما:

أ-يتمثل النوع الأول في الوظائف المتعلقة بالكعبة وخدمة زوارها بتوفير الراحة لها والسهر على حمايتهم.

ب-أما النوع الثاني فيتعلق بإدارة الشؤون العامة للمجتمع المكي وتنظيم الحكم فيه.

3-كما لاحظنا كذلك نوعا من التوازن في توزيع الوظائف على كافة بطون قريش، حيث كان كل بطن منهم متصلا بوظيفة معينة يسمح له بالمساهمة والمشاركة في حكم مكة وإدارة شؤونها، وبالتالي الاعتماد على التسيير الجماعي الذي يضمن وحدة قبيلة قريش، ويبعدها عن جو التنافس والتناحر القبلي الذي عاني منه معظم القبائل الأخرى المنتشرة حولها.

إن نجاح حكومة الملأ في حل خلافاتها بالطرق السلمية قد مكنها من تحقيق أهدافها التي أنشأت من أجلها وهي المحافظة على تماسك القبيلة وضمان الأمن الداخلي، الذي شجع الحجاج على القدوم إليها لممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية.

المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية

كان العلماء في السابق يعتقدون أن النظام الاجتماعي في بلاد العرب يقوم أساسا على القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية، غير أن الدراسات الحديثة اعتبرت أن الأسرة هي الوحدة الأساس في النظام الاجتماعي، لأن القبيلة ما هي إلا مجموعة من الأسر والعشائر، تربطها أواصر النسب، لذلك فأبناؤها ينظرون إلى بعضهم البعض كأبناء دم واحد، بالإضافة إلى المصالح المشتركة التي تربطهم[1]. وسنحاول في البداية أن ندرس الأسرة المكية من ناحية تكونها ومكانة كل فرد فيها بداية بالزوجين وكيفية اختيار كل منهما للآخر، ومدى اهتمامهما بإنجاب الأطفال ومكانتهم في الأسرة ذكورا كانوا أم إناثا.

المطلب الأول: الأسرة المكية

أولا: اختيار الزوجة

لقد كان المكي كغيره من العرب كثير الاهتمام باختيار زوجته من ذوات الحسب والنسب

---

[1]-محمد بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع1، المملكة العربية السعودية، 1977م، ص132.

Lammens : Op-cit, p40.

إيمانا منه بأن الزوجة سكنه ومتاعه وشريكته في إنتاج أولاده، يرثون منها ما يرثون منه، لذلك بذل جهده في اختيارها، وحذى حذو الأكثم بن صيفي عندما أوصى قومه بقوله: «لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مدرجة الشرف»[1].

ولما كان مهتما بكثرة الأولاد لا سيما الذكور منهم، فقد فضل الزواج من البكر[*]، لأنها أقدر على الإنجاب في نظره قائلا: "أن المناكح خيرها الأبكار"، فأرسلت مثلا[2]. ولأن حياة القبيلة كانت تعتمد على العصبية والنصرة في الحروب، فإن كثرة العدد فيها عزة ومناعة، وفي قلته ضعف واستهانة، ولنا في أخبار عبد المطلب يوم حفر زمزم ولم يكن حينها إلا ولد واحد، فاستضعفته قريش وأرادت أن تشاركه فيه، وأنه "بالساعد تبطش الكف"[3]، فإن عبد المطلب توجه إلى الله ونذر أن يقوم بذبح أحد أولاده إن بلغ عددهم عشرة أولاد، فكان له ذلك، فحمى ظهره، وأصبحت لديه عزة ومنع لكونهم حوله. لذلك كانت القبيلة لا تهنأ إلا بثلاث، غلام يولد، وفرس تنتج، أو شاعر ينبغ[4]، ومع ذلك فإن المكي لم يكن ليبالي بالزواج من الثيب ولا في زواج الابن من امرأة أبيه خير مثال، خاصة إذا اشتهرت بعراقة النسب أو بجمال أو مال، فهي تجذب الرجال بامتلاكها تلك إحدى الخصال. وذكر في المحبر عدد من النساء اللائي تزوجن أكثر من ثلاث رجال، منهن أم خارجة، كان الخاطب يقوم على بابها يقول: خطب فتقول نكح[5]، ونكحت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ستة منهم، أما هند فتزوجت بثلاث رجال[6].

وقد فضل المكي أن تكون زوجته مكية مثله لاعتقاده أن بنات قريش أشرف النساء وأصبر على بلاء الزمان، وقد أكد ذلك قوله ρ: «خير النساء ركبن الإبل، صالح نساء قريش، أحناه على

---

(1)-الألبوسي: المرجع السابق، ج2، ص21.

(*)-وقد روي عن الرسول ρ أنه قال: «انكحوا الأبكار، فإنهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما»، وفعلا فقد سأل كسرى الطبيب الحارث بن كلدة عن المرأة التي يفضلها العربي، فأجابه أن البكر أعذب ريقا وأطيب فوها، وأن ماءها يزيد الرجل قوة إلى قوته. انظر: الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص9، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1981، ص16.

(2)-أبو الفضل أحمد الميداني: المصدر السابق، ج1، ص84.

(3)-أبو عبيد القاسم أبو سلام: كتاب الأمثال، تح: عبد الحميد قطامش، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1980، ص170.

(4)-الأزرقي: المصدر السابق، ص38.

(5)-الزبيدي: المصدر السابق، ج1، ص468.

(6)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص23.

ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[1]. وهناك من كان يفضل أن ينكح من خارج قبيلته، اعتقادا منه بأن ولد الرجل من قرابته إنما يجيء ضاويا نحيفا، ومن ثم جاء في أمثالهم النزائع لا القرائب، واغتربوا ولا تضووا، أي انكحوا في الأباعد حتى لا يولد لكم ضاو، بالإضافة إلى دوافع أخرى لها علاقة بالمصالح العامة، لأن المصاهرة بين قبيلتين قد توطد أواصر المودة والتحالف بينهما، مثل زواج هاشم بن عبد مناف من سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد... ابن عدي بن نجار في إحدى رحلاته إلى الشام مرورا بيثرب[2].

رغم أن المرأة فيهم كانت تفضل فتى من عشيرتها، إيثارا منها لقرابتها من آلهة، وربما لأنها تريده أن يكون مثل أبيها، فكل فتاة بأبيها معجبة[3]. وقد كنّ يحتمين بعشيرتهن حتى وهن متزوجات، وأن أي ضرر يقع عليهن كأنه يقع على أبناء العشيرة، فينهضون لنجدتهن، والدليل على ذلك قول ابنة أوس بن حارثة بأبيها عندما عزم على تزويجها من حارث بن عوف: «لا تفعل لأنني لست بابنة عم فيرعى رحمي، وليس بجارك فيستحي منك»، ثم قالت لأختها: «شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن، تزوجي في قومك»[4]. وقد يكون سبب كرهها للزواج من الغريب ما يقوله لها والدها يوم زفافها: «لا أيسرت ولا أذكرت فإنك تدنين البعداء وتلدين الأعداء أحسني خلقك وتحببي إلى أحمائك فإن لهم عليك عينا ناظرة وأذنا سامعة»[5]. فكأنه بهذا يزرع فيها الشك والريبة ويتنبأ لها بسوء العاقبة.

ولما كان تفضيل المرأة المكية لأهل البلد، فقد أعطيت الخيار في قبول من يكون زوجا لها ومن الأمثلة على ذلك: هند بنت أبي عتبة، بعد طلاقها من الفاكهة بن المغيرة، جاء لخطبتها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فخيرها أبوها بينهما، فاختارت أبا سفيان فزوجها منه[6].

كما نجد أن السيدة خديجة بنت خويلد وهي من أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا، قد اختارت سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله من كل من تقدموا لها[7]، ومع

---

(1)-البخاري: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير، ج7، ص7.

(2)-ابن سعد: المصدر السابق، ص79، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص244، السهيلي: المصدر السابق، ص95.

(3)-أبو عبيد القاسم: المصدر السابق، ص143.

(4)-بيومي مهران: حضارة العرب، ص25، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص302.

(5)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص308، الألوسي: المرجع السابق، ص5.

(6)-عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج1،ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان،د-ت، ص59 ص59

(7)-ابن هشام: المصدر السابق، ص37، ابن سعد: المصدر السابق، ص82، الطبري: تاريخ الرسل، ج2، ص280

ذلك فقد تجبر الفتاة في أحايين كثيرة على الزواج ممن رغبت عنه بأمر من وليها الذي هو صاحب حق لا ينازعه فيه أحد، وليس لها مخالفته، هذا فضلا عن تدخل ابن العم بشأنها إذا أرادها زوجة فهو مقدم في عرفهم على غيره[1].

ثانيا: أنواع الزواج

كان الزواج المألوف عند المكيين مثل الزواج اليوم القائم على الخطبة[*]، والمهر، وعلى الإيجاب والقبول، وهو ما يسمى بزواج البعولة، فكان المكيون يخطبون المرأة إلى أبيها أو أخيها أو عمها، وكان يخطب الكفء إلى الكفء، فإن كان أحدهما أشف من الآخر في الحسب أرغب له في المهر[2]، فإذا كان يوم العقد اجتمع القوم ونحرت لهم الذبائح، وخطب خطباء من آل الزوجين كما حدث يوم عقد النبي ρ على السيدة خديجة، فخطب عمه أبو طالب قائلا: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعلنا سادة العرب ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا وعقلا وفضلا، وإن كان في المال قلّ، فإن المال ظل زائل، وقد خطب إليكم كريمتكم خديجة، ولها فيه مثل ذلك، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله عشرون بكرة[**]، وإني يا معشر قريش أشهدكم على ذلك»، ثم رد عليه عمها عمرو بن أسد، أو ابن عمها ورقة بن نوفل معددا مناقب قريش ومفاخر بيت عبد المطلب مشهدا الحاضرين على قبول هذا الزواج[3]. وهكذا تم الزواج واحتفل به، فضربت الدفوف وعلت الزغاريد.

يبدو أن هذا العقد مستوف لشروطه من مهر وإيجاب وقبول وشهود، فلا فرق بينه وبين العقود التي تبرم في وقتنا، وإن كان هذا النوع هو الشائع بين المكيين، إلا أنه توجد أنواع أخرى أهمها:

---

(1)-محمد بيومي مهران: الحضارة العربية، ص33.

(*)–الخطبة مصدر بمنزلة الخطب بكسر الخاء، والعرب تقول: فلان خطب فلانة، إذا كان يخطبها، ويقول الخاطب خطب بالضم، فيقول المخطوب إليهم: نكح بالكسر. وهي كلمة كانت العرب تزوج بها، وقد نهى الرسول ρ أن يخطب الرجل على خطبة أخيه. انظر: الزبيدي: ج1، ص468.

(2)-البخاري: مصدر سابق، ص20، محمد بن حبيب: مصدر سابق، ص308.

(**)–وقيل: خمسمائة درهم أو اثنا عشرة أوقية من الذهب، والرأي عند السهيلي، أنه لا تناقض بين روايات البكرات والدراهم، لأنه من الممكن أن يكون أبا طالبي قد أصدقها من ماله نقدا، وزادها النبي البكرات من عنده. انظر: السهيلي: مصدر سابق، ص124.

(3)-أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة، ج1، ط3، مطبعة مصطفى البابلي، مصر 1381هـ، ص76.

1-نكاح الضيزن (المقت): كان الرجل إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه وطرح ثوبه عليها، فورث نكاحها، وإن لم تكن له حاجة فيها تزوجها بعض اخوته بمهر جديد [1]، فكان هذا النوع من النكاح يسمى "زواج المقت"، ويقال أيضا للذي يخلف على امرأة أبيه الظيزن، قال أوس بن حجر: يعير قوما من بني قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم:

انكحوا فكيهة وامشوا حول قبتها فكلكم لأبيه ظيزن سلف[2].

أما عن انتشار هذا النوع في مكة، فقد ذكر الإخباريون أن واقدة من بني مازن بن صعصعة كانت عند عبد مناف، فولدت له نوفلا، وأبا عمرو، فهلك عنها، وخلف عليها هاشم بن عبد مناف، فولدت له خالدة وضعيفة[3]، وكانت آمنة بنت أبان بن كليب عند أمية بن عبد شمس، فولدت له العاص وأبا العاص والعويص وصفية وأروى، فلما مات أمية تزوجها ابنه أبو عمرو، فولدت له أبا معيط، تزوج عمرو بن نفيل زوجة أبيه نفيل بن عبد العزة، وهي جيداء بنت خالد بن جابر بن حبيب بن فهم[4].

2-نكاح المتعة: وهو الزواج الذي تحدد له منذ انعقاده مدة معينة ينتهي بانتهائها، وليس ثمة حد أدنى أو أقصى، لهذه المدة، لكنها غالبا ما تكون قصيرة، وعلى المرأة أن تعتد قبل أن تتزوج ثانية، وينسب أولاد المتعة إلى المرأة بسبب اتصالهم المباشر بأمهم، وارتحال الأب في غالب الأحيان لانقطاع الصلات بينهم وبينه، وإن كان هذا لا يمنع من انتسابهم إليه، ويرى بعض المؤرخين أن الدافع لهذا النوع من الزواج هو كثرة التنقل والترحال من مكان إلى آخر للتجارة مثلا[5]. يبدو أن هذا النوع من الزواج يختلف عن الزواج العادي في أنه يخلو من الخطبة والصداق في أغلب الأحيان.

3-نكاح الشغار: وهو أن يزوج الرجل ابنته أن أخته لرجل على أن يزوجه هو أيضا ابنته أو أخته، دون أن يدفع أي منهما المهر للآخر، وقد نهى عنه الرسول ρ حيث قال: «لا شغار في

---

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص326، عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1965، ص60، عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص66.

[2]-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص53.

[3]-ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص12.

[4]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص99، أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج1، تح: محمد حسين الأعرجي، المؤسسة الوطنية، الرغاية، الجزائر، 1992، ص11، الألوسي: المرجع السابق، ص53.

[5]-محمد سلام الزناتي: نظم العرب قبل الإسلام، القاهرة، 1999م، ص15، محمد بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة، ص152.

الإسلام»[1]. غير أن هذا النوع من الزواج لم يكن شائعا في المجتمع المكي نظرا للمضايقات التي يسببها.

إضافة إلى هذه الأنكحة الفاسدة هناك بعض الاجتماعات كانت تتم بين النساء والرجال ليست عن طريق الزواج، كأن يقول الرجل لزوجته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها هو بعد ذلك حتى يتبين حملها من ذلك الرجل، ثم يعود فيجتمع بها، وقيل أنه يفعل ذلك رغبة منه في نجابة الولد.

وآخر يجتمع فيه الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتلحق الولد بمن أرادت دون أن يعترض أو يمتنع أحدهم[2].

أما البغايا[*]، فكن ينصبن على أبوابهن الرايات لتكون علما للدور اللاتي يعملن فيها، وكانت الواحدة منهن يدخل عليها الرجال، فلا تمتنع ممن جاءها، فإذا حملت ووضعت جمعوا لها القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فليتاط به، ويدعى ابنه. وكانت مثل هذه الدور منتشرة بمكة، حيث يذكر الإخباريون أن عبد الله بن جدعان كان نخاصا يبيع الجواري، وكان يستغل جواريه في الكسب عن طريق حملهن على البغاء[3]. وقد ذكر من هؤلاء البغايا عناق صديقة المرثد، وسريقة جارية زمعة بن الأسود، وأم عليط جارية صفوان بن أمية، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي وغيرهن. ويرى الألوسي أن هؤلاء البغايا لسن من صميم قريش، بل هن إماء سواقط[4]. لذلك لا ينبغي أن نخلط بين الارتباط عن طريق الزواج حتى وإن كان يفتقد إلى أحد شروطه وبين هذه النوعية من العلاقات المشبوهة.

ثالثا: المحرمات من النساء

لقد حرم المكيون على أنفسهم أنواعا من الأقارب طبقا لقاعدة عامة هي مراعاة علاقة

---

[1]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب النكاح، ج7، ص15، الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص5، محمد محمود الزناتي: المرجع السابق، ص45.

[2]-البخاري: المصدر السابق، ص20، الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص4.

[*]–البغايا: جمع مفرده بغي، يقال: بغت المرأة بغاء إذا فجرت، قال تعالى: [ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إذا أردن تحصنا][سورة النور، الآية: 33]. انظر: نشوان بن سعيد الحميري: المصدر السابق، ص385.

[3]-البخاري: المصدر السابق، ص20، محمود زناتي: المرجع السابق، ص358.

[4]-المصدر السابق، ج2، ص5.

الأصل بالفرع. لذلك لم يتزوجوا من بناتهم ولا من أخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم، حيث يرى ابن عباس أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، ومع هذا فقد كانا فعلين قبيحين رغم أن انتشارهم كان على نطاق ضيق[1]، ومن الأمثلة على ذلك أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، جمع بين صفية وهند ابنتي المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم[2]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا][3].

رابعا: تعدد الزوجات

يتضح مما سبق أن المكي كان لا يكتفي بزوجة واحدة أو اثنتين، وإنما كان يتزوج بأكبر عدد ممكن منهن، إما بقصد إنجاب عدد كبير من الأولاد كما في حالة عبد المطلب الذي تزوج بستة نسوة أنجبن له عشرة أولاد، أو بقصد إعالة هؤلاء النسوة، أو لغرض سياسي، كأن يكون رئيسا في قومه، فلابد من أن يصهر إلى عدد كبيرا من القبائل حتى يرتبط معها برابطة المصاهرة، وقد روى الطبري في تفسيره: «أن الرجل من قريش كان يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فكان أحدهم يتزوج الأربع والخمسة والستة، فيقول آخر: ما يمنعني من أن أتزوج كما تزوج فلان»[4].

ولعل الطبري يقصد بأن الرجل من قريش كان يعاند جارا له فيفعل مثله، ويذكر الإخباريون أن كلا من عبد المطلب بن هاشم، وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية كان لكل واحد منهم ستة نسوة[5].

خامسا: الطلاق وأنواعه

عرف المكيون القدامى الطلاق كما عرف الزواج، وهو من المصطلحات القديمة عندهم، ويعني تنازل الرجل عن كل حقوقه التي كانت له على زوجته بمفارقته لها، ويذكر الإخباريون أنهم كانوا يطلقون بثلاث: الطلاق العادي والظهار والإيلاء والخلع، فأقر الله تعالى الطلاق طلاقا والخلع

---

(1)-محمد بيومي مهران: الحضارة العربية، ص47.

(2)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص327.

(3)-النساء: 23.

(4)-الطبري: تفسير الطبري، ج7، ص534.

(5)-بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة، ص169.

خلعا وحكم في الإيلاء والظهار[1].

فبالنسبة للطلاق العادي، فقد كانوا يطلقون ثلاثا على التفرقة وأول من سن لهم ذلك أبوهم إسماعيل ϖ، ثم تبعوه فكان أحدهم إذا أراد أن يطلق زوجته، قال لها: أنت طالق واحدة وما شابه ذلك من العبارات الدالة على الفراق، يبقى أحق الناس بها فإن طلقها اثنين فكذلك، أما إذا طلقها ثلاثا تصبح مطلقة منه طلاقا بائنا[*]، ولا سبيل له إليها[2].

أما الظهار فهو تشبه الرجل زوجته أو ما يعتبر به عنها بمعنى حرمت عليه مؤبدا كقوله: أنت علي كظهر أمي أو كبعضها أو كفرجها وكذلك بالنسبة للأخت والعمة وغيرهن ممن اللاتي لا يجوز له قربهن.

في حين سمي النوع الثالث الإيلاء وهو القسم على ترك قرب الرجل زوجته مدة شهور أو سنة أو سنتين، وفيه ضرر بالمرأة.

أما آخر أنواع الطلاق فهو الخلع، وهو أن تفتدي المرأة نفسها من زوجها بما لها وتخلع منه إن أساء معاشرتها[3].

والملاحظ من الحالات السابقة أن الطلاق كان بيد الرجل، ومع ذلك فإن بعض النساء قد استطعن أن يجعلن أمرهن بأيديهن، وذلك لشرفهن وقدرهن، ومن بينهن سلمى بنت عمرو بن زيد من بني النجار أم عبد المطلب بن هاشم، كانت لا تتزوج إلا وأمرها بيدها، فإن كرهت من زوجها شيئا تركته وكذلك أم خارجة عمرة بنت سعد من بصيلة وقد أكثرت من الأولاد وبها يضرب المثل –كما سبق وأشرنا-، وعاتكة بنت مرة بن هلال وهي أم هاشم وعبد شمس والمطلب بني عبد مناف

---

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص310، الألوسي: المرجع السابق، ج2 ص50.

[*]–وفي ذلك قال الأعشى حين أجبره قوم زوجته على تطليقها ثلاثا:

أيـــا جارتي بنـــي فإنك طالقـــة كذلك أمـــور النـــاس غاد وطارقة
وبينـــي فقد فارقت غير ذميمـــة ومومقة منـــا كمـــا أنت وامقـــة
وبيني فإن البين خير من لعص وأن لا ترى لي فوق رأسك باقرة

قوله بيني: يقال بأن الشيء إذا انفصل فهو بائن، وأبنته أي فصلته، وبانت المرأة بالطلاق فهي بائن. انظر: ياقوت: المصدر السابق، ص213، محمد إبراهيم فيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط4، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1994، ص409.

[2]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص23، عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص65، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص65.

[3]-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص50، محمد بيومي مهران: الحضارة العربية، ص66.

بن قصي[1].

بعد دراستي لأنواع الطلاق وكيفية حدوثه وجدت أنه من الأهمية بمكان الإشارة إلى عدة أمور تتعلق بالطلاق منها العدة، وهي الفترة التي يسمح للمرأة بعد انقضائها أن تتزوج مرة أخرى وذلك في حال طلاقها أو وفاة زوجها، استبراء للرحم ومحافظة على النسب، وقد كان معلوما بها في المجتمع المكي. وعلى الرغم من أن الأمر كان واضحا في حالة الوفاة إلا أنه كان أكثر غموضا بالنسبة إلى الطلاق، ومن ثمة فقد ذهب البعض إلى القول بأن المطلقة كانت لا تعتد وضربوا مثلا بأم خارجة التي كانت امرأة مزواجة وسرعتها، فقد كان الرجل يقف أمام باب خبائها يقول خطب، فتقول نكح، وقد يتكرر هذا معها أكثر من 7 مرات في السنة، وقد قال آخرون أنها كانت تعتد لكنهم لم يحددوا فترة عدتها[2].

أما عدة الوفاة فقد كانت حولا كاملا تقضيه المرأة الأرملة في حفس[*]، حيث كانت تلبس شر ثيابها وتمنع من أن تلمس طيبا أو كحلا، ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا، فإذا اكتمل الحول خرجت بمظهرها القبيح ثم يؤتى لها بداية أو طير فتفتض به أي تمسح به حلبها، وقيل أنها قلما افتضت بشيء الآمات، ثم ترجع بعدها إلى التطيب والتجمل ما شاءت[3].

والملاحظ على هذه العادة القبيحة أنها كانت أكثر إجحافا للمرأة، فقد جعلتها تعيش كالحيوان لمدة حول كامل، حتى وإن اعتبر ذلك وفاء منها لزوجها الميت، فهي مضرة بها خاصة وبالمجتمع عامة.

سادسا: الإرث

يذكر محمد بن حبيب أنهم كانوا لا يورّثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئا من الميراث، فهم بذلك لا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهر الخيل[4]، غير أن هذا القول إن صدق على حال كثير من قبائل العرب، فهو لا يصدق بالضرورة على بعضها، لأن محمد بن حبيب نفسه يذكر «أن ذو المجاسد اليشكري وهو عامر بن شجم بن حبيب قد ورث البنات وأعطى

---

[1]-ابن سعد: المصدر السابق، ص79، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص23، عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص65، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص65.

[2]-محمد بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة، ص182.

[*]–وهو البيت الحقير وقيل فيه غير ذلك.

[3]-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص51، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص57.

[4]-المصدر السابق، ص324، ونبيه عاقل: المرجع السابق، ص303.

البنت سهما والابن سهمين»[1]، ويذكر كل من الطبري وابن الأثير لما أتى المطلب بابن أخيه عبد المطلب إلى مكة أوقفه على ملك أبيه، فسلمه له، وعبد المطلب يومئذ غلام لا يضرب بالرمح ولا يقاتل على ظهر الخيل[2]، لهذا لا نستغرب أن تكون المرأة أيضا قد أعطيت نصيبا من الميراث على الرغم مما يراه الإخباريون من أن العرب كانوا ينظرون إلى المرأة وكأنها متاع تورث كأي جزء من تركة زوجها المتوفي، وإن كان ذلك صحيحا في بعض الأحيان.

إننا إذا سلمنا بأن المرأة لا ترث إطلاقا من تركة أبيها أو أخيرها أو زوجها، لابد أن نسأل من أين لها ما جعلها ثرية تمارس التجارة، ومرغوب فيها من قبل الرجال لكثرة مالها. لا شك أنها لم تحصل على ذلك بحد السيف أو بالغزو، ومن ثمة ربما كان عن طريق الهبة أو الوصية، وربما عن طريق الميراث، وفي كل الحالات فالأمر لا يتفق مع ما ذكره الإخباريون، لأن التي تنال مالا عن طريق الهبة أو الوصية أجدر أن تناله عن طريق الإرث[3].

لذلك على الأرجح أنهن كن يرثن ولو نصيبا قليلا أو في قبيلة دون أخرى حسب مكانة المرأة في تلك القبيلة.

سابعا: عادة وأد البنات

إذا كنا قد لاحظنا شغف المكيين بإنجاب الأولاد سابقا، فإنهم كغيرهم من العرب فضلوا الذكور على الإناث، ومن ثمة كانوا إذا ولدت المرأة ولدا هنأها أفراد القبيلة وقالوا لها: "بالرفاه والبنين"[4] لا البنات، وكان الأب في أغلب الأحيان يكنى باسم ابنه.

أما في حال إنجاب المرأة للبنت واحتفظت بها هنأوها بقولهم "أمنكم الله عارها وكفاكم مؤونتها وصاهرتم القبر"[5]، ولنا أن نتصور الحالة النفسية للأم والأب عند سماعهما ذلك، حيث يقول Y: [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ][6].

---

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص324.

[2]-الطبري: تاريخ الرسل: ص178، الأثير عزالدين: الكامل، ص11.

[3]-عبد العزيز صالح: المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ط1، الكويت، 1985، ص56، محمد بيومي مهران: الحضارة العربية، ص75.

[4]-الميداني: المصدر السابق، ج1، ص137.

[5]-بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة، ص232.

[6]-سورة النحل، الآيتين: 58-59.

هذا، وقد يفضل الهرب من البيت مثلما حكى الأصمعي، أن امرأة ولدت بنتا سمتها الذلفاء فتركها زوجها وابنتها فقالت:

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنين تـــالله ما ذلك في أيدينـــا
وإن ما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

فلما سمع قولها ولج الخباء وقبل رأسها، ثم قال: ظلمتكما ورب الكعبة[1]، غير أن بعض المكيين قد بالغوا في بغض بناتهم إلى حد التخلص منهن بوأدهنّ، ولقد تراوحت الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك بين ما هو اجتماعي واقتصادي وديني. فبالنسبة للسبب الاجتماعي، تمثل في خوفهم من العار الذي قد يلحق بهم إن كبرت وتعرضت للسبي، لذلك فضلوا مصاهرة القبر، لقول الشاعر:

سميتها إذا ولدت تموت والقبر صهر ضامن زميت[2].

أما دافعهم الاقتصادي، يتجلى في عدم قدرتهم على إعالتها ومؤونتها وفقرهم، أو للخوف من الوقوع فيه، وفي ذلك يقول Y: [وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا][3]. في حين يتمثل دافعهم الديني في اعتقادهم في أن البنات رجس من خلق الشيطان، فتخلصوا منه، وهناك من يرى بأنهنّ بنات الله ويجب أن يلحقن به[4].

والأرجح في اعتقادي هما الدافعين الأولين الاقتصادي والاجتماعي، لأنهما الأقرب في نظري إلى واقع الأسرة المكية وظروفها، فما ذكره الإخباريون عن زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يفدي الموءودة، فيقول لصاحبها دعها أنا أكفيك مؤونتها إلا دليلا على ذلك.

وهكذا فإن مجرد تصوره بأن الفقر قد يصيبه يجعله يفكر آليا في الأسباب التي تجنبه الوقوع فيه، دون مراعاة للجانب الإنساني، فيقوم بوأد ابنته لأنه يعي جيدا أنها إن كبرت ستبقى مجرد مستهلك غير منتج عكس الولد الذي سيعينه في الكثير من الأعمال ويدافع عنه إن لزم الأمر. ومع ذلك فقد وجدت مجموعة من النساء حظين بمكانة مرموقة في مجتمعهن لما بذلن من جهد في الارتقاء بأنفسهن من خلال المشاركة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وحتى السياسية، نذكر على

---

[1]-بيومي مهران: الحضارة العربية، ص82، عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص197.

[2]-بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة، ص235، محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام، النهضة المصرية، القاهرة، 1959م، ص37، نجيب محمد البيهبتي: البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى، مجلة كلية الآداب، مج14، ج1، ماي 1952، ص138.

[3]-سورة الإسراء، الآية: 31.

[4]-الألوسي: المرجع السابق، ص47، مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، ص18.

سبيل المثال ما قيل عن سبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف، وكانت زوجة لمسعود بن مالك الثقفي أنه لما كانت حرب الفجار بين قيس وكنانة وحليفتها قريش، قال مسعود لزوجته: من دخل خبائك من قريش فهو آمن، ولما انتهت الحرب بانتصار قومها على زوجها، قال حرب ابن أخيها: من دخل خباء عمتي فهو آمن، وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على مكانة هذه المرأة عند زوجها وقومها[1].

المطلب الثاني: القبيلة ومكانتها الاجتماعية

بعد دراستنا للأسرة المكية التي هي الوحدة الأساس في تكوين المجتمع المكي ذو الطابع القبلي، لذلك رأيت من الأهمية أن ندرس القبيلة ومكوناتها من ناحية النسب أي من الناحية الاجتماعية.

أولا: من ناحية النسب

يذكر علماء النسب[*] أن القبيلة تتكون من حيث النسب من مجموعة من العناصر تعتبر هي أركانها، ومنها:

1- **العمارة**: وهي ما انقسم فيه أفراد القبيلة كقصي وزهرة، ويجمع على عمارات وعمائر.

2- **البطن**: وهو ما انقسمت فيه أقسام العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، ويجمع على بطون وأبطن.

3- **الفخذ**: وهو ما انقسم فيه أقسام البطن كبني هاشم وبني أمية، ويجمع على أفخاذ.

4- **الفصيلة**: بالصاد المهملة، وهي ما انقسم فيه أقسام الفخذ كبني العباس[2].

ويرى بعض الباحثين أن هذا التقسيم مأخوذ من وصف الناقة التي هي معاش العرب بما فيهم المكيين، في حين يرى آخرون أنه مأخوذ من وصف المرأة الأم لأنها أصل القبيلة.

وتتكون القبيلة أيضا من صرحاء، وحلفاء، وموالي يستلحقون بالنسب، فأما الصريح فهو

---

[1]-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص33.

[*]–من بينهم ابن خلدون، الذي عرف علم النسب بقوله: هو العلم الذي يبحث في تناسل القبائل والبطون وتسلسل الأبناء من الآباء الجدود، وتفرع الأغصان من الأصول، بحيث يعرف الخلف عن أي سلف انحدر، والفرع عن أي أصل صدر، وأمة العرب هي أول من اهتم بحفظ أنسابها ومعرفة أصولها. انظر: ابن خلدون: المقدمة، ص102.

[2]-الهمذاني: الإكليل، ج1، ص22، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الأبيري، ط1، القاهرة، 1959، ص460.

المحض من كل شيء، وخالص النسب، ويقال جاء بنوا فلان صريحة، إذا لم يخالطهم غيرهم لانحدارهم من صلب جد القبيلة. ثم نسبوا حليف وجوار، أي نسب استلحاق، والغالب أن يتحول نسب الاستلحاق إلى نسب صريح حين تطول إقامته فينسى أصله، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جدهم فيهم[1].

ثانيا: من الناحية الاجتماعية (طبقات المجتمع)

أما من الناحية الاجتماعية، فكانت القبيلة تتكون من ثلاث طبقات هي:

1-طبقة الأحرار (الصرحاء): وهم أعلى طبقات القبيلة من ناحية التنظيم الاجتماعي، لهم كل الحقوق وعليهم أشرف الواجبات، وممن ينتمون إليها في مكة بنوا قصي بن كلاب وأحفاده وغيرهم، وهم سادة القوم وأهل الرياسة، فإليهم كانت الحجابة والسقاية والرفادة التي كانت لأبيهم من قبلهم، ثم صارت لهم باعتبارهم من صريح ولده، وتضم هذه الطبقة الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال[2].

2-طبقة الموالي: وتأتي هذه الطبقة بعد طبقة الأحرار من حيث المنزلة الاجتماعية، عليهم ما على الأحرار من واجبات، لكن ليس لهم نفس الحقوق. وقد تتكون هذه الطبقة من تكاثر عدد أفراد القبيلة، ووصولها إلى درجة من القوة تمكنها من إخضاع القبائل الضعيفة لها، كما كانت تسمح بانضمام أبناء القبائل الأخرى لها والخارجين عن قبائلهم، الأمر الذي عرف عندهم بمنع الذمار وحماية الجار[3].

وكان من طبقة الموالي أيضا هؤلاء الذي تكتب لهم الحرية بعد العبودية، كأن يشتري رجلا مملوكا، ثم يعتقده فيصبح حرا، لكنه يبقى مرتبطا بصاحبه برابطة الولاء.

وعلى أية حال فالموالي مهما كانوا عربا أو عجما كانوا أقل شأنا من الأحرار في مجتمعهم لذلك فقلّ ما زوج الأحرار بناتهم للموالي بسبب القاعدة القائلة: "إن قريشا بعضهم أكفاء لبعض بطن لبطن، والعرب أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة، والموالي أكفاء لبعض"[4].

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص383.

[2]-محمد بيومي مهران: الحضارة العربية، ص142.

[3]-عبد ربه الأندلسي: كتاب العقد الفريد، ج1، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1965، ص117، مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص29.

[4]-مصطفى الرافعي: المرجع نفسه، ص29، محمد بيومي مهران: الحضارة العربي، ص143.

3-طبقة الرقيق: وهي الطبقة الدنيا في التنظيم الاجتماعي، وكانت كل قبيلة تضم عددا من الرقيق، يختلف باختلاف مركز القبيلة الاجتماعي والاقتصادي، ولما كانت مكة ذات مكانة اقتصادية فقد تحولت إلى سوق للرقيق الأسود القادم من الحبشة والأبيض من بلاد الشام[1]، وذلك لحاجة أشراف مكة إلى أعداد كبيرة منهم لمزاولة مختلف المهن، التي أنفوا من ممارستها لمكانتهم الاجتماعية والاقتصادية، وانشغالهم بالترف وشرب الخمر وممارسة التجارة، لذلك أقبلوا على جلب الرقيق بمختلف أنواعهم للقيام بالخدمة الشخصية وحراسة القوافل، فضلا عن استخدامهم كجنود في حالة الحرب[2].

المطلب الثالث: القيم الأخلاقية عند المكيين

أولا: الكرم: لقد كان الكرم من أسمى عادات المكيين التي فطروا عليها حتى أنه صار شرعتهم الاجتماعية التي يتبارون في ساحتها، ومن أشهر أجوادهم: هاشم بن عبد مناف، وعبد الله بن جدعان وغيرهما[3]. ذكر الإخباريون أنه لما وقعت بمكة مجاعة شديدة، خرج هاشم إلى الشام واشترى طعاما لقومه، فسمي بذلك هاشما لهشمه الثريد لهم، ولم تزل موائدهم منصوبة لا ترفع في السراء والضراء، وفي ذلك قالت الشعراء[4]:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف
يا أيها الرجل المحول رحلـــه هلا نزلت بآل عبد منـــاف
الخالطين غنيهـــم بفقيرهـــم حتى يعود فقيرهم كالكافـــي

أما عبد الله بن جدعان فكانت له جفنة للأضياف يستظل بظلها، وكان له مناديان بأعلى مكة وبأسفلها، يقول أحدهما: أنا من أراد اللحم والشحم فليأت دار ابن جدعان، والآخر يقول: من أراد الفالوذج[*] فليأت دار ابن جدعان أيضا، وفيه قال أمية بن أبي الصلت[5]:

لـــــو داع بمكـــة مشمعـــل وآخـــر فوق دارته ينادي
إلى ردح من الشيزى[**]ملاء لبـــاب البر يلبك بالشهاد.

---

(1)-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص384.

(2)-جواد علي: المرجع السابق، ج5، ص ص 120-122.

(3)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص138، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص178.

(4)-ابن سعد: المصدر السابق، ص76، أحمد زيني المشهور بدخلان: المرجع السابق، ص11.

(*)-وهو طعام فارسي أتى به عبد الله بن جدعان من الحيرى، وهو يتكون من الدقيق الصافي والعسل.

(5)-ابن قتيبة: كتاب المعاني الكبير، ص380، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص178.

(**)-وهو خشب أسود تصنع منه الجفان، لذلك سميت به. انظر: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون:

كما كان في قريش أجواد عرفوا بأزواد الركب لكفايتهم لمن معهم مؤونة السفر، منهم الأسود بن عبد المطلب وأخوه زمعة ومسافر بن عمرو بن أمية بن المغيرة المخزومي[1].

ثانيا: الشجاعة: إن قوة الشكيمة كانت أيضا من الخلال التي ميزت أهل بيت الله وحرمه، ودليل ذلك ما ورد بشأن العنابس وهم حرب وأبو حرب، وسفيان وأبو سفيان، وعمرو وأبو عمرو بنو أمية في ثباتهم مع أخيهم حرب يوم عكاظ –يوم من أيام الفجار الأول- حيث قاتلوا قتالا شديدا، فشبهوا بالأسود الضارية، وهي العنابس وواحدها عنبسة[2].

ثالثا: حماية الجار: وقد ضرب لنا عبد المطلب في ذلك مثلا رائعا مع جاره اليهودي، الذي قتله فتيان حرب بن أمية، لكن عبد المطلب بقي يتحرى حتى عرف أن من قتلاه قد استجارا بنديمه حرب فأتاه عبد المطلب وتنافر معه إلى نفيل بن عبد العزى، فأنصفه وأخذ منه مائة ناقة أعطاها لأهل جاره، فحمى بذلك جاره وأهله[3].

بالإضافة إلى هذه الأخلاق الحميدة، هناك عادات ذميمة قد اعتادوا عليها منها:

رابعا: شرب الخمر: لقد تحكمت الخمرة في عقول الكثيرين من أهل مكة، من بينهم قيس بن عاصم السعدي الذي عشقها وبذل لأجلها أمواله، فسكر ذات يوم وغمز عكنة ابنته، فلما أخبر بذلك قال[4]:

رأيت الخمر مصلحة وفيها خصال تفسد الرجل الكريما
فإن الخمر تفضح شاربيها وتجنيهم بها الأمر العظيما
فلا والله لا أشربها حياتي ولا أدعو لها أبـــدا نديمـــا

وكان من عاداتهم أيضا الاستقسام بالأزلام عند الصنم هبل إذا أرادوا فعل أي شيء يتعلق بحياتهم كالسفر أو النكاح، كما كانوا يتشاءمون ويتطيرون من الغراب، قال الجاحظ[5]: «بأن

المفضليات، ج2، المعارف، مصر، 1352هـ، ص223.

[1]-الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص178، أحمد عبد الرزاق الحنفي: موسوعة الأعلام في تاريخ العرب والإسلام، ج7، ط1، دار البشائر، 1420هـ-2000م، ص359.

[2]-الأصبهاني: المصدر السابق، ج1، ص9.

[3]-ابن الأثير عز الدين: الكامل، ص15.

[4]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص237، ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج1، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961، ص28.

[5]-الحيوان، تح: يحيى الشامي، مج1، ط3، منشورات دار مكتبة الهلال، 1990م، ص510.

الغراب هو أكثر جميع ما يتطير به في باب الشؤم عند العرب»، أما باقي تقاليدهم فيما يخص لباسهم ومأكلهم، فقد تميزوا عن غيرهم خاصة خلال موسم الحج، حيث كانوا يرتدون أثوابا أحمصية، أما في أيامهم العادية فقد حافظوا على أناقتهم، فلبسوا سادتهم العمائم(*) المهراة، حيث كان أبو أحيحة إذا اعتم بمكة لم يعتم معه أحد، قال فيه أبو القيس بن الأسلت:

وكـــان أبو أحيحـــة إذ علمتـــم بمكـــة غـــير مهتظـــم دميم
إذا شـــد العصـــابة ذات يـــوم وقام إلى المجالس والخصوم
فقد حرمت على من كان يمشي بمكة غـــير مدخـــل سقيـــم

وكان من عادة فرسان العرب إذا حضروا سوق عكاظ التقنع، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم، فإنه لم يكن يتقنع[1]، وقد اهتموا اهتماما بالغا بنعالهم، وقد ورد فيه شعر كثير نذكر منه:

إذا حظرت نعال بني غراب بغوا ووجدتهم أسرى لآما

أما النساء فقد لبسن ضروبا مختلفة من الثياب مما حملته قوافلهم القادمة من الشام واليمن والعراق، وذلك حسب الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، فمنهم من ارتدت النطاق، وهو ثوب تشده المرأة إلى وسطها وترخي نصفه الأعلى، ومنهن من ارتدت الريطة وهي ملاءة ذات لفق واحد أي شقة واحدة، والمرط وهي ملاءة ذات شقين[2]. إضافة إلى أغطية الرأس كالخمار والنصيف والقناع والبرقع، ولعل ذلك ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بوجود الحجاب منذ القديم[3].

ويذكر ابن حبيب أنهم كانوا أحرس الناس على نظافة الجسم والثوب، فكانوا يصنعون عشرة أشياء، خمسة منها في الرأس هي المضمضة، الاستنشاق، والسواك، والفرق، وقص الشارب، وخمسة في الجسد، وهي الختان وحلق العانة ونتف الإبطين، وتقليم الأظافر والاستنجاء[4].

أما ما اعتادت نسائهم على طبخه من مختلف الأطعمة، فقد اشتهرن بصنع الثريد والفالوذج

(*)–يقال للعمامة المشوذ، والسب والمقطعة والعصابة والمكورة والاقتعاط، ويقول: جاء الرجل متختما، أي متعمما، وما أحسن تختمه أي تعممه. انظر: أبو القاسم عبد الرحمن: المصدر السابق، ص70.

(1)-الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص409.

(2)-عبد الله عفيفي: مرجع سابق، ص127.

(3)-زينب محمد صبري بيره حكلي: ظاهرة الحجاب في الأدب الجاهلي، مجلة الأحمدية، ع1، دار البحوث للدراسات، ماي، 1998م، ص369.

(4)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص329.

–وإن كان وافدا عليهم- والسخينة[*] والريكة[**][1].

وبعد دراستي للمجتمع المكي من جميع جوانبه، يمكنني أن أرد على بعض المستشرقين أمثال هوستن سميث، الذي وصفه بأنه مجتمع مفكك تعمه الفوضى الاجتماعية، يعيش في عصر الجهل والظلام[2].

غير أن المجتمع المكي وإن كان لا يخلو من بعض المظاهر السلبية، إلا أنه كان أكثر تنظيما مما وصفه المستشرق هوستن سميث. والدليل على ذلك ما ذكرناه بشأن الأسرة المكية وطريقة تكوينها، ثم العلاقة التي وجدت بين أفرادها وإن شابها الظلم في كثير من الأحيان، إلا أنها لم تخرج عما كانت عليه حياة الكثير من الأمم القديمة الأخرى، لذلك لا يمكننا أن نحكم عليه بالجهل والفوضى وغيرها من المظاهر السلبية، لأننا إذا أخذنا ظاهرة الوأد مثلا وهي أسوأ ظاهرة فيه لا نجدها تختلف كثيرا عن الضحايا البشرية التي كانت معظم المجتمعات القديمة تقدمها لآلهتها.

أما بالنسبة لقوله بأنه يعيش في عصر الجهل أو الجاهلية فهذا يدفعنا إلى التساؤل عن المعنى الحقيقي لهذه اللفظة التي أخذها من المصادر العربية، والتي أرخت بدورها لحياة العرب قبل ظهور الإسلام بنزعة إسلامية واصفة إياها بالجاهلية، لارتباطها في أذهانهم بجهل العرب في دينهم وعبادتهم لأصنام يصنعونها بأيديهم، إضافة إلى تخلقهم ببعض الأخلاق الذميمة، فماذا سيكون معنى الجاهلية إذا ارتبطت بثقافة المجتمع المكي، وهذا ما سنتطرق إليه بدراسة الأوضاع الثقافية والدينية.

المبحث الثالث: الأوضاع الاقتصادية

سنعالج في هذا المبحث مختلف النشاطات الاقتصادية من صيد ورعي وزراعة وصناعة وتجارة، وسنرى إن كان المكيون قد مارسوها جميعا، أم أنهم قد اقتصروا على بعضها فقط.

المطلب الأول: الصيد

لعل أول مهنة مارسها المكيون منذ نشأة مدينتهم هي مهنة الصيد[*]، حيث تذكر المصادر

---

[*]–وهي متخذة من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء، وهي أكثر ما عرفت به قريش، خاصة عند جهد الدهر وشدة الأزمات، إلى درجة أنهم عيروا بها، فسموا بالسخينة.

[**] –وهي التمر الذي يعجن بالسمن والأقط، فيؤكل وربما صب عليه الماء فشرب.

[1]-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص ص98-99.

[2]-هوستن سميث: أديان العالم، تر: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، 1426هـ-2005م، ص467.

[*]–تعتبر هذه المهنة من أولى المهن التي مارسها الإنسان القديم بصفة عامة، لأنه بدأ حياته صيادا متجولا، كما

أن إسماعيل υ لما شب أعطاه الله القوس العربية فرمى عنها وكان لا يرمي شيئا إلا أصابه، ويؤكد ذلك ما قالته زوجته عن معيشتهم لأبيه عندما قدم من الشام لزيارته أن طعامهم اللحم والماء فدعا لهما بالبركة، قال النبي ρ: «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه»[1].

وقد كان الجراهميون يخرجون ويأخذون معهم إسماعيل ليصطادوا ما يقتاتون به[2]. ولقد حافظوا على ممارستهم لهذه المهنة أجيالا طويلة اختلفت خلالها أساليبه ووسائله حسب قدرة الصياد ونوعية الصيد:

أولا: الصيد بالقوس: كان استعمال المكيون لهذه الآلة بمنتهى المهارة والدقة في التسديد، وقد ورثوا ذلك عن أبيهم إسماعيل، مر النبي ρ يوما على فتية يتعلمون الرماية، فقال لأحد الفريقين: «ارموا بنوا فلان فأبيكم كان راميا»[3]. وقد اشتهرت الأقواس في الحجاز، ونسبت إليه، فصارت تدعى الأقواس الحجازية، وهي مشهورة عندهم بإجادة الرمي سواء في الحرب أو في الصيد[4].

ثانيا: الصيد بالرمح: كان الرمح وسيلة من وسائل الصيد المنتشرة في مكة والحجاز كله، وقد أكد القرآن ذلك في الآية الكريمة: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ ...][5].

ثالثا: الصيد بالخيل: على الرغم من أن عدد الخيل كان ضئيلا في مكة، حيث كان لا يملكها إلا رؤساء القوم وفرسانهم، ولما كانت مهمتها غير منوطة بالحرب فقط، فإنها كانت تستعمل للصيد أيضا، لأنها تساعد الصياد على مطاردة فريسته والوصول إليها، حيث يذكر الإخباريون أن حمزة عم النبي ρ كان صيادا ماهرا يهيم في البرية لمطاردة الفهود والأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة[6]. أما بالنسبة لنوعية الصيد، فقد كان التركيز على بعض الحيوانات مثل: الأرانب،

وصفه بعض المؤرخين.

(1)-البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب: يزفون النسلان في المشي، ص177.

(2)-الأزرقي: المصدر السابق، ص35، ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ص268، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص136.

(3)-البخاري، صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد والتسمية، باب: صيد القوس، ص86. الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص150.

(4)-دراع الطاهر: المرجع السابق، ج1، ص103.

(5)-سورة المائدة، الآية: 94.

(6)-ابن الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تح: أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، 1965

والضباء، والغزلان، والأسود، والفهود وغيرها من الحيوانات المتواجدة في المنطقة.

أما عن صيد البحر، فقد سكت الإخباريون فيما إذا كان المكيون قد تعاملوا مع البحر وقاموا بممارسة الصيد فيه، أم أنهم اقتصروا على صيد البر فقط، ولكن أصدق هذه المصادر وهو القرآن الكريم، فقد خاطبهم في أكثر من موضع على أنهم تعاملوا مع البحر ومارسوا الصيد فيه، لقوله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ][1]. وفي قوله: [وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ][2]. أضف إلى ذلك وجود مرفأ في مكة على ساحل البحر الأحمر يدعى الشبيكة، لذلك لا يستبعد أن يكون أهلها قد عرفوا البحر وتعاملوا معه، وإلا فلم يخاطبهم القرآن الكريم على أنهم استفادوا من لحمه ومرجانه ولؤلؤه.

من خلال المعطيات السابقة الذكر، نجد أن الصيد في المجتمع المكي قد مر بمرحلتين:

1-المرحلة الأولى: كان فيها المورد الأول لمعيشتهم اليومية، لا سيما الفقراء منهم الذين لا يملكون تجارة أو قطعان إبل أو أغنام.

2-المرحلة الثانية: فإنه وبمرور الوقت أصبحت هذه المهنة ضربا من ضروب التسلية والرياضة يمارسها وجهاء القوم وكبرائهم للتفاخر بما يصطادونه من حيوانات، فارتبطت بالفروسية والنبل وقول الشعر[3].

المطلب الثاني: تربية الحيوانات

وهي إحدى النشاطات الاقتصادية التي مارسها أهل مكة، ذلك أن طبيعتها الجغرافية وما تميزت به من جبال وصحاري، إضافة إلى قسوة مناخها قد دفعت بالمكيين إلى ترك الزراعة التي أدركوا أنه من الصعب ممارستها في المرتفعات والوديان والشعاب، لذلك استعملوها كمناطق رعي لحيواناتهم.

لم يكن سادة مكة معنيون بهذه المهنة لانشغالهم بممارسة التجارة، فأوكلوا بها عبيدهم أو

ص13.

[1]-سورة النحل، الآية: 14.

[2]-سورة فاطر، الآية: 12.

[3]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ص103.

لرعاة يستأجرونهم، هم في الغالب من العائلات الفقيرة[1]، أما بالنسبة لأشهر الحيوانات التي امتلكها المكيون وقاموا بتربيتها فتتمثل في: الإبل، الخيل، الضأن، الغنم والماعز.

أولا: الإبل: لقد كانت الإبل أكثر الحيوانات تأقلما مع طبيعة مكة الصحراوية، لطول المدة التي تتحمل فيها العطش، فهي تستطيع أن تسير لمدة سبعة عشر يوماً (17) دون تناول الماء، بينما لا تطيق الأغنام والمعز انقطاع الماء عنها أكثر من يوما أو يومين [2].

والحقيقة التاريخية أن الإبل هي رفيقة العربي بصفة عامة، فما بالك بالمكي الذي يكثر من التنقل للتجارة لما تقتضيه هذه الحرفة من تحمل مشاق التنقل والسفر. لذا اتخذ منها رفيقا لا يفارقه طول حياته، يشرب لبنها بدلا من الماء الذي يَحْرم نفسه منه ليوفره لماشيته، ويتلذذ بأطايب لحمها ويصنع من جلدها لباسا يقيه حر الصيف وبرد الشتاء، وينسج من وبرها خياما له، بل بلغ به الأمر إلى استعمال بولها في التطبب من بعض الأمراض التي ظهرت في تلك الفترة [3].

ولما كانت الإبل متوفرة بكثرة عند المكيين، فقد أصبحت من أهم مواردهم التجارية، لذلك سعوا جاهدين للمحافظة عليها، حيث يذكر الإخباريون أن عبد المطلب كان يملك مائتي رأس منها أثناء حملة أبرهة على مكة[4]، ولم تقتصر أهميتها على الناحية الاقتصادية بل تعدتها إلى الناحية الاجتماعي فدفعوا منها مهر الكريمة، حيث أمهر عبد المطلب زوجته فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب وكانوا يدفعون منها دية القتيل أيضا. ويذكر الإخباريون أن أول من سن دية القتيل مائة رأس من الإبل، هو عبد المطلب بن هاشم عندما نذر قتل أحد أولاده إن بلغ عددهم العشرة أولاد، وقد ظهر سهم عبد الله ابن عبد المطلب عندما استقسم والده بالأزلام عند الصنم هبل وكان أحب أبنائه إليه، وبعد تدخل قريش لمنعه من قتله مخافة أن تصير عادة في مجتمعهم لمكانة عبد المطلب بينهم، ففداه بمائة رأس من الإبل، فصارت العادة أن يدفع أهل القاتل لأهل القتيل دية قدرها مائة رأس من الإبل.

فاكتسبت الإبل بذلك شهرة أضيفت لشهرتها عند العرب القدامى، فأكثروا من ذكرها في أشعارهم وقصصهم، والدليل على ذلك وجود أكثر من ألف اسم لها (1000) بمختلف أنواعها، وأنسابها، وأطوار نموها في اللغة العربية التي هي لهجة قريش [5].

---

[1]-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص20.

[2]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ص22.

[3]-دراع الطاهر: المرجع نفسه، ص23.

[4]-ابن هشام: المصدر السابق، ص30.

[5]-الأزرقي: المصدر السابق، ص39، ابن سعد: المصدر السابق، ص50، المسعودي: المصدر السابق، ص102،

وقد أشار القرآن لأهمية هذا الحيوان وغيره في قوله تعالى: [وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ][1].

ثانيا: **الظأن**: ولما كان لحم هذا الحيوان يأتي في المقام الأول بين سائر لحوم الحيوانات الأخرى من حيث جودته وطيبة مذاقه، فقد أكثروا من استعماله في تحضير الثريد الذي اشتهروا به، كما استعملوا صوفها الذي يعد هو الآخر من أجود أنواع الصوف في صنع أفخر الأفرشة والملابس، وهذا ما يفسر اهتمامهم بتربيته، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم قوله تعالى: [ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنْثَيَيْنِ][2].

ثالثا: **الماعز**: لقد اهتم المكيون أيضا بتربية الماعز، خصوصا أن أراضيهم المتموجة ذات التلال والجبال تناسب هذا النوع من الحيوانات، وكانوا يستفيدون من لحومها وحليبها وجلودها وشعرها لنسيج الخيام السود.

والحق أن مهنة الرعي كانت مهنة الأنبياء والرسل عبر التاريخ، وفي الحديث قال الرسول ρ:[3] «ما بعث الله نبيا إلا يرعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟، قال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

رابعا: **الخيل**: كان المكيون القدامى يخصون الخيل ويكرمونها، بل يؤثرونها على الأهل، والولد لمعرفتهم بفضلها، فهي تصبر على المخمصة ، واللأواء، وتصحبهم في رحلاتهم السلمية، والحربية[4]. فهي أكثر الحيوانات ارتباطا بالإنسان ووفاء له.

وقد ذكر ابن الكلبي نقلا عن ابن عباس أن أول من ركب الخيل، واتخذها إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام قال[5]: «... فلما شب إسماعيل أعطاه الله القوس، فرمى بها، وكان لا يرمي شيئا إلا أصابه، فلما بلغ اخرج له الله من البحر مائة فرس، فأقامت ترعى بمكة ثم أصبحت على بابه فرسانها، وأنتجتها، وركبها». وفي إسماعيل يقول بعض الشعراء من بني معد:

توفيق برو: المرجع السابق، ص179.

[1]-سورة النحل، الآية: 5-7.

[2]-سورة الأنعام، الآية: 143.

[3]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ص112.

[4]-ابن الكلبي: المصدر السابق، ص11.

[5]-ابن الكلبي: المصدر نفسه، ص12، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج1 ، دار صادر بيروت، د-ت، ص221

أبونا الذي لم تركب الخيل مثله ولم يدر شيخ كيف تركب

والرأي عندي أنه إذا صحّ هذا القول الذي نسب إلى ابن عباس، يكون إسماعيل υأول من استأنس الخيل وركبها لأنني قد وجدت في بعض الكاتبات الحديثة ما يؤكد ذلك، خاصة أنها ترجع تاريخ دخول الخيل إلى البلاد العربية في القرن الثامن عشر(18) قبل الميلاد، وهو الزمن الذي عاش فيه سيدنا إسماعيل υ[1].

وقد تميزت الخيل العربية بجمالها، وقوتها[*] وتحملها للشدائد، وتعلقها بصاحبها. كما جاء في كتب الإخباريين عن ولع العربي وشغفه بها، فهي رفيقه الثاني بعد الجمل، بل كان في بعض الأحيان يريح فرسه ويركب جمله حتى إذا وصل إلى ميدان القتال ركبها فلم تخذله في ميدان الوغى[2].

والحق أن الخيل لم تكن مجرد وسيلة للحرب فحسب، وإنما كانت تستعمل أيضا للهو والتسلية والصيد، لأن الصياد الراكب أقدر من الصياد الراجل على مطاردة فريسته[3]. وفيها يقول الألوسي[4]: «أنها أحسن ذوات الأربع صورة، وأفضلها وأشبهها بالإنسان بالكرم»، وقد ورد الثناء عليها في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ][5]. وقوله: [وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...][6].

أما في السنة النبوية، فقد قال ρ: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وفي حدث آخر قال ρ: «بطونها كنز، وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها»[7]. وقد جاء في

---

(1)-محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، ص399.

(*)-قال قصي بن كلاب في جواد له يفتخر به: يوم يناديهم بهال وهبي أمهبي خنذف وإلياس أبي

هال: هو اسم حصانه الذي لم يخذله في ساحة القتال. انظر: ابن دريد، المصدر السابق، ج2، ص360.

(2)-ابن الكلبي، المصدر السابق، ص13.

(3)-دراع الطاهر: المرجع السابق، ص21. لطفي عبد الوهاب: المرجع السابق، ص94.

(4)-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص75.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 14.

(6)-سورة الأنفال، الآية: 60.

(7)-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص76.

وصية أكثم بن صيفي قوله لقومه[1]: «عليكم بالخيل فأكرموها فإنها حصون العرب».

المطلب الثالث: الموارد المائية في مكة

نظرا لقسوة المناخ بمكة، وما يمتاز به من ندرة الأمطار وتذبذبها فقد كان الحصول على الماء أمرا صعبا، خاصة بعد أن استقرت قريش فيها، وكثر عدد سكانها، أضف إلى ذلك وفود الحجيج إليها أيام الموسم. وأمام حاجة المكيين الملحة لكميات كبيرة من الماء، قام زعيمها قصي بإنشاء وظيفة السقاية التي هي في ظاهرها وظيفة دينية، غير أنها تنطوي على فوائد اقتصادية، من بينها البحث عن الموارد المائية وتنظيم الري[2]، وحفر العديد من الآبار هو وأبناؤه نذكر منها:

أولا: بئر العجول: وموضعها في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وهي التي اتخذها قصي لسقاية الحجيج، وفيها يقول بعض رجاز الحجاج:

نروي من العجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل أفق
إن قصيا قد وفى وقد صدق بالشبع للناس وري المغتبـــق

وحفر قصيا بئرا أخرى عند الردم الأعلى في دار أبان بن عثمان، لكنها اندثرت[3].

ثانيا: بئر بذر[*]: وهي البئر التي في حق عبد المطلب في ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة في أصل المستنذر[**]، وفيها تقول صفية بنت عبد المطلب:

نحن حفرنا بذرا بجانب المستنذر نسقي الحجيج الأكبر

ثالثا: بئر سجلة[***]: وهي البئر التي يقال لها بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، حيث

---

(1)-أبو طالب المفضل بن سلمة الظبي: الفاخر في الأمثال العربية، ط1، مطبعة النهضة، تونس، 1353هـ-1934م ص229.

(2)-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص54.

(3)-الأزرقي: المصدر السابق، ص83، ابن هشام: المصدر السابق، ص92، البلاذري: فتوح البلدان، ص65.

(*)–بفتح أوله وثانيه مع تشديد الذال، وقيل أيضا أنها لبني عبد الدار، قال شاعرهم:

سقا الله أمواها عرفت مكانها جرابا وبذرا والغمر

(**)–المستنذر هو جبل يسمى أيضا الأبيض، وهو قريب من جبل الخندمة.

(***)–سجلة بفتح أوله وسكون ثانيه، والسجل هو الدلو إن كان فيه ماء قل أو كثر، وقد قال السهيلي أن الذي حفرها قصي وليس هاشم، وقال حين حفرها: أنا قصي وحفرت سجلة تروي الحجيج زغلة فزغلة

قالوا أن عبد المطلب قد منحه إياها بعد أن احتفر زمزم، فقالت خالدة بنت هاشم:

نحن وهبنا لعدي سجلة في تربة ذات غداة سهلة تروي الحجيج زغلة فزغلة [1]

رابعا: **بئر الطوي**: وموضعها بدار محمد بن يوسف، وهي التي قالت فيها سبيعة بنت عبد شمس:

إن الطوي إذا شربتم ماءها صوب الغمام عذوبة وصفاء[2].

خامسا: **بئر شفية**: حفرها بنو أسد بن عبد العزة، وقال فيها الحويرث بن أسد:

ماء شفية كماء المـــــزني وليس ماؤها بطريق أجن

سادسا: **بئر أم أحراد**: وهي بئر لبني عبد الدار، قالت فيها أميمة بنت عميلة بن سباق بن عبد الدار تفاخر بها صفية بنت عبد المطلب قائلة:

نحن حفرنا البحر أم أحراد ليست كبذّر النزور الجماد

وذكر البلاذري أن بنو جمح حفروا سنبلة، وحفر بنو سهم بئر الغمر، أما بنو عدي فحفروا بئرا أسموها الحفيرا [3]. أما أشهر هذه الآبار جميعا هي بئر زمزم التي احتفرها عبد المطلب بن هاشم، حيث يذكر الإخباريون أنه بينما كان عبد المطلب نائما في الحجر سمع هاتفا في منامه يأمره بأن يحفرها، وأخبره بمكانها قائلا: «هي لا تنزف وتذم، تسقي الحجيج الأعظم، بين الفرث والذم، عند نقرة الغراب الأعصم»، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث فوجد الغراب ينقر بين إساف ونائلة فحفر هناك، فلما بدا له الطي كبر فسمعته قريش وأرادت أن تشاركه فيها، لكنه رفض وتحاكموا عند كاهنة بني سعد وصاروا إليها، لكنهم عادوا قبل الوصول إليها وقد سلموا بالأمر لعبد المطلب. الذي تولى منصب السقاية بعد عمه المطلب، فكان يسقي منها الحجيج بعد أن يخلط ماءها بالزبيب ليكسر غلظته[4].

إن الدارس لهذه الآبار يدرك أهمية الماء بالنسبة للمكيين وحاجتهم الشديدة له، والجهد الذي بذلوه في التأقلم مع قسوة المناخ وطبيعة المنطقة الصحراوية هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعي

انظر: السهيلي: المصدر السابق، ص101.

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص83، البلاذري: فتوح البلدان، ص66، الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص622.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص83، ابن هشام: المصدر السابق، ص93.

[3]-البلاذري: فتوح البلدان، ص67، السهيلي: المصدر السابق، ص102.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص38، ابن هشام: المصدر السابق، ص90، القزويني: المصدر السابق، ص120، شفاء الغرام، ج2، ص390، الحميري: المصدر السابق، ص94.

الدور الكبير الذي أدته وظيفة السقاية في تنظيم استعمال المكيين لمواردهم المائية.

المطلب الرابع: الصناعة

لقد تجنب المكيون ممارسة الصناعة نظرا لما تتطلبه هذه الحرفة من بذل للوقت والالتزام به وانشغالهم بالتجارة والتنقل، لذلك نجدهم قد مارسوا بعض الصناعات البسيطة من بينها:

أولا: صناعة الأسلحة: مثل الرماح والنبال والخناجر والسيوف والدروع، حيث يذكر المؤرخ جواد علي أن الوليد بن المغيرة كان حدادا يصنع السيوف والرماح وغيرها من أدوات الحرب[1]، غير أن هذا النوع من الصناعات لم يكن متطورا بالقدر الذي يسمح لأهل مكة بتصدير منتوجهم، فهو لا يكاد يغطي احتياجات سوقهم المحلية[2].

ثانيا: صناعة الملابس: لقد انتشرت صناعة النسيج، وقام غالبية سكانها يصنعون ملابسهم بأنفسهم، خاصة الفقراء منهم، في حين اعتمد الميسورين منهم على الصناع المحليين أمثال العوام أبو الزبير الذي كان يشتغل بصناعة الملابس وخياطتها، كما اعتمدوا أيضا على ما تحمله قوافلهم التجارية من بلاد اليمن [3].

ثالثا: صناعة الجلود: من المعروف أن صناعة الجلود ودباغتها مرتبطة بالاقتصاد الرعوي وبما أن هذا الأخير يمثل جزءا من الاقتصاد المكي، لذلك تعتبر الجلود من أهم المنتوجات القرشية، غير أنها لم تبلغ في شهرتها ما بلغته جلود الطائف التي عمل تجار مكة على استيرادها وتصديرها للدول المجاورة[4].

رابعا: صناعة الفخار: لقد عرف سكان مكة صناعة الفخار لتلبية حاجات السوق المحلية من أواني المطبخ كالقدور والجفان والأباريق وغيرها، ومن أشهر صنّاعها: أمية بن خلف[5].

خامسا: صناعة التماثيل: تبعا لانتشار عبادة الأصنام بمكة وازدياد حاجتهم إليها، لذلك اهتم البعض منهم بصناعة أشكال مختلفة الأحجام حتى تكون سهلة النقل من مكان إلى آخر[6].

---

[1] -المرجع السابق، ج4، ص146.

[2] -باتريشيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام، تر: آمال محمد روبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص184.

[3] -عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص314.

[4] -باتريشيا كرون: المرجع السابق، ص175.

[5] -جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص126.

[6] -باتريشيا كرون: المرجع السابق، ص185.

المطلب الخامس: التجارة

الحق أن مكة قد نالت مكة مميزة بفضل موقعها الجغرافي الممتاز، ووجود بيت الله فيها مكانة في نفوس عرب شبه الجزيرة الذين جعلوا منها مركز عبور لتجارتهم وملتقى لقوافلهم التجارية القادمة من اليمن تريد الشام والعكس منذ القديم، حيث يذكر الهمذاني[1]: «أنه ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم، ذلك أنه من سكن بمكة من العماليق وجرهم وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة، فيعرفون أخبار الناس». يبدو من خلال هذا النص أن سكان مكة قد مارسوا التجارة منذ عهد العماليق وجرهم وخزاعة، سواء مع القادمين لزيارة بيت الله أو المارين بها، وقد استمروا في ذلك إلى أن استقرت قريش بها، وتولى قصي أمرها في منتصف القرن الخامس الميلادي. حينها تمكن المكيون من التحكم في المبادلات التجارية مستفيدين من التدهور الاقتصادي الذي أصاب اليمن، لا سيما بعد سقوطها في يد الأحباش وازدياد الصراع بين الفرس والروم، مما أدى إلى تعطيل الطريق التجاري الذي يربط بلاد الشام والهند عن طريق بلاد فارس، وبالتالي انتقال النشاط التجاري إلى شبه الجزيرة، ومنه إلى مكة[2].

أولا: أسواق مكة الداخلية: ونظرا للتنظيمات التي قام بها قصي وأبنائه من بعده، فقد ازدهرت الأوضاع الاقتصادية داخليا وخارجيا، ونظمت الأسواق التي يعرضون فيها بعض منتوجاتهم المحلية، وما حملته قوافلهم من مختلف الأصقاع، ومن أهم هذه الأسواق:

1-سوق الحزورة: وهو أقدم سوق بمكة، كان يتم فيها البيع والشراء، أما بالنسبة لموقعها بالضبط لم يذكر الإخباريون شيئا عنه.

2-سوق الأبطح: كانت تنزل فيه بعض القوافل القادمة من بلاد الشام لتبيع فيه منتوجاتها من زيت، وجلود، وزبيب، وسيوف وغيرها.

3-سوق بين الدارين: وهي رحبة بين دار أبي سفيان ودار ابنه حنظلة، تباع فيها الحبوب والسمن والحنطة والعسل التي تحملها القوافل القادمة من الطائف والسراة وغيرها.

4-سوق قرن القرظ: يقع بين أسفل جبلي أجيادين الكبير والصغير، وكان الناس يبتاعون

---

[1]-الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص332، صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص119.

[2]-ناصر بن سعد الرشيد: تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي، مطابع جامعة الملك سعود، 1984م، ص222، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص107، توفيق برو: المرجع السابق، ص338.

Lammens : L'islam croyances, p34.

فيه نبات القرظ الذي يستخدم لدبغ الجلود[1].

بالإضافة إلى هذه الأسواق، توجد دور في شكل حوانيت خصصها أصحابها للتجارة، نذكر منها:

1-**دار صفوان بن أمية الجمحي**: الواقعة أسفل مكة والتي كانت تسمى دار مصر نسبة إلى القوافل المصرية التي كانت تضع حمولتها أمام تلك الدار، فيأتي الناس ويشترون منه ما يحتاجون[2].

2-**دار السائب بن سايب المخزومي**: الذي كان شريكا للرسول ρ قبل البعثة، وكانت تجارتهما في هذه الدار، وقد قال الرسول ρ في السائب أنه نعم الشريك.

3-**دار الخطاب بن نفيل**: التي كانت فيها بعض الحوانيت، يباع فيها الأدم، فعرفت بحوانيت الأدم[3].

ثانيا: أسواق مكة الخارجية: ولم يقتصر تجار مكة أو القادمين إليها على البيع في أسواقها الداخلية، بل توجهوا إلى الأسواق القريبة منها مثل عكاظ، مجنة وذو المجاز.

1-سوق عكاظ[*]: وهو أعظم أسواق العرب، يقع بين واد نخلة والطائف على مرحبتين من مكة وكان المكان الذي يجتمع فيه الناس، يقال له: الأثيداء فيه مياه ونخل، وهي أرض مستوية لا علم فيها إلا ما كان من الأنصاب[**] التي كانوا يطوفون بها[4]. وكانت هذه السوق التجارية تأتيها القوافل واللطائم محملة بكل ما تنتجه بلدان شبه الجزيرة، فإليها يجلب الخمر من العراق وبصرى والسمن من البوادي والبرود والأدم من اليمن، قال أبو ذؤيب [5]:

---

[1]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ج1، ص139.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ج2، ص260.

[3]-الأزرقي: المصدر السابق، ج2، ص ص 256-260.

[*]–من عكظ دابته بعكظها، أي يحبسها وعكظ الشيء يعكظه: أي أعركه، وتعاكظ القوم أي تعاركوا وتفاخروا، ولهذا سمي السوق به، لأن الناس يتفاخرون فيه بأشعارهم، وسنتحدث عن هذا أكثر في الأوضاع الثقافية. انظر: ابن سيدة: المصدر السابق، ج1، ص159.

[**]–النصب بضمتين، كل ما نصب وجعل علما، وفي الصحاح النصب بالفتح، فالسكون ما نصب وعبد من دون الله وهو مصدر وجمعه أنصاب، قال تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]. انظر: الزبيدي: المرجع السابق، مج2، ص ص434-435.

[4]-الأصفهاني: بلاد العرب، ص31، الحميري: المصدر السابق، ص411، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص268

[5]-ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تح: مصطفى السقا، ج1، ط1، 1958، ص159، سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط2، دار الفكر، 1960، ص278، أحمد أمين: عكاظ والمربد، كلية الآداب، مج1، ج1، ماي، 1933، ص49.

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف.

أما بالنسبة للقبائل التي تنزل بها فهي: قريش، وهوازن، وسليم، والأحابيش[***]، وعقيل والمصطلق، فيمكثون بها من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، وقيل من منتصفه إلى آخره[1]، ولم يكن فيها عشور ولا خفارة[*]، وكان بيعهم السرار إذا وجب البيع. وقد شهدت هذه السوق حروب الفجار، فسميت ثلاثة أيام منها بأيام عكاظ[2]، قال دريد[3]: تغيبت عن يومي عكاظ كليهما وإن لم يكن يوم ثالث أتغيب

2-سوق مجنة: وهي بمر الظهران على مقربة من مكة، وهي التي عناها بلال τ بقوله:

وهل أردن يوما مياه مجنة فيبدو لي شامة وطفيل

وقد كانت هذه السوق لبني كنانة يأتيها التجار بعد أن يفرغوا من عكاظ، لكنها أدنى منه مكانة على الرغم من أنها كانت تقام أيضا في موسم الحج[4].

3-سوق ذو المجاز: ذكر الأصفهاني أنه ماء من أصل كبكب، وهو لهذيل وكبكب هو جبل بعرفات، وقيل أنه موضع بمنى، وسمي بذلك لأن إجازة الحاج كانت منه، فمساحة السوق قد تمتد فينتقل الناس فيها. ونظرا لأهمية هذه السوق، فقد كثر ذكرها في أشعار العرب، قال الليثي[5]:

للغانيات بذي المجاز رسوم في بطن مكة عهدهن قريب

[***]–ذكر مصعب الزبيري أن الأحابيش هم: بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والحيا والمصطلق وخزاعة، في حين ذكر لامنس أن الأحابيش هم عبيد سود من الحبشة، تستعملهم قريش في الحروب كمرتزقة. انظر: مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص9، عبد الحميد العبادي، أحابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا، كلية الآداب، مج1، ج1، 1933، ص98. Lammens : Islam croyances, p32.

[1]-اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص270، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص267، القلقشندي: المصدر السابق، ص264. Fransesco Gabrieli: Op-cit, p30.

[*]–من غير عشور لأنها لا تقع في أرض مملكة، أما الخفارة فلأنها تقام في وقت الأشهر الحرم، فلا يعتدي أحد على تجارة الآخر، فهم ليسوا في حاجة إلى حماية أحد.

[2]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص267.

[3]-محمد جاد المولى وآخرون: أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، 1988، ص324.

[4]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب الحج، باب: التجارة أيام موسم الحج، ج2، ص222. الميداني: المصدر السابق، ج2، ص519.

[5]-العسقلاني: المصدر السابق، ص594، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص66، الأفغاني: المرجع السابق، ص354.

أما باقي الأسواق سنتحدث عنها عند دراسة علاقات مكة مع الدول المجاورة.

أما الحقيقة التاريخية التي نستنتجها من خلال دراستنا لهذه الأسواق أن تجارة مكة قد ارتبطت بموسم الحج والأشهر الحرم، لما تتمتع به هذه الأخيرة من أمن يساعد التجار على البيع والشراء في سلام، كما أن تجارة قريش لم تكن ملكا لأفراد، بل كانت قوافلها تحمل أموالا لجميع البطون فقيرهم وغنيهم، كل حسب قدرته، لذلك كانوا يحتفلون برجوع القافلة، فتخرج جموع الشبان لتترقب عودتها، فيجتمع كهولهم وشيوخهم في دار الندوة لانتظار أخبارها[1].

ومما يدل أيضا على اهتمامهم بالتجارة وحرصهم الشديد على المحافظة على سمعتهم التجارية هو عقدهم لحلف الفضول الذي اعتبره المؤرخون المحدثون بأنه حلف تجاري بمقدماته ونتائجه، حفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواقها.

أما سبب عقدهم لهذا الحلف، فهي أن رجلا من زبيد من أهل اليمن باع سلعته للعاص بن وائل السهمي، فظلمه في ثمنها، فارتقى الرجل جبل أبي قبيس رافعا عقيرته وقريش في أنديتها قائلا:

يا آل قصي لمظلوم بضاعتـــه	ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال بين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمـــه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فتداعت لذلك قريش واجتمعت بنو هاشم وبنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى، فدخلوا دار ابن جدعان وتعاقدوا على أنهم لا يجدون بمكة مظلوما إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمته. احترمت قريش هذا الحلف وتمسكت به لأهميته، وكان ممن احترمه رسول الله ρ، حيث قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعي به في الإسلام فأجبت»[2].

---

[1]-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص45، أيمن دويدار: المرجع السابق، ص38.

[2]-ابن هشام: المصدر السابق، ص84، المسعودي: التنبيه والإشراف، تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي للطبع، القاهرة، 1357هـ، ص179، الماوردي: المصدر السابق، ص99، ابن الأثير: الكامل، ص41.

فأجابه العباس بن عبد المطلب قائلا: فأت البيوت وكن من أهلها صددا لا تلــق تأديبهــم فخشا ولا باســا

من يكن بفنـــاء البيت معتصـــما يلقى ابن حربا ويلقى المرء عباسا

قــومي قــريش بـــأخلاق مكملة بالمجد والحزم ما عاشا وما ساسا

ســـاقي الحجيج وهذا ناشز فلج والمجـــد يورث أخماسا وأسداســـا

وكان من ثمرة هذا التدبير التجاري، أن ازدهرت مكة اقتصاديا، وكثرت مواردها وزاد حجم تجارتها، فجمع سادتها ثروات طائلة من بينهم: عبد الله بن جدعان، الذي كان يرسل إلى الشام مائتي بعير للمتاجرة، وأنه كان لا يشرب إلا في كأس من ذهب، فسمي "حاسي الذهب". ولم يقتصر على امتلاك الثروة الرجال دون النساء، فقد كانت خديجة بنت خويلد ذات مال تستأجر له الرجال ليتاجروا لها في الشام، وأسماء بنت مخرمة زوج هشام بن المغيرة كانت تتاجر في بيع العطور[1].

والأهم من ذلك أن تجار مكة لم يجمدوا أموالهم وأرباحهم، بل كانوا يوظفونها في مشاريع استثمارية داخل الحجاز وخارجه، فقد كان آل أبي ربيعة يشغلون أموالهم في اليمن، وكان لأبي أحيحة مزارع في الطائف، ولأبي سفيان أملاك في بلاد الشام.

ولعل هذا ما دفع ببعض المؤرخين إلى القول بأن القرشيين قد تميزوا عن العرب جميعا بحسن تذوقهم للعمل التجاري، حيث دعموا تجارتهم بتنظيم مالي ومصرفي، واستعملوا عملات مختلفة منها: الدينار البيزنطي، والدرهم الفضي الفارسي، ويعتقد أيضا أنهم استعملوا موازين ومكاييل يزنون بها سبائك الذهب، واستعملوا دفاتر قيدوا فيها حساباتهم[2].

ومجمل القول أن الاقتصاد المكي قد تميز بمميزات خاصة فرضها الموقع الجغرافي وطبيعة المناخ. لذلك فنحن لا نستغرب ترك المكيين ممارسة الزراعة وقلة اهتمامهم بالصناعة وانكبابهم على التجارة التي شكلت العمود الفقري لاقتصادهم.

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية والدينية

لقد تحدثنا عن المجتمع المكي كمجموعة من الأفراد تربط بينهم روابط دم ونسب، وبقي أن نتحدث عن أهم هذه الروابط وهي اللغة والدين والتراث الثقافي، لأن المجتمع هو أيضا مجموعة من الأفكار والمعتقدات التي تلعب دورا كبيرا في صناعة اللغة وتنميتها وتطويرها[3].

المطلب الأول: الأوضاع الثقافية

أولا: اللغـــة: كان جميع العرب الذي يسكنون النصف الشمالي من شبه الجزيرة يتكلمون لغة واحدة هي العربية، رغم اختلاف لهجاتهم، وكانت أفضل هذه اللهجات وأكثرها استعمالا لهجة

انظر: الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص276.

[1]-الأصبهاني: المصدر السابق، ج1، ص58، ناصر بن سعد الرشيد: المرجع السابق، ص233، أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص46.

[2]-توفيق برو: المرجع السابق، ص243، المطهر المقديسي: المرجع السابق، ص128.

[3]-محمد رضا الشماسي: اللغة العربية في التاريخ والدين والمجتمع، مجلة الكلمة، ع5، بيروت، 1994، ص17.

قريش[1]، يقول صاعد الأندلسي[2]: «أما علمها الذي كانت تفاخر به وتباري فيه فعلم لسانها وأحكام لغتها»، والدليل على ذلك نزول القرآن الكريم بها، لقول الله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ...][3]. وقوله أيضا: [وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ][4]. ومعنى هذين الآيتين أن الله Y أنزل هذا القرآن بلغة أهل مكة وهي العربية.

ولما كانت اللغة ليست مجرد حروف أو كلمات، بل هي وعاء يحمل ثقافة المجتمع ويعبر عنها، فقد عنى المكيون بلغتهم أكثر من عنايتهم بشيء آخر، فنظموا القصائد واختاروا لها أرقى المفردات وأدقها. ومن الحقائق التاريخية أن لغة قريش في القرنين السادس والسابع (6-7م) الميلاديين قد أصبحت عنوانا لسمو مداركهم في جميع المجالات خاصة الدينية والاقتصادية، وقد بدا ذلك واضحا في المناسبات الرسمية، مثل عكاظ ومجنة والمجاز التي تعتبر من أشهر منتدياتهم الأدبية.

إن انعقاد مثل هذه المنتديات في الأشهر الحرم وبالقرب من مكة واستعمال المشاركين فيها للهجة قريش في قولهم لأشعارهم وخطبهم يعد دليلا آخر على انتشار هذه اللهجة التي ما لبثت أن تحولت إلى لغة لها أحكامها وقواعدها، بفضل حنكة أصحابها واستفادتهم من تلك المواسم في إثراء لغتهم بأجمل الألفاظ وأرصن التعابير، فجاء القرآن في لغتهم ليعجزهم[5].

ثانيا: الكتابة: كان المكيون كغيرهم من العرب يعتمدون في الاحتفاظ بإنتاجهم الثقافي والأدبي على ما تمتعوا به من ذكاء وقوة الذاكرة، فقد كان أحدهم يسمع لأول مرة قصيدا من الشعر أو خطبة من الكلام الجزل فيحفظها في الحال، فتظل ذاكرته تحتفظ بها زمنا طويلا. لهذا شاع عنهم أنهم لم يكونوا أهل كتابة، غير أنها في الحقيقة لم تكن نادرة كما تخير البعض[6].

---

[1]-عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ص36، آنو ليتمان: بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، مج10، ج1، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1953م، ص7، عبد الحليم النجار: في اللهجات العربية وأصول اختلافها، مجلة كلية الآداب، مج15، ج1، ماي 1953، ص38.

[2]-المصدر السابق، ص19.

[3]-سورة إبراهيم، الآية: 4.

[4]-سورة النحل، الآية: 103.

[5]-علي حسني الخربوطلي: التاريخ الموحد للأمة العربية، الهيئة المصرية للتأليف، د-ت، ص28، ص28.

[6]-ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دار صادر، بيروت، 1902، ص78، الجاحظ: البيان والتبيين، مج1، تح: عبد السلام هارون، ط4، دار الفكر، بيروت، لبنان، د-ت، ص308، إبراهيم الشريفي: التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا، ط2، 1971، ص22، فؤاد حسين: أداة التعريف في اللغة العربية، مجلة كلية الأدب، مج7، مطبعة الاعتماد، مصر، 1944، ص170.

يذكر ابن نديم أن الذي نقل إليهم الكتابة هو حرب بن أمية، الذي تعلمها من بشر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل الذي تعلمها بدوره من الحيرة، ثم سافر مع حرب إلى مكة وتزوج أخته الصهباء بنت حرب فتعلم منه جماعة من أهلها، ولما كثر الكتاب في قريش امتن عليهم الكندي بقوله[1]:

وتجحد نعمـــاء بشـــر عليكـــم فقد كان ميمـــون النقيبـــة أزهـــرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتم من المال ما قد كان شتـــى مبعـــثرا
وأنفيتم ما كان بالمال مهمـــلا وطـــامنتم مـــا كـــان منه مبقـــرا
وأغنيتم عن مسند الحي حميرا وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

وهذا يعني أن المكيين قد تخلوا عن خط المسند الحميري بعد أن تعلموا خط الجزم[*] الذي تطور عن الخط النبطي، هذا ما تؤكده الدراسات اللغوية الحديثة من خلال النقوش الكتابية التي عثر عليها في منطقتي حوران والعلا، ومقارنتها بأقدم نص عربي قبل الإسلام. حيث يرى بعض المؤرخين أن اللغة العربية تطورت تدريجيا من لغة نبطية ممثلة في نص أم الجمال الأولى المؤرخ في القرن الثالث الميلادي، إلى لغة نبطية عربية ممثلة في نص النمارة المؤرخ في 328م[2]، إلى لغة عربية مستقلة تماما عن النبطية من خلال نصي حران وأم الجمال الثانية، وهما يعودان إلى القرن السادس الميلادي (6م)[3].

جاء في كتاب "الفهرست" أنه كان في خزانة المأمون العباسي كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد أدم فيه: «ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه، شهد الله والملكان»[4]. ويؤكد وجود مثل مثل هذا النص قوله تعالى: [يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ

---

(1)- الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1995م، ص15، ابن خلدون: المقدمة، ص329، عمر فروخ: تاريخ الأدب، ص38، إبراهيم شريفي: مرجع سابق، ص21.

(*)–وسمي بذلك لأنه جزم، أي اقتطع من الخط المسند، وهو ذاته الخط الكوفي الذي سمي بذلك بعد بناء الكوفة. انظر: الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص368.

(2)-خليل يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، مج3، ج1، القاهرة، 1958، ص105..، رمزي منير البعلبكي: الكتابة العربية والسامية، ط1، دار العلم للملايين، 1981، ص123، James G. Février : Histoire de lecture, Payot, Paris, 1959, p263

(3)-عبد المنعم عبد الحميد سيد: الهوية الثمودية في النقوش النبطية، مجلة المؤرخ العربي، ع9، مج1، القاهرة، 2001، ص14، توفيق برو: المرجع السابق، ص110.

(4)-ابن النديم: المصدر السابق، ص15.

الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا...][1]. وكان القلم الذي يكتبون به مصنوعا من القصب في الغالب، وقد ورد ذكره في شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي[2]:

قــومي إيــاد لو أنهم أمــم أولو أقاموا فتهزل النعــم
قومهم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم

وذكر في القرآن الكريم في أكثر من موضع قوله تعالى: [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ][3]. [ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ][4]. كما استخدموا الدواة التي وضعوا فيها المليق، وهو اسم الصوف أو القطن الذي يلصق به المداد، وسمي المداد مدادا لأنه يمد الكاتب[5]. وقد ذكر في القرآن الكريم قوله تعالى: [قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا][6].

أما أوعية الكتابة، فكانت متعددة مثل جريد النخل (العسف)، والجلد الذي يسمى عندهم الرق بفتح الراء، وهو جلد رقيق تحسن الكتابة عليه، وكذلك القرطاس الذي كانوا يسمونه مهرقا وصحيفة. أما بالنسبة للذي يبدأون به كتاباتهم، فعادة ما كانوا يفتتحونها بأسماء آلهتهم كاللات والعزى، أو بـــ"باسمك اللهم"، ونستدل على ذلك بالصحيفة التي تعاهد عليها سادة مكة خلال قطيعة بني هاشم، فأكلتها الأردة وبقي منها عبارة واحدة هي "باسمك اللهم"، وقيل أن أول من كتبها أمية بن أبي الصلت أو قس بن ساعدة الإيادي[7]. وينقسم كلام العرب إلى قسمين أو فنين كالشعر والنثر.

1-الشعر: وهو الكلام الموزون، فإذا امتاز النظم بجودة المعاني ودقة التعبير ومتانة السبك فهو شعر[8]، وقد تكون هذه الخصائص في الكلام من غير أن يكون موزونا، فيسمى أيضا شعرا، لأن الشعر في حقيقته كما يقول عمر فروخ: «هو ما خلب العقل واستولى على العاطفة واستهوى النفس»[9].

أما عمر بن الخطاب، فقد عرفه بقوله: «نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر، يقدمها

---

(1)-سورة البقرة، الآية: 182.
(2)-الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص370.
(3)-سورة العلق، الآيات: 1-4.
(4)-سورة القلم، الآية: 1.
(5)-الألوسي: المرجع السابق، ص370.
(6)-سورة الكهف، الآية: 109.
(7)-الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص376.
(8)-ابن سيد: المصدر السابق، ج1، ص223.
(9)-المرجع السابق، ص44.

الرجل أمام حاجته، فيستزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم مع ما للشعر من عظم المزية وشرف الأبية وعز النفس وسلطان القدرة»[1]. لذلك يعد الشعر فعلا ديوان العرب الذي يحفظ تراثهم وثقافتهم.

لقد نظم المكيون الشعر في كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه المختلفة:

أ-الفخر: وهو تمدح المرء بخصاله وخصال قومه، والتحدث بحسن بلائهم وكرم أصلهم وشهرة شجاعتهم[2]، ومثال ذلك قول قصي بن كلاب[3]:

أنا ابن العاصمين بن لــؤي بمكــة منزلــي وبهــا ربيت
إلى البطحاء قد علمت معد ومروتها رضيت بها رضيت

ب-المدح: وهو الثناء على ذي شأن بما يستحسن من الأخلاق الكريمة كرجاحة العقل والكرم والشجاعة[4]، وقد قال في ذلك قدرة بن حجل بن عبد المطلب يفخر بأعمامه[5]:

اعدد ضرارا إن عددت فتى ندى والليث حمزة واعدد العباســا
واعــدد زبيــرا والمقوم بعــده والضيم حجلا والفتى الرأسا
وأبــا عتيبــة فاعددنــه ثامنــا والقرم عبد مناف والجساسا
والحــارث الفياض ولّى ماجدا أيــام نازعة الهمام الكاســا
ما في الأنام عمومة كعمــومتي خيرا ولا كــأناسنــا أناســا.

جـــ-الهجاء: هو تعداد مثالب المرء وقبيلته، ونفي المكارم والمحاسن عنه ولكن مما يلفت وقيل أن النظر أن المكي وغيره كان يهجون العيوب النفسية الخُلُقية ولا يهج بالعيوب الجسمية الخَلْقية[6].

قيل أن الزبير بن عبد المطلب كان شاعرا مغلقا شديد المعارضة، قنع الهجاء حيث روي أن عبد الله بن الزبعري قد هجا قصيا فرد عليه الزبير بقوله[7]:

---

(1)-الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص82.

(2)-أحمد الهاشمي بك: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ط14، مطبعة السعادة، 1929، ص369، يوسف بن سليمان الشنتمري: المصدر السابق، ص269.

(3)-ابن هشام: المصدر السابق، ص74.

(4)-محمد فروخ: المرجع السابق، ص83.

(5)-ابن سعد: المصدر السابق، ص94، كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص31.

(6)-أحمد الهاشمي: المرجع السابق، ص370، عمر فروخ: المرجع السابق، ص83.

(7)-الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص85.

فلولا نحن لم يلبس رجالكم ثياب أعــزة حتـــى يموتـــوا
ثيابهم سمال أو طمـــار(*) بها دسم كمـــا دســـم الحميت
ولـــكنا خلقنـــا إن خلقنـــا لنا الحبرات(**) والمسك الفتيت

د - الرثاء: هو مديح للميت لذلك نجدهم يرثون بالخصال الحميدة التي كانوا يفتخرون بها ولا ريب في أن رثاء الأقارب أقرب إلى العاطفة[1]، ويتصل بالرثاء النواح، وهو الشعر الذي تحفظه النائحة فترثي به الميت مقابل أجر تأخذه، وقد تطور هذا العمل فصار حرفة يحترفنها، ومن أمثال العرب فيها "ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة"[2]، وقالت تخمر بنت قصي ترثي أباها[3]:

طرق النعي بعيد نوم الهجد فعنى قصيا ذا الندى والسؤدد
فنعى المهذب من لؤي كلها فانهال دمعي كالجمان المفرد
فأرقت من حزن وهم داخل أرق السليم لوجده المتفقـــد

وقالت هند بنت عتبة ترثي أباها في سوق عكاظ[4]:

أبكـــي عمـــيد الأبطحين كليهمـــا وحـــاميها من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمار وليدها

2 - النثر: وهو ما ليس مرتبط بوزن ولا قافية، وهو أقسام:

أ - الخطابة: وهي الكلام المنثور المسجوع، وقال الزبيدي: أن الخطبة مثل الرسالة لها أول وآخر، وأكثر ما كانت الخطابة في التحريض على القتال أو التحكيم في الخصومات وإصلاح ذات البين وفي المفاخرات والمنافرات وغير ذلك، وكان من عادة الخطيب أن يخطب قائما من مكان مرتفع عن الأرض لإبعاد مدى الصوت والتأثير بشخصه وإظهار ملامح وجهه، ولا غنى له عن عمامة يعصب بها رأسه تميزا[5]. ومن أشهر خطباء مكة كعب بن لؤي، وقصي بن كلاب، وهاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم.

(*)–أسمال أو طمار ثياب بالية.

(**)–الحبرات جمع مفرده حبرة، وهو ثوب يماني من قطن أو كتان.

(1)-عمر فروخ: المرجع السابق، ص83.

(2)-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص101.

(3)-بن سعد: المصدر السابق، ص73.

(4)-عبد الله عفيفي: المصدر السابق، ص468.

(5)-أحمد الهاشمي: المرجع السابق، ص361.

فأما كعب فكان يجمع قومه كل عروبة (جمعة) ويخطب عليهم، فيقول: «...اسمعوا وعوا وتعلموا أن الليل ساج والنهار ضاح والأرض مهاد والسماء عماد والخيال أوتاد والأولون كالأخيرين، فصلوا أرحامكن واحفظوا أصهاركم وثمروا أموالكم...»[1].

كما أشارت الأخبار أن قريشا وخزاعة تنافرا إلى هاشم بن عيد مناف فخاطبهم قائلا: «أيها الناس، نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي وأرباب مكة وسكان الحرم لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم، يا بني قصي أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه... وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد، ورأس العشرة تحمل أثقالها، فقالت قريش رضينا بك أبا نضلة[2].

ب-الوصية: وهي باب من أبواب الخطبة، إلا أن الخطبة تقال في الحفل: وعلى مسمع أكبر عدد ممكن من الناس، بينما الوصية تكون لفرد أو مجموعة منهم، ومثال ذلك أن عبد المطلب أوصى ابنه الزبير بأن يحفظ حلفه مع خزاعة قائلا[3]:

سأوصي زبيرا إن توافت منيتـــي بإمساك ما بيني وبين بني عمرو
وأن يحفظ الحلف الذي سن شيخه ولا يلحـــدن فيه بظلم ولا غـــدر
هم حفظوا الإل القديـــم وحالفـــوا أبـــاك دون قـــومك مـــن فهـــر

وقيل أن قيس بن عاصم المنقري جمع بنيه عند احتضاره وقال لهم[4]: «يا بني احفظوا عني فلا أحد لكم أنصح مني إذا أنا مت فسوّدوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم فتهون جميعا عليهم. وعليكم بحفظ المال، ففيه منة الكريم ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب الرجل». وغير ذلك من الوصايا التي اشتهر بها قس بن ساعدة الإيادي والأكثم بن صيفي.

جـــ-الأمثال والحكم: المثل في اللغة يعني الشبه والتسوية، فمثل الشيء بالشيء سواه وشبهه، ويعني أيضا النظير والصفة [5]. والمثل في الأدب قول موجز سائر صائب المعنى، تشبه

---

[1]-اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص236.

[2]-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص322.

[3]-ابن سعد: المصدر السابق، ص ص85-86.

[4]-أبو القاسم عبد الرحمن: المصدر السابق، ص21.

[5]-محمد إقبال عروي: من قضايا النقد القديم الحكمة والمثل المفهوم والعلاقة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع34،

به حالة حادثة بحالة سالفة، أما ضربه فيراد به إطلاقه واستعماله في الحالات المتعددة المشابهة لحالته الأولى مع المحافظة على صيغة المثل مهما تعددت استعمالاته سواء للمفرد أو الجمع[1].

وقد ضربت العرب المثل في البلاغة فقالت: أبلغ من قس بن ساعدة، وفي ذلك يقول الأعشى: وأبلغ من قس وأجرى من الذي بذي الغيل من خفان أصبح نادرا

وقالوا: إن العصا من العصية، وإن خشينا من أخشن، ومساعدة الخاطل تعد من الباطل، وخشين وأخشن هما جبلان وأحدهما أصغر من الآخر، والخاطل هو الجاهل، والمراد أن الأولاد يشبهون أباهم في جودة الرأي وغيره، وقالوا أيضا: أول الصيد فرع، والفرع هو أول ولد تنتجه الناقة، وكانوا يذبحونه لآلهتهم، ويضرب عند أول ما يرى من خير في زرع أو ضرع[2].

ومما قالوا في المجالسة والمنادمة، ما قاله الزبير بن عبد المطلب[3]:

إذا لم تدر ما الإنسان فانظر من الخدن المفاوض والوزير

الخدن هو الصاحب، ويضرب في اختيار الصديق والنديم.

أما الحكمة في اللغة فهي تطلق على عدة معاني منها: العلم، والإتقان والمنع[4]. ونظرا لتعدد هذه المعاني، فقد اختلف العلماء في تعريفها وتحديد ماهيتها على أقوال شتى تختلف ألفاظها، ولكن مدلولاتها متقاربة.

إن المراد بالحكمة هو تلك العبارة التجريدية التي تصيب المعنى الصحيح، وتعبر عن تجربة من تجارب الحياة أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة[5]. ومن أشهر الحكماء: أكثم بن صيفي الذي قال: آفة الرأي النسيان، الحسد داء ليس له دواء، لن يهلك امرؤ عرف قدر نفسه، خير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان بعد المقدرة[6].

وكان كلام قس أكثره حكم ومواعظ، فقد سأله قيصر عن أفضل العلم فأجابه: معرفة الرجل

جمعية الماجد، يوليو 2001، ص55.

[1]-عبد المجيد قطامش: الأمثال العربية، دراسة تحليلية، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988، ص5، خالد معرك: أضواء على بعض الأمثال في القرآن الكريم، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع8، جمعية الماجد، مارس 1995، ص5.

[2]-الميداني: المصدر السابق، ج1، ص ص25، 152.

[3]-كمال خليلي: معجم كنوز الأمثال والحكم العربية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1988، ص24.

[4]-عبد المجيد قطامش: المرجع السابق، ص16.

[5]-عبد المجيد قطامش: المرجع نفسه، ص18.

[6]-أبو طالب بن سلمة الظبي: المرجع السابق، ص229.

بنفسه، وسأله عن أفضل العقل فقال: وقوف المرء عند علمه، أما سؤاله له عن الأدب فقد أجاد وأجابه استبقاء الرجل ماء وجهه[1].

ثالثا: المعارف والعلوم: إن تأثر المكيين ببيئتهم ومحاولتهم للتأقلم معها مكنهم من اكتساب العديد من المعارف من أهمها:

1-الكهانة والعرافة: وهما كلمتان تكادان تترادفان، إلا أن من اللغويين من فرق بينهما على أن الكهانة هي علم إدراك الماضي، والعرافة علم إدراك المستقبل. وهذان العلمان قد ادعاهما الرجال والنساء على حد السواء، إلا أن العرب كانوا يعتقدون أن معرفة النساء بها أعمق وأخبارهن أصدق[2]، فآثروا الذهاب إليهن للفصل في خصوماتهم واستشارتهن فيما يريدون الإقدام عليه. ويذكر الإخباريون أن عبد المطلب عندما حفر زمزم –كما تقدم ذكره- ونازعته قريش فيها، احتكما في ذلك إلى كاهنة بني سعد، ومنهن أيضا فاطمة بنت مر الخثعمية، والزرقاء بنت زهير وغيرهن ممن تبوّأن مكانة مرموقة في المجتمع المكي[3].

2-القيافة: وهي اقتفاء الأثر عن طريق تتبع آثار الأقدام، حيث يذكر المسعودي أنه كان ببلاد الحجاز وهي بلاد الرمل، يوجد أناس يتناول الإنسان من تمرهم فيغيب عنهم فإن رأوه بعدها عرفوا أنه من أخذ تمرهم. كما كانت آثار الأقدام لا تخفى عليهم، فيتبعونها ويدركون خلالها من مر بذلك المكان، وحتى من أي بلد هو. فقد وقفت القافة بقريش حين خرج النبي ρ وأبو بكر τ إلى الغار حتى أتت بابه وهو على جبل صلب لا رمل عليه ولا طين، تتبين عليه آثار الأقدام[4].

3-علم النجوم: وللمكيين أيضا معرفة بمنازل النجوم واتجاهاتها، ومما يدل على سعة علمهم بها وبمواقعها هو تلك الأسماء التي أطلقوها عليهم للتمييز بينها، والتي من أهمها: السبها، الظباء، بنات نعش الكبرى والصغرى، الربع، الرابض، العوائد، الفرقد، الراعي، العبوق، الجديين وغيرها.

والحقيقة أنهم اكتسبوا هذا النوع من المعرفة بالتجربة والملاحظة، كما قادتهم إليها طبيعة حياتهم المتنقلة وبيئتهم الصحراوية، فهي كانت دليلهم في أسفارهم وأحوالهم حتى أنهم كانوا إذا

---

[1]-الشريشي: المرجع السابق، ص251.

[2]-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص101.

[3]-الأزرقي: المصدر السابق، ص37، محمد بيومي مهران: مركز المرأة، ص194.

[4]-المسعودي: مروج الذهب، ص ص149-150.

سألوا عن طريق ما قالوا: "عليك بنجم كذا وكذا"[1].

إضافة إلى ذلك، فقد كانت لهم معرفة واسعة بتقلبات بيئتهم، فكانوا يستدلون على نزول المطر أو تأخره بتقديرهم لاتجاهات الرياح، وقد وصف أحد شعرائهم تقلب البيئة في الحجاز ككل بقوله[2]:

رب إن الحجاز أجحفها الأزل فقد حل في ذويها الجلاء
رب إن السماء تضحي وتمسي فوقهـــا وردة حمـــراء
جمـــدت ريحها فلم يرى فيهـــا منذ حول سحابة هطلاء

4-الطـــب: كان الأطباء القدامى يداوون بما لهم من ذكاء وخبرة، من غير رجوع إلى قواعد ثابتة أو علم منظم، كما استفادوا من معرفتهم بعقاقير بلادهم، وكان أكثرها مستمدا من النباتات التي يستخلصون منها شرابا يعطونه للمريض بمجرد النظر إلى وجهه وجس يده، ويقول في ذلك عنترة[3]: يقول لك الطبيب دواؤك عندي إذا ما جس كفك والذراعات

وكانوا يطلقون على أطبائهم لفظ "الحكماء" لجمعهم بين العلم والتجربة وسداد الرأي، ومن أشهر أطبائهم: الحارث بن كلدة الثقافي[4]، والشمردل بن قباب الكعبي، وابن أبي رثل التميمي، ولم يعتمد المرضى فقط على الأطباء، بل لجؤوا أيضا إلى العرافين والكهنة الذين كانوا يكتبون لهم التمائم والرقى ليتطببوا بها[5].

المطلب الثاني: الأوضاع الدينية

يرى أكثر العلماء والباحثين القدامى أنه على الرغم أن أساس الدين[*] الفطرة وأساس

---

[1]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ج2، ص291.

[2]-الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص382، إبراهيم شريفي: المرجع السابق، ص23.

[3]-محمد شكري الذاكري: الطب في الجاهلية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع19، جمعية الماجد للتراث، نوفمبر 1999، ص40.

[4]-ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص13.

[5]-محمد فؤاد الذاكري: المرجع السابق، ص42.

[*]–الدين في اللغة من الفعل دان يدين ديانة، وهو العز والذل والعادة والعبادة والقهر والسلطان والخضوع والطاعة والجزاء، وهو اسم لكل ما يعتقد أن له علاقة بالعبادة والواقع أننا إذا نظرنا إلى اشتقاقه نرى هذا الاختلاف الظاهر تقاربا شديدا، فإذا قلنا دانه دينا أي جزاه، ومن قول خويلد بن نوفل الكلبي للحارث بن شمر الغساني حين تغتصبه ابنته:

يا أيها الملك المخوف أما تـــرى ليلا وصبحا كيف يختلفان
هل تستطيع الشمس أن تأتي بها ليلا وهل لك بالمليك يدان
يا جار أيقن أن ملكـــك زائـــل واعلم بأن كما تدين تـــدان

وإذا قلنا دان له أردنا أنه أطاعه وخضع له، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة. أما إذا قلت دان بالشيء كان معناه

الفطرة التوحيد[1]، إلا أنه توجد عوامل أخرى تؤثر في نشأة المعتقدات وتطورها منها ما هو متعلق بجغرافية المنطقة وأثرها على تكوين ذهنية المجتمع وطريقة تفكيره، ومنها ما هو متعلق بانتقال الأفكار بسبب احتكاكه بالمجتمعات المجاورة له[2].

لذلك كان لجغرافية مكة وقساوتها، إضافة إلى موقعها الذي مكنها من الاتصال بالأمم المجاورة لها، أثره على تكوين معتقدات المكيين وانتماءاتهم الدينية التي توزعت بين الحنفية والوثنية والنصرانية واليهودية، وهذا ما يدفعنا للتساؤل والبحث عن نشأة هذه المعتقدات وتطورها من جهة، وعن سر تعايش المنتمين إليها من جهة أخرى.

أولا: الحنفية: يبدو لي أنه قبل التطرق إلى المفهوم الديني لهذه اللفظة لابد من التعرف على معناها اللغوي.

الحنفية في اللغة مأخوذة من الحنف[*]، وهو الميل، ومنه الحنف في الرجلين بإقبال كل واحدة من الإبهامين على صاحبتها[**]، وقيل انقلاب القدم حتى يصبح بطنها ظهرها[1].

اتخذه دينا ومذهبا أي اعتقده واعتاده، فيكون معنى الدين بذلك المذهب والطريقة التي يسير عليها المرئ نظريا وعمليا.

انظر: ابن منظور: المصدر السابق، مج1، ص1044.

[1]-أحمد جمال العمري: الشعراء الحنفاء، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص39.

[2]-علي الدين محي الدين: عبادة الأرواح والقوى الخفية في المجتمع العربي الجاهلي، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، 1384، ص157.

[*]-وقد اختلف في أصل هذه الكلمة، فقيل أنها من أصل أراسي ومعناها الرباء، وأن العرب قد أخذوها منهم في حين ذهب فريق آخر للقول بأنها من أصل عبراني أطلقها اليهود الملتزمون على المتشفين منهم بسبب إلحادهم، وأنها مأخوذة من تحنوت العبرية التي تعني الصلوات والتي تقابل التحنث في العربية، قال ابن هشام أن هذه الأخيرة قد تكون منقلبة عن التحنف على عادة العرب في قلب الفاء شاء، ومقابلة التحنف بتحنوث مخالفة لأصول المنهج المقارن في علم اللغة لأن تحنوث جمع مفرده تحن، ومؤنثه تحنا وكلاهما بعيد من ناحية الصوت واللحن عن حنف لذلك نجد كلمة حنوفا هي الكلمة العبرية التي تقابل حنف العربية ومعناه –كما تقدم ذكره- الإلحاد أي الميل عن عقيدة سابقة إلى أخرى يعتقد أنها أصح.

انظر: أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص80.

[**]-وبه سمى الأحنف بن قيس التميمي المشهور بالحكم وبه يضرب به المثل، فيقال أحلم من الأحنف والأحنف اسمه وكنيته أبو بحر وكانت أمه ترقصه وهو صغير وتقول له والله لولا ضعفه من هزله أو حنف أو دقة في رجله ما كان من صبيانكم من مثله.

انظر: أبو القاسم الزجاج: الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د-ت، ص03.

أما الحنفية بمفهومها الديني، فقد ارتبط ذكرها بسيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، على اعتبار أنه أول من دعا إلى الميل عن الشرك، والعدول عنه إلى الإسلام، ولم يكن كما ادعى البعض يهوديا ولا نصرانيا بل حنيفا مسلما، كما جاء في قوله تعالى: [مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ][2]. فسمى إبراهيم υ حنيفا وأتباعه بالحنفاء الذين أقاموا شعائر العبادة التي تلقوها من ابنه إسماعيل υ وهي حج البيت وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والصيام كما تحلوا بمكارم الأخلاق فأكرموا الضيف وأحسنوا الجوار ووصلوا الأرحام[3]، ثم أن الزمن تقادم بينهم وبين من اتبعوا فنسوا ما عرفوا من الحق وعبدوا الأوثان والأصنام مع احتفاظهم ببقايا الحنفية القديمة، ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الكلبي[4] «...أنهم كانوا على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه إلا بعض ما احتفظوا به». عندها تغير معنى الحنفية عندهم، فأصبح يقتصر على أداء بعض الشعائر كالحج والختان والاغتسال من الجنابة، وبقوا على ذلك الاعتقاد إلى أن ظهرت جماعة منهم حوالي القرن 6م جددت عهدها بالماضي وسعت جاهدة في البحث عن الحنفية الحقة.

وقد اختلف المؤرخون المحدثون في التعريف بهذه الجماعة، حيث ذهب فريق منهم إلى القول بأنهم شيعة من شيع النصرانية، كيفوها فخلطوا فيها بعض التعاليم من غيرها وقد استدلوا على ذلك بتنصر بعضهم، أمثال ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وغيرهما[5].

في حين ذهب آخرون للقول بأنها جماعة صغيرة معاصرة لمحمد ρ لم تستطع التمييز بين اليهودية والمسيحية من جهة، ومعتقداتها الخاصة من جهة أخرى[6].

غير أن ما يؤخذ على هذين الرأيين هو إطلاقهم لأحكام مطلقة لا تستند إلى دليل قوي بخاصة أن أهل الأخبار قد فرقوا في روايتهم بين من اعتنق النصرانية أو اليهودية أو من بقي

---

(1)-أبو القاسم الزجاج: المصدر نفسه، ص3، عبد اللطيف زكي أبو هاشم: الحنفية ديانة إبراهيم، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع44، جمعية الماجد للثقافة، ذو القعدة 1424هـ-سبتمبر 2003م، ص7.

(2)-سورة آل عمران، الآية: 67.

(3)-أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص42. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج1، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1385هـ-1965م، ص61.

(4)-بن الكلبي: الأصنام، تح: أحمد زكي، الدار القومية، 1965، ص65.

(5)-أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص71.

(6)-محمد علي مختار: الحنفية والحنفاء، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، 1984، ص166.

على النصرانية، أضف إلى أن القرآن الكريم أصدق المصادر وأوثقها قد نص –كما تقدم ذكره- في الكثير من المواضع[*] على أن الحنفاء لم يكونوا يهودا أو نصارى بل كانوا على ملة أبيهم إبراهيم.

هذا ما يتعلق بمعنى الحنفية لغة، ومفهومها الديني ورأي المؤرخين فيها، أما بالنسبة للحنفية كعقيدة لها شعائر وطقوس فلابد من تتبع أخبار بعض ممثليها لمعرفتها، وقد اخترت لذلك دراسة نموذجين منهم عاشا في القرنين السادس والسابع (6 و7م) –فترة الدراسة-، هما زيد بن عمرو بن نفيل وعبد المطلب بن هشام.

1-زيد بن عمرو بن نفيل: هو زيد بن عمرو بن نفيل بن أسد بن عبد العربي بن رباح العدوي[1]، يمثل هذا الرجل الحنفية الحق، فهو لم يتهود أو يتنصر، وفارق دين قومه فاعتزل عبادة الأوثان فقال في ذلك:

أربـــا واحـــدا أم ألـــف رب أديـــن إذا تقسمـــت الأمـــور
تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلـــد الصبـــور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي ابني عمرو أزور
ولا أهبلا أدين وكان ربـــا لنا في الدهر إذ حلمي صغير[2].

وقد ذكر الأصبهاني أن زيدا كان لا يأكل الميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، وقد عاب على قومه فعل ذلك حيث كان يقول لهم[3]: «يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحونها لغيره، والله ما أعلم على ظهر الأرض على دين إبراهيم غيري».

وقيل أن النبي ρ قد لقيه مرة فقدّم إليه سفرة فيها لحما، فأبى أن يأكل منها وقال إني لا آكل

---

[*]–وقد ذكر ذلك في أربعة مواضع هي: سورة البقرة، الآية: 135، وسورة النحل،الآية: 120-123، وسورة الأنعام، الآية: 161. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الأندلس للطباعة، بيروت، لبنان، دت، ص625-704.

[1]-الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش وأخبارها، تح: محمود محمد شاكر، ج1، مطبعة الميداني، القاهرة، 1381هـ، ص417.

[2]-الزبير بن بكار: المصدر نفسه، ص418، ابن هشام: المصدر السابق، ص145، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص437، الأب جرجس، داود داود: أديان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي، ط2، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1408هـ-1988م، ص138.

[3]-الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص843.

إلا ما ذكر اسم الله عليه[1]. وكان زيدا إذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال ليتك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال، ثم يقول:

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهـو قـائم
أنفي لك عـان راغـم مهما تجشمني فإني جاشم[2].

ثم يسجد.

لم يكتف زيد بكل ما تصف به من خلال حميدة بل تطلع إلى ما هو أسمى، فخرج من مكة متدبرا باحثا عن الحنفية الحقة، فجال في بلاد الشام وسأل أحبارها ورهبانها عن الدين الذي يجنبه غضب الله، فأجابوه بأنه لا يكون إلا حنيفا، وبشروه بأنه سيخرج من بلده الذي خرج منه نبي فليتبعه، فلما سمع منهم قولهم في إبراهيم رفع يديه قائلا اللهم اشهد أني على دينه، وقفل مسرعا حتى إذا توسط بلاد جذّام عدوا عليه فقتلوه[3]. وقال حجر بن أبي إهاب أنه رآه وهو عائد من الشام، يراقب الشمس إذا زالت استقبل الكعبة وصلى ركعة ثم سجد سجدتين[4].

هذه هي بعض أخبار زيد بن عمرو فيما اتصل بطلبه للحنفية والتي تدلنا على إجابيته، حيث نجده بدأ بتغيير نفسه فامتنع عن شرب الخمر ولعب الميسر وأكل الميتة، ثم انتقل إلى إصلاح قومه بتقديم النصح لهم محاولا تغيير بعض عاداتهم الذميمة فكان يفدي الموؤودة ويتكفل برعايتها[5].

إن أهم ما يمكن أن نلمسه أيضا من خلال دراستنا لهذه الأخبار وتحليلها هو اجتهاد زيد في إيجاد حل لحيرته والرد على تساؤلاته مثل كيفية الصلاة والدليل على تلك قوله[6]: «اللهم لو أعلم أي الوجود أحب إليك سجدت إليه، ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحته».

وإذا كان زيد قد اهتدى بفطرته للإجابة عن بعض تساؤلاته، فإن كثرة تفكيره وتدبره في

---

(1)-البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، ج5، ص50، أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص102.

(2)-الأصبهاني: المصدر السابق، ص844، أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص104.

(3)-البخاري: المصدر السابق، ص51، ابن هشام: المصدر السابق، ص148، أحمد جمال العمري: المرجع السابق، ص105.

(4)-بن سعد: المصدر السابق، ج3، ص276.

(5)-البخاري: المصدر السابق، ص51، محمد علام مختار: المرجع السابق، ص170.

(6)-ابن هشام: المصدر السابق، ص145، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص171، رؤوف شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دت، ص34.

خلق الله مكنه من إدراك قدرة الله Y التي قال عنها[1]:

أسلمت وجهي لمن أسلمـــت له المزن تحمل عذبـــا زلالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدهـــا سواء وأرسى عليهـــا الجبالا.

وفي ختام حديثي عن زيد رأيت أن أذكر شخصية شبيهة به في نضاله ومواجهته للوثنية هو قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب بسوق عكاظ والذي أبدى الرسول ρ إعجابه بخطاب له هاجم فيه دين العرب، قال فيه[2]: «أقسم قس قسما لا ريب فيه، أنه لله دينا هو أرض من دينكم هذا».

2-عبد المطلب بن هاشم: وهو عبد المطلب[*] بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، زعيم قريش وسيد مكة[3]، ذكر الإخباريون أنه صاحب عقيد وأريحة ووسامة، عرف بالنبل والكرم والهمة والوفاء، حيث برزت كل هذه السجايا والخلال في حادثة تاريخية مشهورة.

وقد ذكر الأزرقي أول واحدة منها أثناء غزو أبرهة لمكة، وموقف عبد المطلب صاحب العقيدة الراسخة منها وما قاله لرسول أبرهة عندما أتى للبحث عن زعيم مكة: «...والله ما نريد حربه، هذا بيت الله وبيت حبيبه إبراهيم υ، فإن يشأ منع بيته وحرمه، وإن لم يشأ تخلى عنه».

والأغرب من ذلك ما أجاب به أبرهة عندما حاول استفزازه بقوله[4]: «...أتسأل عن العير وتترك البيت الذي هو دين آبائك» فرد عليه قائلا: «أنا رب إبلي وللبيت ربا يحميه».

إن رفض عبد المطلب استجداء الرحمة من أبرهة وإسراعه إلى الكعبة وتذلّله إلى ربه وطلبه العون منه بقوله:

---

[1]-الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص847، عبد اللطيف زكي أبو هاشم: المرجع السابق، ص23.

[2]-حسني عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع في العصر الجاهلي، مكتبة النهضة، القاهرة، دت، ص34، محمد علي مختار: المرجع السابق، ص171.

[*]–سمي بذلك لأنه كان بالمدينة عند أخواله بني النجار، فقدم له عمه المطلب بن عبد مناف ودخل به بمكة وهو خلفه فسألوه عنه فقال عبد المطلب، فلزمه الاسم وغلب عليه أما اسمه الحقيقي هو عامر ولقبوه بشبية الحمد. انظر: ابن قتيبة: المعارف، ص71.

[3]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص16، ابن حزم: المصدر السابق، ص12، أبو محمد عبد الله بن سعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مج1، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ-1993م، ص19.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ج2، ص192.

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عـــاداكا فامنعهم أن يخربوا حماكا

وجدد عبد المطلب بذلك ثقته بالله وإيمانه بقدرته على حماية بيت الله وأهله، وذكر الشهرستاني أن عبد المطلب يستمد نور الإيمان بالحنفية من جده إبراهيم U وأنه ببركة ذلك النور حدثت له كرامات كثيرة نذكر منها: تلك الرؤيا التي مكنته من الكشف عن بئر زمزم وإعادة حفره، إضافة إلى المكانة التي تبوأها بين قومه الذين جعلوا منه حكما بينهم في تخاصمهم، لعدله ودقة نظره، فقد كان يوصي أهله وقومه بالعدل، لأنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة، وأن وراء هذه الدار دار يجري فيها المحسن بإحسانه ويعاقب فيها المسيء بإساءته[1].

ومما يدل على اعترافه بالمبدأ أو المعاد، أنه كان يضرب بالقداح على دينه عبد الله وهو يقول:

يـــا رب أنت المحمـــود
وأنت المبـــدئ والمعيـــد
من عندك الطارق والتليد

وفي حديث لصفية لدة عبد المطلب أنها لما أصباهم القحط سمعت في منامها هاتفا يقول: «...ألا أنظروا رجلا من أوسطكم نسبا طوالا عظاما أبيضا، مقرون الحاجبين، أهدب الأشفار جعدا سهل الخدين رقيق العرينين فليخرج هو وولده وليعلق إليه من كل بطن رجل إلا فليشنوا من الماء وليمسوا من الطيب ويستلموا الركن فيطوفوا سبعا ثم ليرققوا أبا قبيس ألا فيهم الطيب الطاهر فليستسق وليؤمن القوم» فلما أصبحت وقصت رؤياها عليهم، وجدوا أن هذه الصفة هي صفة عبد المطلب فاجتمعوا إليه وفعلوا مثل ما رأت فرفع عبد المطلب يديه وقال: «اللهم هؤلاء عبيدك وإيماؤك يشكون إليك سنتهم، فاسمعنا اللهم وأمطر علينا غيثا مربعا مغدقا» فما برحوا حتى سالت الأودية وفي ذلك تقول رقيقة[*] بنت أبي صيفي[2]:

بشيبـــــة أسقـــــى الله بلدتنـــا وقد فقدنا الحيا وأجلود المطر

---

[1]-الشهرستاني: الملل والنحل، ج3، المطبعة الأزهرية، 1951، ص85.

[*]–رقيقة تصغير رقة وهي كل أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء أيام المد، ثم ينضب فتكون مكرمة للنباتات، نستنتج من هذه التسمية مدى تأثر المكيين ببيئتهم من خلال اختيار أسماء أبنائهم. انظر: ابن الأثير مجد الدين: المصدر السابق، ص202.

[2]-ابن سعد: المصدر السابق، ص90، ابن الأثير عزالدين: المصدر السابق، ص203.

فجاد بالمـــاء جوني لـــه سبـــل دان فغاشت به الأنعام والشجر
مبارك الوجه يستسقى الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطر.

ومن خلال دراستنا لهذين الشخصين يمكننا أن نستنتج ما يلي:

1-إذا كانت حيرة زيد قد دفعته إلى مواجهة قومه واعتزالهم بالخروج بحثا عن دين إبراهيم، فإن عبد المطلب قد اتبع أسلوبا آخر في دعوته دون الجهر بعدائه لهم فقد رأينا اهتمامه بشؤونهم رغم وثنيتهم فاكتسب بذلك احترامهم ولقبوه بأبي البطحاء.

2-إنه رغم الغموض الذي اكتنف جوانبه عدة من حياتهما فقد ساهما في إعطاء صورة واضحة عن انتشار الحنفية بمفهومها الصحيح بين أفراد المجتمع المكي على اختلاف طبقاته حيث استطاع كل واحد مهما تحديد الاتجاه العقدي الذي ينتمي إليه.

ثانيا: الوثنية: جاء في تعريف علماء اللغة للوثنية أنها أطلقت على الدين الذي اتخذه العرب من دون الله وهو عبادة الأصنام، وبناء على ذلك فقد ارتأيت أن أعرف كل من الوثن والصنم.

ذكر ابن دريد أن الصنم(*) هو صورة من حجارة أو حديد شريطة أن تكون تجسيدا لجثة[1]، في حين قال آخرون لأنه ما كان فقط من حجر أو معدن[2].

أما لفظ الوثن(**) فقد عرفه السهيلي على أنه صورة من معدن كالنحاس وغيره، وقيل أيضا أنه كل ما اتخذ للعبادة من آلهة ولم تكن له صورة[3]

إن الدارس لهذه الآراء يلاحظ تباينها، فمنهم من جعل الصنم مرادفا للوثن، ومنهم من فرق بينهما، ومنهم من جعل الصنم وثنا والوثن صنما، والظاهر أن مرد هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف استعمال القبائل لها، فلما جمع علماء اللغة معانيها وقع الاختلاف [4].

(*)-قيل أن هذه اللفظة ليست عربية الأصل، بل معربة من شنم، وأنها وردت في نصوص المسند باسم صلمن، بمعنى صنم، وفي اللغة الأرامية صلامو بمعنى الصورة. انظر: جورجس داود داود: المرجع السابق، ص290.

(1)-المصدر السابق، ج1، ص899، ابن الكلبي: الأصنام، ص53.

(2)-السهيلي: المصدر السابق، ص62.

(**)-وأطلق الأعشى على الصليب الوثن في قوله: تطـــوف العفـــاة بأبوابـــه كطواف النصارى ببيت الوثن
انظر: جواد علي: المرجع السابق، ج6، ص74.

(3)-السهيلي: المصدر السابق، ص63.

(4)-جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ط2، دامعة بغداد، 1413هـ-1993م، ص74.

انطلاقا مما سبق ذكره عن الحنفية وأتباعها، ندرك أنه لم يكن للمكيين إله واحد يعبدونه، بل كان لهم العديد من الآلهة التي صنعوها بأيديهم ثم عبدوها خوفا أو طمعا. ومن مظاهر تعلقهم بها أنهم كانوا يستشيرونها إذا هموا بفعل أمر ويحلفون بها تأكيدا على إيمانهم بها، فيقولون: واللات والعزى(***)، ثم يذكرون ما أرادوا تأكيده[1]. بل أكثر من ذلك، فقد سموا أبناءهم بها تيمنا وتبركا، قال قصي بن كلاب: ولد لي خمسة أبناء سميت بعضهم بآلهتي وواحد بداري، وآخر بي هم: عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وعبد بن قصي، ولعل الذي سلخ بهم إلى عبادتها ما ذكره ابن الكلبي بأنه لم يكن يضعن من مكة ضاعن إلا احتمل معه حجر من حجارة الحرم تعظيما له، وحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها، وهم يومئذ على إرث أبيه إبراهيم، وبمرور الزمن نسوا ما كانوا عليه، وعبدوا ما استحسنوا منها، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم كقوم نوح ﷺ.

أما السبب الثاني في نظره، فيتعلق بمرض عمرو بن لحية، وذهابه إلى البلقاء من أرض الشام يستشفي في إحدى حماماتها، فوجد أهلها يعبدون الأصنام، فسألهم أن يعطوه واحدا منها، فأجابوا طلبه، وأعطوه صنما يقال له هبل، قدم به مكة ونصبه حول الكعبة، وأمر الناس بعبادته، ففعلوا[2]، فهو أول من غير دين إبراهيم، فسيب السائبة(*)وبحر البحيرة(**)، ووصل الوصيلة(***)،

(***) –وقد أقسم زهير كذلك بالبيت في قوله: فأقسمت بالبيت الذي كاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
انظر: أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب، دار بيروت للطباعة، 1980، ص106.

[1]-Encyclopédie de l'Islam, E.K, p829.

[2]-ابن الكلبي: الأصنام، ص97، ابن هشام: المصدر السابق، ص51، الأزرقي: المصدر السابق، ص86، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص214، عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص250.

(*)- هي فاعلة من سيبته أي تركته، فهو سائب وسائبة، واختلف فيها فقيل: هي الناقة تبطن عشر أبطن، فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف. وقيل هي التي يسيبونها لآلهتهم، والأرجح في نظري هو القول الثاني، لأني وجدت في نذر نذره الرجل إذا قدم من سفر أو حرب، ونجت دابته قال هي سائبة. انظر: ابن هشام، المصدر السابق، ص57، نشوان بن سعيد الحميري: المصدر السابق، ص437.

(**)- هي فعيلة بمعنى مفعولة من البحر، وهو الشق، وقد اختلف فيها هي الأخرى، فقيل: هي من أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر، فبحروا أذنها وشققوها، وامتنعوا من نحرها وركوبها، وقيل: البحيرة هي بنت السائبة. انظر: ابن هشام: المصدر السابق، ص57، نشوان بن سعيد: المصدر السابق، ص437، الألوسي: المرجع السابق، ج3، 36.

(***)- وهي أيضا فعيلة لكن بمعنى فاعلة، وقد اختلف فيها فقيل: الشاة التي تنتج عشرة إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، قالوا قد وصلت أخاها، فما ولدت بعد ذلك من الذكور فهو خالص لذكورهم دون إناثهم إلا أن

وحمى الحامي(****)، وقال الرسول ρ: «لقد رأيت عمرو بن يحيى أبو خزاعة يجر قصبه في النار»[1]. إذا كان النص الأول قد جعل من التوحيد عقيدة المكيين الأولى، وأن الوثنية طارئة عليهم، فإن وصولهم إليها كان بمحض اختيارهم، وما قوله بأنهم عبدوا ما استحسنوا من الحجارة إلا دليلا على اختيارهم.

أما النص الثاني الذي حمل كل المسؤولية إلى عمرو بن لحية، واعتبره أول من غير دين إبراهيم، فهناك نص آخر ذكر فيه أن أول من فعل ذلك هو هذيل بن مدركة، وسواء أكان هذا الأخير أو عمرو فإنه في اعتقادي أن الأمر لا يتعلق بمجرد أمر لشخص مهما كانت مكانته السياسية والاجتماعية ما لم تكن هناك بدايات وخلفيات تمكنهم من تقبل العقيدة الجديدة، لأن الاعتقاد بالشيء والإيمان به يتطلب تفكيرا عميقا، كما أنه يستغرق وقتا، لذلك فمن الممكن أن تكون هذه الخلفية هي ما ذكره ابن الكلبي في نصه الأول، في حين يتحول النص الثاني كسبب لتطور عبادة الأصنام لتعرضها لتأثيرات جديدة، بإدخال أصنام جديدة جيدة الصنع.

ومع ذلك فإن تعظيم المكيين للكعبة لم يكن تعظيم عبادة لها، فقد اقتصرت وظيفتها بالنسبة لهم على عبادة الله فيها، والتوجه إليه إذا انتابتهم كارثة كما فعل عبد المطلب عندما قدم أبرهة لهدمها، حيث أخذ بحلقة بابها ودعا الله أن يحميها.

ولم يكن المكيون وحدهم من اتخذها معبدا، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأمم القديمة، غير أن تقديسهم لها لم يتجاوز حقيقتها الإبراهيمية، رغم ما أدخل عليها من تحريفات داخليا وخارجيا مثل: وضع صورة المسيح وأمه العذراء، وصورة إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام داخلها[2].

ونظرا لهذه المكانة التي تبوأتها الكعبة في مكة وخارجها، فقد عنا قصي بتنظيم أمورها، فأمر قومه بسقاية الحاج ورفادته، وأشرف بنفسه على أداء الشعائر والطقوس أيام الحج، فهو من بنى المشعل بالمزدلفة كي توقد عليه النار فيهتدى به من يقفون بعرفات، إذا انصرفوا من المزدلفة،

يموت منها شيء، فيشتركون في أكله، وقيل هي الشاة التي تنتج سبعة أبطن آخرها ذكر وأنثى. انظر: ابن هشام: المصدر السابق، ص58، ابن دريد: المصدر السابق، ج1، ص899.

(****)-فهو فاعل من الحمي، بمعنى المنع، وقيل: هو الفحل الذي يولد له عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى. انظر: ابن هشام: المصدر السابق، ص58، الألوسي: المرجع السابق، ج3، ص38.

[1]-البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير، ج4، ص58.

[2]-عبد القدوس الأنصاري: المرجع السابق، ص132. البخاري: صحيح البخاري، كتاب بدأ الخلق، باب: قوله تعالى: «واتخذ الله إبراهيم خليلا»، ج4، ص129.

على الرغم من أن قريشا وحلفائها من الحمس[*] لم يكونوا يقفون بعرفات، وقد ذكر ذلك العامري في شعره: فأقسموا بالذي حجت قريش وموقف ذي الحجيج إلى إلال.

وإلال جبل بعرفات[1]، وقد ذكر ابن سعد الحمس فقال: أنهم كانوا لا يسلؤون السمن ولا ينتجعون خيم الشعر والوبر، بل كانوا يتخذون القباب الحمر من الأدم، وشرعوا لمن قدم من الحاج أن لا يطوفوا بالبيت إلا في ثياب أحمسية، وإن لم يجدوها طافوا عراة[*]، أما إذا طافوا في ثيابهم فلا يحل لهم لبسها بعد ذلك. أما بالنسبة لكيفية طوافهم فقد ذكر ابن حبيب أنهم كانوا يطوفون بالبيت أسبوعا، ويمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروة، وكان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة. أما التلبية فكانت لكل قبيلة تلبيتها الخاصة بها حسب الصنم الذي ينسكون إليه، فكانت تلبية من نسك من قريش للعزى لبيك اللهم لبيك، لبيك لك لا شريك إلا شريكا تملكه وما ملك، لبيك وسعديك ما أحبنا إليك[2]، فيبدءون بتوحيده، ثم يشركون معه أصنامهم.

على الرغم من أن المكيين قد حافظوا على بعض بقايا الديانة الحنفية من احترام للكعبة والحج والعمرة لها، فقد عبدوا الكثير من الأصنام التي سنأتي على ذكر أهمها بشيء من التفصيل:

هبل: وهو الصنم الذي أتى عمرو بن لحية –كما سبق وأشرنا- من الشام، وكان على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى حتى أدركته قريش، فجعلت له يدا من ذهب، وكانت له خزانة للقربان، وحاجب وسبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح، فكانوا إذا جاءوا إليه

---

[*]–وهو التشدد في الدين، وقيل أنه الشجاعة، يقال: رجل أحمس أي شجاع، وسميت قريش بذلك لأنهم حمصوا خزاعة وكنانة وجديلة وقيس وثقيف، فدانوا لهم، وقد اختلف في سبب تسميتهم بذلك، سموا بالكعبة لأنها حمصاء، حجرها الأبيض يميل إلى السواد، وقيل لشدتهم في دينهم، وقيل لشجاعتهم، والظاهر أنهم سموا بذلك لتشددهم، كما تدل عليه أشعارهم، قال شاعرهم سلامة بن جندل:

من الحمس إذ جاءوا إلينا بجمعهم غداة لقيناهم بجأواء فيلق

انظر: ابن هشام: المصدر السابق، ص128. الأصمعي: الأصمعيات، تح: أحمد محمد شكري، عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، د-ت، ص149. الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص170.

[1]-أبو جعفر محمد: المصدر السابق، ص319، ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ص515.

Fransesco Gabrieli : Op-cit, p36.

[*]–وكانت المرأة تطوف في ذرع المفرج المقاديم والمآخير، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص214.

[2]-ابن سعد: المصدر السابق، ص72، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص311، محمد إبراهيم فيومي: مرجع سابق، ص410.

بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا:

أنـــا اختلفنـــا فهـــب السراحـــا ثلاثة يا هبل انفصاحا الميت والعذرة والنكاحا
والبـــرء فـــــي المرضـــى والصحاحا إن لم تقل فمـــــــــر القداحـــــا

وكانت تلبية من نسك إليه لبيك اللهم لبيك إننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح، يحسدنا الناس على النجاح[1]. ويمكن أن نستنتج من هذه التلبية أن هبلا قد يكون إله للحرب، أما الصنم الثاني المشهور عند المكيين هو اللات.

اللات: وهو اسم لآلهة أنثى[*]، تمثل فصل الصيف، وللات أسطورة تنفي أنوثتها، تقول: بأنها رجل من ثقيف كان يلت السويق للحاج على صخرة تسمى باسمه، فلما مات الرجل أشاع عمرو بن لحيى أنه قد دخل فيها، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتا يسمى اللات، وذكر ابن حبب أن اللات بيت لثقيف بالطائف على صخرة مربعة الشكل، كانوا يسيرون إليه ويضاهون به الكعبة وله حجبة وسدنة، ذكر ابن الكلبي أنهم بنوا عتاب بن مالك، وأن قريشا كانت تعظمها[2]، لذلك لا يستبعد أن تكون اللات من بقايا الوثنية البدائية، لأنها عبارة عن حجر، لكن الاعتقاد بوجود روح فيها وبناء بيت يحيط بها هو الذي جعل عبادتها تتطور وأصبحت تسمى كعبة الطائف، وهي في نظر أهلها تضاهي كعبة مكة.

العزى: وهي أحدث من اللات ومناة، روى ابن الكلبي أنها كانت بواد نخلة شامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أمكيال، كانت العزى رمز الشتاء في قول عمرو بن لحية «...بأن ربهم كان يتصيف باللات لبرد الطائف، ويشتو بالعزى لحر تهامة». ثم أصبحت العزى آلهة الخصب والنماء حينما قامت على ثلاث شجيرات في نخلة، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء، وكان لها منحر ينحرون عنده يقال له الغبغب، وكانت قريش

---

[1]-ابن الكلبي: الأصنام، ص19، الأزرقي: المصدر السابق، ص89، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص318، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص423. Fransesco Gabrieli, Op-cit, p37.

[*]–وهي أيضا اسم لآلهة تمثل فصل الصيف عند البابليين تسمى اللاتو، وعند الأنبار هي آلهة الشمس، ولعل هذا التشابه في الأسماء يعود إلى أن البابليين في الأصل هم أقوام ساميين، هاجروا من شبه الجزيرة واستقروا بشمال العراق. انظر: سلطان المعاني: في حياة العرب الدينية قبل الإسلام من خلال النقوش، مجلة دراسات تاريخية، ع47 جامعة دمشق، 1993م، ص95.

[2]-ابن الكلبي: الأصنام، ص 16، الأزرقي: المصدر السابق، ص95، الفاسي: شفاء الغرام، ص473.
Lammens : Les sanctuaires préislamites, p68, L'arabie occidentale avant l'Hégire, imprimerie catholique, Beyrouth, 1928, p107. Fransesco Gabrieli, Op-cit, p35.

تخصها بالعبادة فتطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، إنهن الغرانيق(**) العلا، وإن شفاعتهن لترتجى[1].

مناة: وهي أقدم من اللات والعزى، وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله: [أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى][2]. أمال تسميتها بمناة فيرى البعض أنها مشتقة من المنية وهو القدر، وقد ذكر الأزرقي أنها كانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، يعبدها الأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم من أهل يثرب والشام، فكانوا إذا طافوا بالبيت وأفاضوا بعرفات لم يحلقوا إلا عند مناة، ومن أهل عندها لم يطف بين الصفا والمروة لوجود إساف ونائلة بينهما[3].

إساف ونائلة: وهما اسمان لرجل وامرأة من جرهم، بغيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين، فأخرجا من الكعبة ونصب واحد منهما على الصفا والآخر على المروة لعتبر الناس بهما، فلما كان عمرو بن لحية أمر الناس بعبادتهما، والتمسح بهما[4].

ثالثا: المسيحية: قد تلقت مكة إضافة إلى تقاليد الوثنية تقاليد ديانتي التوحيد، فقد هاجرت جماعات من المسيحيين إلى الحجاز، وبالضبط إلى مكة، مما دفع بعض أهلها إلى اعتناقها، حيث يذكر المؤرخ بيومي مهران أن نزول سورة مريم التي تتحدث عن ولادة المسيح υ، وإنكار ألوهيته على الرسول ρ تؤكد وجود أتباع للمسيح فيها[5]. ويؤكد ذلك أيضا ما رواه الإخباريون

(**)-وهي في الأصل الذكور من الطير، واحدها غرنوق، وقيل شبهت به لعلوها، وارتفاعها في السماء على زعمهم. انظر: الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص204.

(1)-ابن الكلبي: الأصنام، ص17، ابن هشام: المصدر السابق، ص54.

Lammens : Les sanctuaires préislamites, p68, L'arabie occidentale, p121, Fransesco Gabrieli, Op-cit, p35.

(2)-سورة النجم، الآيات: 19-21.

(3)-الأزرقي: المصدر السابق، ص96، ابن هشام: المصدر السابق، ص55، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص474، الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص203.

Lammens : Les sanctuaires préislamites, p80, L'arabie occidentale, p120, Fransesco Gabrieli, Op-cit, p35.

(4)-الأزرقي: المصدر السابق، ص90، أبو جعفر محمد: المصدر السابق، ص311.

Fransesco Gabrieli, Op-cit, p37.

(5)-بيومي مهران: الحضارة العربية، ص422.

وبعض المستشرقين عن الحنفاء الذين تنصروا أمثال ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث[1].

ذكر مصعب الزبيري أن ورقة بن نوفل بن أسد بن أبي عبد العزى بن قصي، كان ممن كره عبادة الأوثان، وقرأ الكتب، فتنصر، وهو الذي كان يقول لقومه[2]:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدوا إله غير خالقكم ... فإن أبيتوا فقولوا بيننا حُدَدُ
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله ... رب البرية فرد واحد صمد
مسخر كل من تحت السماء له ... لا ينبغي أن يساوي ملكه أحد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ أدنى الشعوب به ... الجن والإنس تجري بينها البرد

يبدو من دراستي لهذه القصيدة أنه ما من دليل فيها على تنصر ورقة، فهو لم يأت على ذكر المسيح أو الصليب، ولا على أي شيء يدل عليهما، بل ركز على توحيد الألوهية والربوبية في قوله: «لا تعبدوا إلها غير خالقكم» و«ورب البرية فرد واحد صمد»، ونحن نعلم أن النصارى كانوا يعتقدون بالتثليث الله، الأب والروح القدس. أما باقي القصيدة، فهي تدل على سعة علم ورقة بالأمم القديمة، مثل قوم عاد وسليمان.

إن معرفة ورقة بما جاء في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، لا يثبت نصرانيته أو عبرانيته، كما أنه لا ينفي إيمانه بما جاء فيه حول دين الحق غير المحرف، غير أن هذا لا يعني عدم وجود أتباع للمسيح من أهل مكة. فقد ذكر لامنس أن بعضا من الأحباش المسيحيين كانوا يقطنون مكة، بالإضافة إلى تحدثهم عن علاقات بين نصارى نجران وتجار مكة باعتبار أن نجران هي أكبر مركز تجاري، ومعقل للنصارى في الطريق إلى اليمن[3].

رابعا: اليهودية: أما اليهودية فقد كانت منتشرة أكثر في يثرب وخيبر وتيماء، ومع ذلك فيوجد بعض الأفراد منهم في مكة، نتيجة العلاقات التجارية التي تربط مكة بيثرب وغيرها من

---

[1]-Lammens: L'arabie occidentale avant l'Hégire, imprimerie catholique, Beyrouth, 1928, p09.

[2]-المصدر السابق، ص108، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص171، الأصبهاني: المصدر السابق، ج2، ص841، مسلم القشري: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ρ، مج1، ص202.

[3]-Lammens : L'arabie occidentale, pp16-17.

مراكز اليهود في الحجاز[1]، ويرى لامنس بأن قلة اليهود في مكة تعود إلى عدم وجود معبد فيها[2]، أما سبتيمو موسكاتي، فقد أرجع ذلك إلى تقوقع اليهود وعدم تبشيرهم بدينهم[3].

يبدو أن تعدد انتماءات المكيين القدامى الدينية بين الحنفية والوثنية والنصرانية واليهودية، إضافة إلى تعددها داخل دائرة الديانة الواحدة من خلال تعدد أصنامهم، واختلاف طقوسهم التي يؤدونها لها، إلا أنها لم تتسبب في إثارة نزاعات بينهم إلا نادرا. كما في حالة زيد بن عمرو بن نفيل الذي استاءت منه قريش ومنعته من دخول مكة حتى لا يفسد عليها دينها. حيث يظهر من غربلة الأخبار والأشعار المتصلة بدعوة زيد إلى الحنفية أنه لم يتعرض للاضطهاد إلا بعد إعلانه لاعتزال الأوثان، وطلبه من قومه أن يشاركوه في فعله. وما يؤكد ذلك أن قريشا لم تضطهد ورقة أو عبد المطلب لأنهما اكتفيا بإعراضهما عن الشرك دون أن يصرح بكرههما لآلهة قريش.

لقد كان التسامح الديني سمة رئيسية للعلاقات بين المنتمين إلى مختلف الديانات في مكة مادامت كل طائفة منهم تحترم الأخرى. وما حجهم جميعا إلى الكعبة وإيمانهم بالله الواحد كخالق للكون، وما جلب قريش لمعظم أصنام العرب إلى مكة ونصبها حول الكعبة تعظيما وتقديسا لها إلا مظهرين رئيسيين للتقارب الفكري بينهم.

---

[1]-دراع الطاهر: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام من خلال المصادر العربية والكتب السماوية، ماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية، 1990-1991م، ص107.

[2]-Lammens : Ibid, p54.

[3]-سبتيمو موسكاتي: مرجع سابق، ص207.

الفصل الثالث:

علاقات مكة بالحواضر الحجازية والقبائل والدول المجاورة

المبحث الأول: علاقة مكة مع الحواضر الحجازية والقبائل

المبحث الثاني: علاقات مكـــة بالـــدول المجـــاورة

بعد دراستنا لمختلف الأوضاع بمكة يمكننا القول بأن طبيعة المجتمع المكي هي انعكاس لتأثره ببيئة وما يسودها من المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من جهة، وبمفاهيم وعادات وتقاليد وطرائق الأمم المجاورة له من جهة أخرى.

لأن المجتمع حينما يعكس على الأفراد مفاهيمه وعاداته وعلاقاته على أفراده فيما بينهم فهو يحافظ على بنائه بوصفه مجتمعا متماسكا قابلا للتطور مؤهلا للقيام بعلاقات مع مجتمعات أخرى مجاورة له وهذا ما سنحاول التطرق له في المباحث الآتية من هذا الفصل:

المبحث الأول: علاقة مكة مع الحواضر الحجازية والقبائل

سنتناول فيه مختلف العلاقات بجميع أنواعها، التي جمعت مكة بأشهر الحواضر الحجازية مثل يثرب والطائف، ومعظم القبائل العربية الضاربة على طول الطرق التجارية في المنطقة.

المطلب الأول: علاقات مكة مع يثرب

قبل أن نتحدث عن علاقة مكة مع يثرب يجدر بنا التعرف على هذه الأخيرة، وذلك حتى يتسنى لنا معرفة نوعية العلاقات التي تربطهما.

تقع مدينة يثرب شمال مكة على بعد نحو 500كلم في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات[1]، في حرة سبخة الأرض، كثيرة المياه والشجر، وأقرب الجبال إليها جبل أحد في شمالها ويقع جبل عير في جنوبها الغربي وهو اسم لجبلين أحمرين متقاربين يقعان ببطن وادي العقيق أحدهما عير الوارد والآخر عير صادر، وإلى الشرق من يثرب يوجد بقيع الغرقد إلى الجنوب. وإلى الجنوب منه قرية قباء ثم نجد قرية الفرع التي تقع على الطريق المؤدية إلى مكة[2].

ووادي العقيق[*] الذي يبعد عنها من حيث الغرب بنحو ثماني كيلومترات (8 كلم)، وهو من أخصب المناطق بيثرب، توجد به غابات كثيفة[3].

ومن وديان المدينة الأخرى: "وادي بطحان" الذي يقع إلى الغرب منها، و"واد رانون" الذي

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص334.

[2]-الإصطخري: المصدر السابق، ص23. الأصفهاني: المصدر السابق، ص35.

[*]-والعقيق مجموعة أعقة، أي أودية شقتها السيول، أحدها عقيق المدينة وهو العقيق الأصغر وفيه بئر رمة إلى الشمال الشرقي من يثرب على مسيرة ساعة منها. انظر: ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج4، ص139. الأصفهاني: المصدر السابق، ص81.

[3]-ابن حوقل: المصدر السابق، ص38. البكري: المصدر السابق، ص327.

ينبع من "جبل عير" قبلي لمدينة ويمر بقباء ثم يختلط بـــ"وادي بطحان"، و"وادي مذينيب" الذي يوجد في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، و"وادي قناة" ويقع إلى الشمال الشرقي ويأتي من الحرة الشرقية حرة واقم. وتوجد بالعقيق عرصتان هما "عرصة البقل" و"عرصة الماء"، وثلاثة جماوات هي "جماء تضارع" و"جماء أم خالد" و"جماء العاقر".

وتضم الحاضرة أيضا ثلاث حرات هي: "حرة واقم" في الشرق، و"حرة وبرة" في الغرب و"حرة قباء" في الجنوب، و"حرة شوران"، وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق لمن يريد مكة إضافة إلى "حرة ليلى" التي كان يطؤها الحجاج في طريقهم إلى يثرب، وهي لبني مرة بن عوف بن ذبيان[1].

أما مناخها فهو شبيه بمناخ مكة، تشتد فيه الحرارة في فصل الصيف وتنخفض أكثر في فصل الشتاء، الذي تسقط فيه الأمطار بكثرة فتتسبب في حدوث سيول في كثير من الأحيان، ومع ذلك فهو معتدل بوجه عام. وقد دفع ذلك المناخ، بالإضافة إلى توافر المياه وخصوبة التربة سكانها إلى ممارسة الزراعة، التي تقوم أساسا على زراعة النخيل، والشعير والقمح، وعلى الفواكه مثل العنب والرّمان والموز وغيرها[2].

وقد كانت يثرب موضعا معروفا منذ القديم بأسماء كثيرة منها: إن أسماء المواقع المشتقة من الجذر ثرب، وقريبه ترب[*]، كثيرة جدا، ولعل الموضع الذي يأخذ اسمه من ثرب بالتاء المنقوطة أقدم عهدا من الموضع الذي يأخذ اسمه من ثرب.

ويبدو أن اسم المدينة هو "يثرب" وهو أقدم من "يترب"، ولكن أثرب أقدم بكثير منهما[3].

أما سكانها فقد اختلف الإخباريون حول أصلهم فمنهم من قال أنها: كانت تسكنها قبيلة العماليق، حيث يذكر البلاذري أنه لما هدم بختنصر بيت المقدس وقام بسبي أهلها من بني إسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز، فنزلوا وادي القرى وتيماء ويثرب، وكان يسكن بيثرب يومئذ قوم من

---

[1]-الأصفهاني: المصدر السابق، ص15. عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص338.

[2]-ابن حوقل: المصدر السابق، ص37. الزهري: المصدر السابق، ص36.

[*]-وكثيرا ما أطلقت هذه التسمية على مواقع مختلفة منها: تريبنة، وترابة، موضعان في اليمن، وتربان وادي بين الحفير والمدينة، وثربان حصن في اليمن، وأثارب قرية في حلب. أما يترب فموضع قرب اليمامة. انظر: عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص116.

[3]-عمر فروخ: المرجع نفسه، ص116.

جرهم والعماليق، فأخرجوهم منها وصارت عمارتها ومراعيها لهم[1].

يبدو من هذا النص أن أقدم من سكن بيثرب هما قبيلتي جرهم والعماليق، ونحن نعلم أن كليهما قبيلتين يمنيتان، وأن الجالية اليهودية التي لجأت إلى الحجاز واختارت يثرب لتقيم بها قد استتب لها الأمر، فكثر عددها وسيطرت على الأوضاع السياسية والاقتصادية. وفي ذلك الحين كان حول يثرب قرى كثيرة كما كان فيها أسواق رائجة. ومن القبائل اليهودية التي سكنتها قبيلة بني قريضة وبني النظير وبني قينقاع وقد اختاروا لهم أحياء خاصة بهم يسكنونها جريا وراء المحافظة على عاداتهم في كل مكان وزمان.

أما في حالة الحرب والغزو فقد كانوا يجتمعون في حصون شيدوها ليحتموا فيها من الغرباء عنهم[2]. ويرى المؤرخ مصطفى الرافعي أن دخول اليهود إليها كان سببا في تقدمها من الناحية الزراعية والتجارية والصناعية[3]. وقد استمر اليهود على ذلك النحو إلى أن خرج ثعلب بن عمرو بن مزيقيا بن عامر بن ماء السماء في قومه من اليمن بعد تهديم سد مآرب، وتفرقهم في البلاد. حيث سكن كل بطن منهم في مكان اختاره، فسكنت خزاعة مكة وسار ثعلبة وولداه الأوس والخزرج إلى يثرب واستقروا[4]، لكنهم ما لبثوا أن انتزعوا من يهودها عددا من الحصون وجمعت العصبية بينهم وبين عرب الشمال، عندئذ أخذ النفوذ اليهودي يتقلص عن الحياة السياسية والاجتماعية، حتى أصبحت يثرب كأنها بلد الأوس والخزرج، لا يذكر سائر سكانها إلا مجازا[5].

والحق أن مسألة استقرار اليهود بيثرب قبل مجيء ثعلبة بن عمرو بن مزيقيا في قومه إليها تحتاج إلى دراسة أكثر عمقا وتحليلا وذلك لوضع حد للشكوك التاريخية التي تحوم حولها.

أما في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي (6م)، فقد بدأ النزاع بين الأوس والخزرج حول الانفراد بالنفوذ السياسي في المنطقة، وبدأت بينهما حروب عرفت بأيام الأوس والخزرج منها يوم بعاث، فتحالفت قبائل بني النضير وبني قريضة مع الأوس، وبني قينقاع مع

---

[1]-البلدان، ص19.

[2]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص343.

[3]-مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص22. دراع الطاهر: الديانات القديمة، ص109.

[4]-ابن قتيبة: المعارف، ص109. البلاذري: المصدر السابق، ص21. الزهري: المصدر السابق، ص37. الحميري: المصدر السابق، ص317.

[5]-عمر فروخ: المرجع السابق، ص118.

الخزرج[1]، وهو اليوم الذي قال فيه قيس بن الخطيم الأوسي[2]:

ويوم بعاث أسلمتنا سيوفنـــا إلى حسب في جذم غسان ثاقب
يجردن بيض كل يوم كريهة عن السلم حتى كان أول واجب
قتلناكم يوم الفجار وقبلـــــه يوم بعاث كان يـــوم التغالـــب

ونظرا لما تتمتع به حاضرة يثرب من أراضي بركانية غنية ومناخ معتدل، حيث تتوفر سهولها على مياه كثيرة سطحية وباطنية، وتربة خصبة، فقد ساعدت هذه العوامل الطبيعية أهلها على الاشتغال بالزراعة، وأصبحت هي حرفتهم الرئيسية، إضافة إلى نشاطات اقتصادية أخرى مارسها سكانها حسب ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية.

وبفضل جهدهم المتزايد وتعلقهم بهذه الحرفة، فقد حولوا يثرب بمرور الزمن إلى واحة واسعة خضراء عامرة بأشجار النخيل وأشجار الفواكه حتى أن عروة بن الورد[*] أطلق عليها اسم "منبت النخيل" لكثرة أشجارها وثمارها[3].

وقد اكتسبوا فلاحوا هذه المدينة تجربة رائدة في مجال زراعة النخيل وتطويره ورعايته، والمحافظة عليه كاختيار المساحات الصالحة لأنواع معينة من النخيل وقياس المسافات بين الشجيرات، وامتداد جريده واختيار الأنواع الجيدة المثمرة[4].

لذلك فقد شكلت التمور أحد أهم مواردهم الغذائية كما كانت تعاملاتهم تتم بها، فكانوا يدفعون من التمر الأجور ويسددون منها الديون، تحولت بذلك إلى عملة يتداولونها بينهم.

ولا شك أن اهتمامهم الشديد بالنخيل يعود بالدرجة الأولى إلى فوائدها الجمة فمن جذوعها يستخرجون أعمدة لبيوتهم، ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم[5].

---

[1]-فرتز هومل وآخرون: التاريخ العربي القديم، تح: فؤاد حسين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958، ص249. زاهية قدورة شامي: مرجع سابق، ص46.

[2]-أبو زيد محمد القرشي: المصدر السابق، ص229.

[*]-عروة بن الوردي العبسي: (ت 596م) من الشعراء الصعاليك، قتل في إحدى غزواته، له ديوان جمعه وشرحه ابن السكيت. وهو أصدق من عبر عن مشاعر التمرد والاحتياج لدى هذه الفئة الاجتماعية التي كانت تعاني من التفاوت الطبقي والحرمان الاجتماعي والاقتصادي.

[3]-توفيق برو: المرجع السابق، ص188.

[4]-دراع الطاهر: المرجع السابق، ج1، ص117.

[5]-دراع الطاهر: المرجع نفسه، ص118.

أما المصدر الثاني الذي اعتمدوا عليه في نظامهم الغذائي فهو الشعير، حيث كان طعام الناس اليومي منه، بينما كان الأثرياء منهم يعيشون على الدرمك(*).

وبالإضافة إلى التمر والشعير، فقد كانوا يزرعون القمح والكروم والليمون والموز والبطيخ والبقول والخضر كالقرع واللوبياء والبصل والثوم، وقد كان يهود يثرب يتاجرون مع غيرهم بالتمر والشعير خاصة في سوق بنو قينقاع، وسوق زبالة وسوق الجسر والبطحاء(1).

إن الدارس لاقتصاد هذه الحاضرة يدرك أنه كان مكملا للاقتصاد المكي، الذي كان يفتقر إلى مثل تلك المقومات الزراعية، خصوصا إذا علمنا أن يثرب تقع على نفس الطريق التجاري، الذي يمر بمكة إلى بلاد الشام، وإليها كان يحمل تجار قريش الزبيب من الطائف والمنسوجات القطنية والحريرية التي يأتون بها من اليمن.

كما كانوا يحملون من يثرب الخمور والتمور وبعض الأسلحة والدروع، التي اشتهرت بصنعها، سواء إلى بلادهم مكة أو يتاجروا بها مع البلدان المجاورة. لذلك فقد ربطتها مع قريش علاقات تجارية قوية(2).

حيث يذكر الألوسي أن(3) «قريشا لم تزل تجتذب البعداء، وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر موانسا، ويصير العدو مواليا، وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين، وإنما كانت سبب من أسباب الألفة لأنها استحداث أصله وتمازج مناسبة صدرت عن رغبة واختيار واحد».

وهذا ما فعله هاشم بن عبد مناف الذي خرج في تجارة إلى بلاد الشام، ونزل بسوق النبط في يثرب، فرأى امرأة حازمة مع جمال فسأل عنها أييم هي أم ذات زوج؟ وعندما تَبَيَّن أنها أيم وأنها كانت تحت أحيحة بن الحلاج ثم فارقها، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشترطوا لها أن يكون أمرها بيدها، فإن كرهت رجل فارقته، وهي سلمة بنت عمر، فخطبها هاشم فزوجته نفسها لما عرفت شرفه ونسبه. ودخل بها وصنع طعاما ودعا أصحابه وكانوا أربعين رجل من قريش، فيهم رجال من بني عبد مناف، وبني مخزوم وبني سهم. ودعا من الخزرج أيضا

(*)-الدرمك: هو دقيق الحوارة.

(1)-زنوبة نادي مرسي: نشاط مكة التجاري قبيل الإسلام، ط1، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 2000، ص80. عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص352.

(2)-مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص23، أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص24.

(3)-المرجع السابق، ج2، ص7.

رجالا، وأقام أياما، فعلقت منهم بعبد المطلب، ثم خرج هاشم إلى الشام ومات بغزة[1].

والحق أن هذا النوع من المصاهرة كان شائعا عند العرب القدامى بصفة عامة، وعند الحجازيين بصفة خاصة بالنسبة لرؤساء القوم، الذين كانوا يحرصون على ربط علاقاتهم مع القبائل المجاورة لهم. للمحافظة على مصالحهم الاقتصادية بالدرجة الأولى، خاصة إذا تعلق الأمر بالأمن في الأسواق التابعة لهذه الحاضرة أو تلك، حيث تلعب الحمية والعصبية دورا كبيرا في حماية القوافل والتشجيع على البيع والشراء. ومن ثمة الزيادة في رؤوس الأموال، وما إقامة هاشم لحفل عرسه في يثرب ودعوته لرجال الخزرج إليه إلا للتأليف بينه وبينهم، ومد جسور الصداقة والمحبة معهم حتى يضمن الآمان لقوافله التجارية المارة بهذه المدينة من جهة، والترويج لما تحمله قوافله من منتوجات أثناء بيعها في أسواقها من جهة أخرى.

وقد استمر أبناء هاشم وأحفاده بل كل تجار على المحافظة على نهجه في المحافظة على العلاقات الطيبة بينهم وبين أهل يثرب أوسا أو خزرجا أو يهودا، خاصة اليهود منهم، حيث كان القرشيون يحترمونهم ويرون بأنهم أهل كتاب، كما كان اليهود أيضا يجلون القرشيون ويعتبرونهم سادة العرب. وهذا ما يتفق مع ذهنية اليهود التجارية، لأنهم متعلقون أشد التعلق بالمال وجمعه، ولا يعنيهم أمر التبشير بدينهم، فهم لا يشكلون خطرا على قريش وعلى عبادتها الوثنية، على عكس النصارى الذين كانوا حريصين على التبشير بدينهم مما جعلهم يصطدمون مع الوثنيين من حين لآخر.

كما كانت هناك علاقات دينية بين مكة ويثرب، حيث كان الأوس والخزرج يعظمون مناة وهي بناحية المشلل بين يثرب ومكة، وكانت قريش تعظمها أيضا، مما يدل على العلاقات الدينية التي تربط بين المدينتين، بل أكثر من ذلك فقد عمل المكيون على وضع مناة وغيرها من الأصنام حول الكعبة، اعترافا منهم بقدسيتها من جهة، وحتى يأتي عبادها إليها في موسم الحج فيقيمون الأسواق ويبيعون ويشترون. لأن عقيدة المكي لا طالما ارتبطت بتجارته وأحواله المالية.

ومع ذلك فقد كانت علاقات مكة الاقتصادية مع يثرب أكثر وأعمق من علاقاتها الدينية معها وذلك حسب اطلاعنا على معظم ما تناولته المصادر العربية بهذا الشأن.

---

[1]-ابن سعد: المصدر السابق، ص79، عز الدين بن الأثير: الكامل، ص11، عباس محمود العقاد: المرجع السابق، ص863.

المطلب الثاني: علاقات مكة مع الطائف

وكما كانت لمكة علاقات طيبة مع يثرب، فقد سعت لإقامة علاقات حسنة مع ثاني أهم مدينة بعدها في الحجاز وهي الطائف، وسنورد فيما يأتي لمحة موجزة عن هذه المدينة لمعرفة أهم ما يمكن أن تجتمع فيه مع مكة لإقامة علاقات قوية أو ما قد يختلفان فيه، وفي هذه الحالة ما مصير تلك العلاقات التي تربطهما.

تقع هذه الحاضرة على مسافة مائتي كيلومتر (200 كلم) إلى الجنوب الشرقي من مكة، على ظهر جبل غزوان(*)، الذي يبلغ ارتفاعه 6000 قدم[1]، فهي أقرب إلى مكة من يثرب، وقد أدى هذا الارتفاع في السطح إلى اعتدال مناخها وإلى برودته أحيانا. وترى المؤرخة نادية صقر أنه توجد نظرية جغرافية تربط بين درجة الحرارة ودرجة الحضارة، فتجعل انخفاض درجة الحرارة من عوالم التقدم الحضاري، لذلك فلا غرو إن أصبحت هذه الحاضرة من أكثر حواضر الحجاز تطورا وازدهارا[2].

وقد وصفها الإصطخري بأنها[3] «مدينة طيبة الهواء ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه، وبها مياه جارية وأودية». في حين ذكر القزويني[4]: «...دخلت الطائف وكأني أبشر وقلبي ينضح بالسرور، ولم أجد لذلك سببا إلا صفاء جوها وطيب هوائها».

يصفها كذلك النميري في قوله[5]:

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وهكذا اجتمع للطائف طيب المناخ ووفرة وسائل الحياة من مياه وغلات، ولا شك أن هذه العوامل هي خير ما يجذب سكان شبه الجزيرة عامة ومكة خاصة إليها، فأصبحت وجهة يقصدها السكان من كل حدب وصوب.

أما تسميتها باسم الطائف فقيل أنها سميت برجل من صدف يقال له دلمن بن عبد الملك

(*)-يجمع الجغرافيون العرب أنه ليس بالحجاز كله مكان أبرد من هذا الجبل، حيث كان الماء يجمد به، وليس في جميع الحجاز موضع يجمد فيه الماء سواء. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص39.

(1)-فليب حتي: مرجع سابق، ص143.

(2)-الطائف، المرجع السابق، ص20.

(3)-المصدر السابق، ص24، ابن المجاور: المصدر السابق، ص36.

(4)-المصدر السابق، ص98.

(5)-ابن خردادبة: المصدر السابق، ص134.

وكان تاجر غني، قتل ابن عم له بحضرموت ثم خرج هاربا حتى نزل بأرض الطائف، وحالف مسعود بن معتب الثقفي، وتزوج من ثقيف، وفي مقابل ذلك أقام لهم طوقا مثل الحائط فسمي الموضع الذي توجد فيه تلك الحاضرة بالطائف[1].

كما يعتقد بعض الباحثين أنها سميت بذلك من طواف أهلها حول بيت اللات، باعتبارها المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد كعبة مكة[2].

وكانت الطائف في القديم تسمى وجّا[*] وهو اسم الوادي الذي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العماليق[3].

أما سكانها فكانوا من ثقيف وهو قس بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، بالإضافة إلى جماعة من حمير من أزد السراة، وجماعة من قريش من كنانة وعذرة، كما سكنتها جماعات أخرى من هوازن ومزينة وجهينة، وكان يسكن جبل غزوان قبائل هذيل[4].

في حين أن نظام الحكم بها كان يشبه نظيره الذي بمكة، لسيطرة الطبقة الأرستقراطية على شؤون القبيلة وقيادتها.

لقد ارتبطت مكة بالطائف برباط وثيق نتيجة التقارب المكاني من جهة، وتبادل المصالح والمنافع من جهة أخرى. فالطائف أقرب مدن الحجاز إلى مكة، حيث لا يفصل بينهما سوى جبل واحد. أما من أراد من أهل مكة أن يذهب إلى الطائف على طريق العقبة فعليه أن يأتي عرفات ثم بطن نعمان ثم يصعد عقبة حيراء وبعدها يشرف على الطائف[5].

وتذكر المصادر أنه توجد علاقات اجتماعية بين المدينتين قوامها المصاهرات الأسرية القوية بين رجال القبيلتين، حيث نجد الكثير من رجال قريش وأشرافها تزوجوا بثقفيات منهم عبد

---

[1]-ابن المجاور: المصدر السابق، ص30، المخزومي: المصدر السابق، ص218، عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص115.

[2]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص320.

[*] –بفتح الواو وتشديد الجيم وهو واد بالطائف، وقيل هو اسم لحصون الطائف وقيل لواحد منها، والراجح أنه اسم للبلد كله. انظر: النووي: مصدر سابق، ص198.

[3]-عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، ص115، مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص23.

[4]-ابن حوقل: المصدر السابق، ص39، القزويني: المصدر السابق، ص98، ابن المجاور: المصدر السابق، ص37 عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص328.

[5]-ابن خردادبة: المصدر السابق، ص134.

مناف جد الأمويين والهاشميين، الذي تزوج من رابطة الثقفية، وهي أم عمرو بن أمية بن علاج الثقفي، وآخرون كثيرون تزوجوا أيضا بثقيفيات من أشهرهم الحكم بن أبي العاص[1].

أما من تزوجوا بقرشيات من رجال ثقيف نجد مسعود بن مالك بن كعب الثقفي الذي تزوج من سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، وعروة بن مسعود الذي تزوج هو الآخر من بنت أبي سفيان بن حرب[2].

لقد ذكر صاحب الأغاني أن أم أمية بن أبي الصلت كانت هي الأخرى من أشهر نساء قريش وهي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف أخت سبيعة زوجة مسعود بن مالك. وكان أبو الصلت شاعر قومه وفارسهم. وهذا ما يفسر عرى الصداقة التي ربطت أمية بن أبي الصلت بعبد المطلب بن هاشم حتى أنهما ذهبا في وفد واحد لتهنئة سيف بن ذي يزن بعد استرجاعه حكم بلاده بعد طرده للأحباش منها[3].

ولما كانت الطائف مصيف أهل مكة[4]، فقد كان من الطبيعي أن تحدث مثل هذه المصاهرات، لأن إقامة رجال مكة وأشرافها بالطائف تتطلب وجود بيوت لهم بها، وأهم ما يجب أن يتوفر بتلك البيوت هن النساء اللواتي يقمن على خدمة سادتهن وتوفير السكينة والراحة لهم، لأن المرأة هي لباس الرجل أينما حلّ كانت معه.

إضافة إلى الفائدة التي تحققها هذه الروابط الأسرية في حفظ التجارة والمصالح بين الحاضرتين، بل حتى في حفظ الدماء، لذلك قيل "**المرء على دين زوجته**" لما يستزله الميل إليها من المتابعة، ويجتذبه الحب لها من الموافقة[5]. ولنا في الدور التي لعبته سبيعة بنت عبد شمس زوج مسعود بن مالك الثقفي في حرب الفجار بين قومها من قريش وقوم زوجها، حيث كانت سبب في حقن دماء عدد كبير من الفريقين، لأن وجها قال لها من دخل خبائك من قومك فهو آمن، وكذلك فعل أخوها لما انتهت الحرب لصالحه، فقال لها من تمسك بطرف خبائك من قوم زوجك فهو آمن، فلم يبق قيسي إلا اعتصم بها ودار حول خبائها[6].

---

(1)-حماد بن حامد السلمي: المرجع السابق، ص213.

(2)-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص33.

(3)-الأصبهاني: المصدر السابق، ج3، ص1201، يوسف بن سليمان بن عيسى: المصدر السابق، ص131.

(4)-Emile Dermendrem : Op-Cit, P31.

(5)-الألوسي: المرجع السابق، ج2، ص7.

(6)-عبد الله عفيفي: المرجع السابق، ص33.

لذلك فقد ارتبط المكيون بأهل الطائف ارتباطا وثيقا من الناحية الاجتماعية، حيث كان يقال قرشي وختناه ثقفيان أو ثقفي وختناه قرشيان[1].

ولم تقتصر علاقتهما على الناحية الاجتماعية بل تعدتها إلى الناحية الدينية، فقد كان لثقيف بالطائف بيت يضم صخرة مربعة تعرف باللات يقدسونها كتقديس أهل مكة للكعبة، وقد كانت اللات من أعظم آلهة قريش وثقيف على حد السواء، حيث كانت قريش عند طوافها بالكعبة تقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى إنهن الغرانيق العلا وشفاعتهن لترتجى.

كما جمعهم القرآن في قوله تعالى: [أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى .وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى][2].

يبدو من جمع القرآن لأسماء هذه الأصنام الثلاثة في موضع واحد دليل على مكانتهن ومدى ارتباط عبادتهن خاصة إذا علمنا أن قريشا كانت تعظمهن وتَدَّعي أنهن بنات الله[3].

أما من الناحية الاقتصادية فقد كان لجذب مكة وقفرها في موارد المياه والإنتاج الزراعي، وخصوبة الطائف وانتشار البساتين فيها –كما سبق وأشرنا- دور في إيجاد نوع من التكامل الاقتصادي بين المدينتين من خلال التعاون بين المجتمعين، مجتمع مكة التجاري ومجتمع الطائف الزراعي.

لقد جمع تجار قريش وأثريائها أموالا طائلة وثروات ضخمة من اشتغالهم بالتجارة الدولية، ومن الأسواق المنعقدة في مكة في مواسم الحج، وللمحافظة عليها فكروا في استثمارها في مدينة قريبة من مدينتهم بإقامة مشاريع تمكنهم من الحصول على أرباح مضمونة، فتكون أموالهم قريبة منهم لا يحتاجون إلى وقت طويل لإحاطتها برعايتهم. فكانت الطائف خير مجال لهذا الاستثمار[4]، حيث اشترى كثير منهم مزارع وبساتين نذكر منهم العاص بن وائل السهمي وابنه عمرو بن العاص اللذان كانت لهما أموال ومزارع بوهط، كما كانت لعمر بن الخطاب أملاكا بركبة من أرض الطائف، وللعباس بن عبد المطلب أيضا أرض بالطائف مزروعة بالكروم حيث كان الزبير يحمل منها إلى مكة وينبذ في سقاية الحجيج[5].

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص328.

[2]-سورة النجم، الآيتين 19-20.

[3]- سلطان المعاني: المرجع السابق، ص202.

[4]-ناصر بن سعد الرشيد: المرجع السابق ص223.

[5]-أبو الحسن علي بن موسى: المصدر السابق، ص117، أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص24، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص328.

ويذكر الإخباريون أنه كانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها[1]. كما عملوا على بناء منازل لهم يهربون إليها من قيظ مكة صيفا، على اعتبار أنها المصيف الطبيعي القريب من مدينتهم لاعتدال جوّها مقارنة بشدة حر مدينتهم[2].

ولما كان أهل الزراعة دائما يحتاجون إلى قروض عند بدايتهم في عمليات الحرث والبذر على أن يسددوها وقت الحصاد، فقد عمل أثرياء مكة على تقديم قروض للفلاحين بالطائف على أن يعيدوها مع فوائدها عند انتهاء الحصاد[3].ونظرا لقرب المسافة بين المدينتين حيث لا تتعرض هذه الغلال والفواكه للفساد وحاجة المكيين الماسة لها لعجزهم عن رفادة الحجاج الذين تستقبلهم مدينتهم كل عام، لذلك أصبحت مكة هي السوق الطبيعي لمنتوجات الطائف الزراعية.

وقد أدرك رجال ثقيف وتجارها بأنه لا يمكنهم منافسة تجار قريش لما يتمتع به هؤلاء من القدرة على إقامة العلاقات في مختلف مجالات التجارة الداخلية والخارجية، واستفادتهم من عهود الأمان ونفوذهم الروحي باعتبارهم "**أهل بيت الله وحرمه**". لذلك أصبح اعتماد تجار الطائف ومزارعيها على قوافل قريش، سواء في تصريف إنتاجهم الزراعي داخل الحجاز أو خارجه، أو في استيراد ما يحتاجون إليه من منتوجات صناعية من داخل شبه الجزيرة أو خارجها[4].

كما كان بعض تجارهم يشاركون في ما تحمله قوافل قريش عن طريق محالفتهم لأحد بطونها مثل الأخنس بن شريف حليف بني زهرة، الذي كان مسموع الكلمة في مكة[5].

وهكذا أصبح لمكة مكانة في اقتصاديات الطائف، وبما أن الاقتصاد دائما هو مفتاح السياسة، فقد تبوأت قريش في الطائف مركزا أدبيا واقتصاديا وسياسيا، حيث يشير المؤرخ جواد علي إلى نفوذ قريش في الطائف بقوله[6]: «تمكن أهل مكة من التغلغل داخل الطائف وبسطوا نفوذهم عليها بإقراض سادتها أموالا وبشراء أراضي فيها، فأقاموا بها مشاريع اقتصادية خاصة ومشتركة، وهكذا استغل أذكياء مكة هذا الموضوع المهم وحولوا السياسة فيها في حكم التابع لسادات مكة».

لذلك فتعاون ثقيف مع قريش أصبح ضرورة حتمية، لأن قريشا تستطيع أن تضرب اقتصاديات الطائف بعنف وقوة، كما تستطيع أيضا أن تفرض عليها حصارا اقتصاديا مما ينعكس

---

(1)-البلاذري: فتوح البلدان، ص75.

(2)-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص153.

(3)-نادية صقر: المرجع السابق، ص31.

(4)-محمد مصطفى النجار: المرجع السابق، ص68.

(5)-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص24.

(6)-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص153.

حتما على سيادتها السياسية.

ولما رأت ثقيف أنها غير قادرة منافسة قريش في ميادين الاقتصاد، فقد اضطرت للخضوع إلى الأمر الواقع والاعتماد على قريش في كثير من الجوانب، وإذا كان الاقتصاد من أسس السياسة قديما فقد كان الدين أيضا من أبرز الدعائم السياسية. لذلك رأت ثقيف أنه يمكنها أن تغير في أسلوب منافستها لقريش بولوجها لمجال آخر هو الدين، حيث أرادت أن تجعل من وثنها اللات منافسا للكعبة بمكة، فأقامت حوله حرما يشبه حرم الكعبة، وأحاطته بنفس مظاهر القداسة وشعائر الدين. بل أكثر من هذا فقد حاولت جذب الحجاج العرب إليه بدل من حجهم إلى الكعبة[1].

لأن موسم الحج كان بمثابة دخل سنوي ثابت لقريش تعتمد عليه في مواردها، وازدياد عدد الحجاج يعني الزيادة في النشاط التجاري حول تلك الأسواق التي تصبح عامرة بجميع المنتجات القادمة، سواء من الحجاز أو شبه الجزيرة، كما أرادت ثقيف أيضا أن تنتزع من قريش جزء من تلك القداسة وذلك النفوذ الروحي الذي تعتمد عليه في إقامة علاقاتها[2]. فتجمع ثقيف كما جمعت قريش بين الدين والاقتصاد، لكنها أخفقت في جميع محاولاتها وبقيت تتحين الفرصة لإشفاء غليلها من جهة، وللتحرر اقتصاديا وسياسيا من النفوذ القرشي من جهة أخرى، إلى أن حانت تلك الفرصة في حملة أبرهة على مكة سنة 571م، حيث حاولت الكثير من القبائل التعرض له لتحول بينه وبين هدفه لهدم الكعبة، واستبسلوا في قتاله، ولم يشذ عن هذا الإجماع على مقاومة أبرهة غير قبيلة ثقيف في الطائف، التي وجدت في خروج أبرهة في حملته تلك فرصة ساقها إليها القدر للخلاص من منافسة الكعبة لوثنها اللات، فيضعف شأن قريش ويرتفع شأنها[3].

لذلك انفردت ثقيف بموقف التأييد لحملة أبرهة، فخرج إلى استقباله زعمائها وقادتها بزعامة مسعود بن معتب، معلنين ولاءهم وميلهم إلى السلام، ليس هذا فحسب، بل غالوا في إظهار ضعفهم أمامه قائلين: «أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون مطيعون ليس لنا عندك خلاف وليس بيتنا هذا الذي تريد –يعون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك الذي يدلك عليه»[4].

وبعثت ثقيف مع أبرهة أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فقادهم إلى المغمس[*] ولكنه

---

[1]-نادية صقر: المرجع السابق، ص32.

[2]-باتريشيا كرون: المرجع السابق، ص289.

[3]-نادية صقر: المرجع السابق، ص34.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص110، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص252.

[*]-وهو بميم مضمومة وسكون الغين وفتح الثانية أو كسرها، موضع بطرف الحرم برك فيه فيل أبرهة عندما وجهه لهدم الكعبة. انظر: الحميري: المصدر السابق، ص590.

مات هناك، وأصبحت العرب كلها تلعنه وترجم قبره، استنكارا منهم لفعله القبيح[1]. وفي ذلك يقول جرير بن الخطفي في الفرزدق[2]:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغال

وأرادت قريش وبعض حلفائها من كنانة ومن كان بالحرم من سائر العرب قتال الأحباش، لكنهم رأوا أنهم لا طاقة لهم بهم، وتدخل عناية الله فكان هلاك الجيش الحبشي وهذا ما سنفصل فيه في علاقات مكة مع الحبشة.

لقد كانت نجاة قريش ومكة من الغزو الحبشي ضربة قاسية لثقيف، فهي لم تتوقع انهزام أبرهة وجيشه، لما رأته من قوة في العدة والعدد. وأصيبت بخيبة أمل وازدادت مرارة تلك الخيبة أكثر عندما ارتفع شأن قريش بين العرب كيف لا وقد شاع بأنهم أهل الله قاتل عنهم، يقول الأزرقي: «ولما رد الله الحبشة عن الكعبة وأصابهم ما أصابهم، عظمت قريش عند العرب، وقالوا أهل الله قاتل عنهم»[3]. وقال أيضا «أن أحد زعماء ثقيف وهو مسعود بن مالك كان مع عبد المطلب عندما نزل من الجبل لينظرا ما حل بجنود أبرهة، فلم يسمعا حسا، فدخلا معسكره فرأيا القوم هلكا، فاحتفر عبد المطلب حفرتين ملؤهما ذهبا له ولأبي مسعود، ونادا في الناس أن اقتربوا فأصابوا من فضلها شيئا كثيرا»[4].

يبدو من هذا النص أن سادة ثقيف لم يكونوا جميعا مساندين لحملة أبرهة، والدليل هو وجود أبو مسعود مع عبد المطلب ووقوفه إلى جانبه في هذه المحنة. ولعل الذي جعله يقوم بهذا الدور هو رغبته في أن يكون مع قوم زوجته ونصرتهم وهذا ما يؤكد فائدة تلك المصاهرات السياسية لتوطيد عرى الصداقة والمحبة بين القومين.

كما يبدو أن ثقيفا لم تدرك حقيقة أبعاد هذه الحملة الحبشية ونظرت إليها نظرة محدودة على اعتبار أنها مجرد عامل يخلصها من منافسة الكعبة لوثنها اللات، ولعل ذلك يعود في اعتقادي إلى ضيق أفقها الفكري نتيجة اشتغالها بالزراعة، مما جعل أفكارها واتجاهاتها محلية إقليمية، على عكس ما تمتع به قريش من سعة المدارك واتساع أفقها الفكري.

حيث نجدها أعادت ربط علاقتها من جديد مع الطائف، لأنها تعي جيدا أن معظم ما تستهلكه

---

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص110.

[2]-المسعودي: مروج الذهب، ص53، الثعالبي: المصدر السابق، ص135.

[3]-الأزرقي: المصدر السابق، ص115، الألوسي: المرجع السابق، ص257.

[4]-نادية صقر: المرجع السابق، ص36.

مكة من خمور وعنب وغيرها من المنتجات الغذائية يأتيها من الطائف. ولما كان الحضر أكثر شرب للخمر من البدو وخاصة في مكة التي اعتمدت حاناتها على الخمر المستورد من الطائف على الرغم أن قوافلهم التجارية كانت تجلب أنواعا عديدة من الخمر من كل مناطق العالم، لإرضاء أذواق سادات مكة وأثريائها، فإن خمر الطائف كان أقل ثمنا من الخمور الأجنبية[1].

بالإضافة إلى ذلك قد كان استهلاك مكة من الزبيب يأتيها من الطائف، حيث يعمل صاحب السقاية على استيراد كميات كبيرة من الزبيب قبل موسم الحج ليحلي به الماء الذي يشرب منه الحجاج[2].

ومع ذلك فقد استمر التحاسد والتنافس بين أهالي المدينتين في ميادين التجارة المختلفة، فقد حاول أهل الطائف من جديد جلب القوافل إليهم وجعل مدينتهم مركزا تجاريا يضاهي مركز مكة وقد نجحوا في ذلك نسبيا بعد سيطرة الفرس على اليمن، حيث أصبحت قوافل الفرس التجارية وقوافل ملوك الحيرة تذهب إلى اليمن وتعود منها عن طريق الطائف، فدفع ذلك أهل مكة إلى اتباع سياسة جديدة للسيطرة على اقتصاد الطائف من الداخل، وذلك بزيادة مشاريعهم الاستثمارية داخل الطائف، وإعطاء المزيد من القروض لفلاحيها، والعمل على احتكار معظم صادراتها، لذلك تمت السيطرة عليها[3].

ولم تقتصر ملكية قريش على العقارات والبساتين والضياع، بل نجد بعض سادتها يمتلكون أيضا موارد للمياه، وكلنا نعلم ما للماء من أهمية في الحياة، حيث يذكر ابن سعد[4] «أنه كان لعبد المطلب ماء بالطائف يقال له "**ذو الهرم**" وقد حاول الثقفيون انتزاعهم منه فتنافروا إلى كاهنة عذري في بلاد الشام، فحكم هذا الأخير لعبد المطلب على الثقفيين».

ونتج عن سيطرة أهالي مكة على اقتصاديات الطائف وكثرة التعامل بين أهالي المدينتين أن استخدم تجار الطائف العملات المتداولة في مكة، وكانت تضم العملات الفارسية والرومانية. فارتبط اقتصاد المدينتين حتى أصبح يطلق على المدينتين اسمي المكتين والقريتين، وير المفسرون أن كلمة القريتين المذكورة في القرآن الكريم تعبر عن مكة والطائف إذ قال تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص328، نادية صقر: المرجع السابق، ص43، النوبة نادي مرسي: المرجع السابق، ص80، سيد أمير علي: المرجع السابق، ص7.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص84، الاصطخري: المصدر السابق، ص24.

[3]-جواد علي: المرجع السابق، ص153.

[4]-ابن سعد: المصدر السابق، ص88.

الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ][1] قال بن عباس أن المراد بهما الوليد بت المغيرة القرشي وعروة بن مسعود الثقفي.

وصفوة القول أن علاقات مكة بالطائف قد أخذت صورتين متناقضتين: سورة تكامل اقتصادي أبدى فيها الطرفان استعدادهما للمحافظة على ديمومتها والاستمرار في التعاون بينهما.

أما الصورة الثانية فكانت صورة عداء وتنافر وإن كانت تحت غطاء التنافس حيث حاول كل من الطرفان السيطرة على الأخر بكل الوسائل.

وإن كان النجاح في النهاية من نصيب المكيين فلأنهم استفادوا من تجارتهم مع العديد من الأمم في بناء اقتصادهم منطلقين من واقعهم الخاص، في محاولة منهم للتأقلم مع بيئتهم من جهة، والعمل على تحويلها لمصالحهم من جهة أخرى.

وهذا ما يفسر انتهاجهم لأسلوب اللين والمسالمة في إقامة علاقات حسنة سواء مع الحواضر الحجازية -كما أشرنا سابقا- أو مع القبائل المحيطة بهم والمرابطة على الطرق التجارية التي يسلكونها لتوزيع تجارتهم، وهذا ما سنتطرق له في علاقاتها مع معظم القبائل العربية في المنطقة.

المطلب الثالث: علاقة مكة مع القبائل

لقد حافظت مكة على حسن الصلة بينها وبين القبائل الأخرى في جميع أنحاء شبه الجزيرة خاصة القبائل الضاربة حولها ، أو تلك التي تنتشر على جوانب طرق القوافل التجارية.

ولما كان أهل مكة يعيشون في وسط بدوي، فإنه لابد لهم من قوة تدافع عنهم وترد هجومات القبائل البدوية التي يغريها ثراء أهل الحضر وخيراتهم للإغارة عليهم وسلبهم.

إن الخصائص العامة للصلة بين مختلف البيئات الحضرية وجيرانها من البدو كعلاقات مكة بالقبائل المجاورة لها هي في الحقيقة علاقات تتسم بالحذر والتربص، فالبدو كانوا دائما يطمعون في ثروات الحضر وينتهزون كل فرصة للإغارة عليهم، لذلك كثيرا ما كان أهالي القرى يعانون عناء كبيرا من الأضرار الفادحة والاعتداءات التي تتعرض لها ممتلكاتهم من جراء السطو وغارات القبائل. وحتى الدول الكبيرة كثيرا ما كانت تتعرض حدودها المجاورة للقبائل البدوية لغارات هذه الأخيرة[2].

إن وقوع مكة على الطريق التجاري، بالإضافة إلى التنظيمات التي جاء بها قصي بن كلاب

---

[1]-سورة الزخرف: الآية 31.

[2]-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص190.

جعلت منها مركزا تجاريا هاما، وبالتالي محل أطماع العديد من القبائل المنتشرة في المنطقة. لذلك اتخذت مكة من الإجراءات السلمية والحربية ما ترد به كيد هؤلاء الطامعين فيها[1]. وما إنشاء قصي لوظائف السقاية والرفادة وما تبعها من نظام الحمس فيما بعد إلا لتحقيق غايات وأهداف اقتصادية، وذلك من خلال الهدايا والرسوم (الضرائب) التي كانت تقدم أو تجبى من الزائرين والعابرين بمكة، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته قريش باعتبارها خادمة بيت الله وزواره وما نتج عن ذلك من احترام معظم القبائل لها[2].

وكان لنظام الحمس أثره في تمتين الروابط القرشية مع مختلف القبائل الأخرى في إظهار قريش بمظهر متميز في بلاد العرب، خاصة أن فريقا من العرب قد وافقوا قريشا في تحمسها وتميزها في أداء طقوس عبادتها فريق من العرب[3]. بل أن بعضهم أعلن استعداده للذود عنها وعن طقوسها، وتطوع للدفاع عنها كما فعل صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم زعيم قبيلة تميم الذي هاجم زهير بن جناب الكلبي زعيم غطفان، عندما أراد أن ينشئ حرما كحرم مكة، فحطم أوس حرمه وقضى عليه[4].

إن تضافر مجموعة العوامل السابقة وما نتج عنها، جعل من مكة محور حركة بشرية تمخضت عنها حركة تجارية محلية في البداية، ثم تطورت مع الزمن وبفعل الظروف الدولية المواتية أيضا، فقد خلف تجار قريش تجار اليمن في الوساطة التجارية العالمية بعد احتلال الأحباش لليمن، كما استفادت قريش من سوء العلاقات بين الفرس والروم، حيث انتهجت نهجا حياديا في تعاملها مع الدولتين، الأمر الذي مكنها من الخروج من دائرة التجارة المحلية إلى العالمية[5].

ولكن ذلك لا يعني أنه كان يسمح لتجار قريش وغيرهم من العرب بالدخول داخل أراضي الإمبراطوريتين، لأنه لا الفرس ولا الروم كانوا يثقون فيهم. لذلك اقتصر دخول تجار مكة إلى أسواق معينة فقط كتلك التي تقام في الحيرة وغزة و بصرى على أطراف الدولتين[6].

---

(1)-محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص379.

(2)-الأزرقي: المصدر السابق، ص80،ابن سعد: المصدر السابق، ص70، احمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص20

(3)-محمد ابن حبيب: المصدر السابق، ص 160، أحمد بن عبد الرحمان عيسى: من دلالات سورة قريش، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع1، الرياض 1977، ص107.

(4)-صالح دراركة: إيلاف قريش ملاحظات حول عوامل الملكية قبل الإسلام، مجلة الدراسات التاريخية، ع17-18 جامعة دمشق سوريا، 1984، ص25.

(5)-ناصر بن سعد الرشيد: المرجع السابق، ص215.

(6)-صالح دراركة: المرجع السابق، ص54.

ومع هذا فقد فرض على هؤلاء التجار أن يقدموا ضرائب باهظة كرسوم حتى يسمح لهم بدخولها، فضلا عن تلك الأموال التي كانوا يقدمونها لرؤساء القبائل أيضا. لقد استدعت هذه الأوضاع أن يعمل زعماء قريش على تأمين الطرق لوصول قوافلهم بكل أمان لأسواق كل من بلاد الشام وبلاد النهرين والحبشة ومصر، وقد تحقق لها ذلك في عهد هاشم بن عبد مناف[1].

يذكر الإخباريون أن سنوات من الجدب قد أصابت مكة، فخرج هاشم إلى الشام وأظهر من الكرم ما بلغ مسامع قيصر الروم فأمر بإحضاره، فأخبره هاشم بأن قومه تجار العرب وطلب أن يكتب لهم أمانا للسماح لهم بدخول أراضي الإمبراطورية الرومانية فكتب له ذلك، فأقبل هاشم بكتابه وجعل كلما مر بحي من أحياء العرب في طريقه من الشام إلى مكة، أخذ من أشرافه إيلافا على أن تقدم قريش إليهم ما يرضيهم من بضائع وهدايا تؤلف بينهم[2]. لأن معنى الإيلاف عندهم أن يأمنوا على أنفسهم وتجارتهم في أراضيهم بغير حلف فهو بذلك أمان الطريق[3].

وكانت قوافل التجار قبل ذلك تتخفر بالحرس والأدلاء (المرشدين) من القبائل المجاورة. وكان هؤلاء الأدلاء يعرفون مواقع الآبار والعيون، ويتقاضون مقابل خدمتهم أجورا يتفقون عليها مع من يستخدمهم[4]. إذن فحسب بعض الروايات العربية يكون هاشم هو أول من أخذ الإيلاف ثم أخذه اخوته من بعده.

أما الأسباب التي جعلت أبناء عبد مناف يصرون على أخذ الإيلاف من رؤساء القبائل فتتمثل في: كون ذُؤْبَان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات كانوا لا يرون للحرم حرمته ولا للأشهر الحرم أيضا حرمنها. مثل طيء وخثعم وقضاعة، وسائر العرب يحجون ويدينون بالحرمة له. ومنها أن الأساليب السابقة للإيلاف لم تكن كافية للحفاظ على أمن القوافل وتطلق المصادر العربية الأمان الذي أخذه هاشم من ملك الروم، وأشراف قبائل العرب إيلافا[*] تارة وتارة

---

[1]-جواد علي: المرجع السابق، ج 4، ص67.

[2]-ابن سعد: المرجع السابق، ص75.

[3]-صالح دراركة: المرجع السابق، ص55.

[4]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص262.

[*]-والإيلاف مصدر آلف، على وزن أفعل، كآمن ومضارعه يؤلف، وهو الإلف والعادة، وقيل: إن آلف على وزن فاعل، فمصدره إيلاف ومؤالفة، كقاتل قتالا ومقاتلة، ومضارعه يآلف أي يعاهد ويصالح، بأن يعقد المعاهدات التجارية ويصالح على أمن الطريق لقوافل التجارة، وقيل أنه مصدر آلف بتضعيف اللام إيلاف على غير فعله، ومضارعه يؤلف، إذ كانوا يتألفون في طريقهم التجاري إلى الشام أو إلى اليمن، ويثبتون في كل خرجة رئيس من رؤساء قريش، وبهذا يكون الإيلاف شاملا بما بيتهم خاصة، وبينه وبين غيره عامة. انظر: السهيلي: المصدر السابق، ص48، ابن قتيبة: تفسير غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الإحياء للكتب العربية، 1958، ص539.

أخرى عهدا أو حبلا[*] أو عصما[**][1]. وقد تعرض الثعالبي للإيلاف بقوله[2]: «إنما هو شيء كان هاشم يجعله لرؤساء القبائل من الربح ويحمل لهم متاعا مع متاعه، ويسوق إليهم إبلا مع إبله ليكفيهم مؤونة الأسفار ويكفي قريشا مؤونة الأعداء».

في حين يذكر المؤرخ صالح دراركة أن هاشما أخذ عهدا من قيصر الروم، وإيلافا من شيوخ القبائل، ويعني بإيلاف القبائل أن يأمر التجار في أرضهم بغير حلف، والعهود هي المعاهدات والاتفاقيات، إذ أن رعاية التجارة المكية فيها كسب لتجار قريش من جهة، وللدول التي تحميها لهم بمعاهدات، ولو لم يكن لها كسب لما سمحت للتجار بدخول بلادها[3].

وتأليف القبائل هي بمثابة عملية ترويض كبيرة تتطلب جهدا وخبرة، وقريش هي التي خبرت طبائع الناس، وبخاصة طبائع البدو من خلال الاحتكاك الدائم بهم في مواسم الحج، فهي وحدها قادرة على ابتكار هذا النوع من الأسلوب السياسي للتعامل معهم[4].

وقد نجح أبناء عبد مناف في تأليف القبائل على طول الطرق التجارية نحو الشام واليمن والعراق، وبعد أن كانت هذه القبائل تغير على القوافل وتنهب ما تحمله ، أصبحت هي ذاتها عنصر الآمان الذي يوفر الحماية للقوافل المارة بأراضيها حتى تبلغ مأمنها[5]. ولم يكن هذا الأمان بلا مقابل أو غير مشروط، بل أن قريشا كانت تدفع الكثير من الأموال لعقد مثل هذه الإيلافات، كما أشركتهم في تجارتها، وحملت لرؤسائهم البضائع والهدايا وكفتهم حملها، وكانت أمينة معهم في تسليمهم رؤوس أموالهم مع الأرباح التي يجنونها.

لذلك فقد أدرك رؤساء القبائل أن مصالحهم الاقتصادية إلى جانب قريش، لأنهم استفادوا كثيرا بفضل مشاركتها لهم في مشاريعها التجارية، فكان المقيم رابح والمسافر آمنا

---

[*]-ويسمي الطبري هذه العهود المأخوذة من الملوك حبالا ومفردها حبل، وقد تجمع أيضا على أحبل وأحبال وحبول، والحبل هو العهد والذمة والأمان. انظر: الطبري: تاريخ الرسل، ص252.

[**]-يسمي البلاذري عهود أبناء عبد مناف بالعصم ومعناها المنع، وعصمه يعني منعه مما يوبقه. انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ص59. كما تسميها بعض المصادر أيضا حلفا أو ميثاقا، والحلف العهد الذي يكون بين القوم، وحلفه أي عاهده، والميثاق هو ذاته العهد.

[1]-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص69.

[2]-الثعالبي: المصدر السابق، ص116.

[3]-المرجع السابق، ص55.

[4]-أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص20.

[5]-السهيلي: المصدر السابق، ص49.

محفوظا[1]. خاصة أن تحقيق الأمن كان مطلبا عزيزا في منطقة الحجاز بل في بلاد العرب كلها. لكن ذلك تحقق عن طريق الإيلاف، وانطلقت القوافل التجارية في كل صوب، وقد ازداد حجمها وتنوعت سلعها، فحق لله Y أن يُذّكر المكيين بعظم حقه عليهم في قوله: [أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ][2]، وعليه فإن ظاهرة الإيلاف تعد ابتكارا قرشيا سمح بنقل تجار مكة من تجار محليين إلى وسطاء عالميين، لأن تنظيم المكيين لعلاقاتهم واتباعهم لسياسة متوازنة هي التي مكنتهم من جعل معظم القبائل العربية تدين لهم بالولاء أو على الأقل بالحياد[3].

لقد تحدثنا عن حاجة المكيين إلى ربط تلك العلاقات مع القبائل المرابطة على طول الطرق التجارية وعن أهدافها التي كانت تصبوا إليها، وبقي أن نتحدث عن أهم هذه القبائل وكيفية تعاملها معها.

فالحلف الذي عقدته قريش مع تميم كبرى القبائل العربية الضاربة شمال شرق مكة قد ساعدها كثيرا على تأمين سير قوافلها التجارية المارة بها، ذلك أن تميما من أكبر التجمعات القبلية الشمالية، تمتد منازلها شرقا من وادي رمة –عقدة المواصلات بشمال الجزيرة- وحتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من خليج العرب.

هذا يعني أن بطون تميم كانت تتحكم في طرق المواصلات التجارية التي تربط بين مكة والحيرة، ومما زاد من أهمية هذه القبيلة في محيط العلاقات السياسية والاقتصادية أن منصب الردافة –وهو منصب ينوب فيه الردف عن ملك الحيرة- في الحيرة كانت لأحد بطون تميم، لذلك نجدها تبوأت مكانة مرموقة في الجهاز الإداري بالحيرة. ونظرا لأهمية قبيلة تميم السياسية والاقتصادية، فقد أصبحت كل القبائل المحيطة بها تطلب ودها وتصر على عقد الأحلاف معها، من بينها قبيلة قريش في مكة.

كما حالفت تميم قبيلة كلب، وهي أخطر القبائل العربية على تجارة قريش، لأن مواطنها انتشرت بين أعالي الحجاز إلى بادية الشام. ويبدو أن كلبا ارتبطت بقريش وحافظت على ذلك الارتباط، لارتباطها بقبيلة تميم حليفة قريش –كما سبق وأشرنا-[4].

---

[1]-الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص71، الثعالبي: المصدر السابق، ص89.

[2]-سورة القصص: الآية 57.

[3]-جواد علي: المرجع السابق، ص71.

[4]-صالح دراركة: المرجع السابق، ص59.

والحق أن تحالف تميم مع أسد وطيء كان يخدم التجارة القرشية كثيرا، إذ تمكنت قريش بفضلها من إرسال قوافلها آمنة نحو سوق دومة الجندل، وهي من أشهر أسواق العرب. كانت قبائل العرب تنزل بها في أول يوم من ربيع الأول للبيع والشراء، وكان بيعهم فيها بيع الحصاة. ويجاور هذه السوق قبيلتي كلب وجديلة طيء[1]. ولما كانت قبيلة كلب أكثر القبائل قنا فقد كانوا يفتحون في هذه السوق حوانيت من شعر يبيعون فيها عبيدهم وإيماءهم، ونحن نعلم كم يعني هؤلاء العبيد بالنسبة لقبيلة قريش، التي حولت مكة إلى سوق للعبيد البيض والسود[2].

وكان يشرف على هذا الموسم أمراء من العرب، في حين أن رئاستها كانت في أغلب الأحيان من قبيلة كلب أو من غسان، يقول ابن حبيب[3]: «كان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم من أول يوم تقوم فيه سوقهم، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشرونهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بني كلب، فتقوم السوق إلى آخر الشهر».

وكانت قريش إذا خرجت إلى هذه السوق وأخذت على الحزن لم تتخفر بأحد من العرب حتى ترجع، لأنهم يريدون مياه كلب، وهي حليفة لبني تميم، وكانوا إذا خرجوا من ديارهم ودخلوا ديار بني أسد حتى يخرجون على طيء فتحفظهم وتدلهم على ما أرادوا، لأن طيئا هي حليفة بني أسد، بل أكثر من ذلك، فقد كان كل تاجر يخرج على تلك الديار يتخفر بقريش ما دامت في أرض مضر، وفي ذلك يقول المضاريون[4]: «قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا إسماعيل من الدين».

أما إذا أخذوا على طريق العراق كان عليهم أن يتخفروا ببني عمرو بن مرثد من بني قيس فتجيز لهم ربيعة كلها. فإذا انتهوا منها رحلوا إلى سوق المشقر بهجر وبقوا فيها من أول يوم من جمادى الآخر إلى آخر الشهر، وكان ملوكها أيضا من بني تميم، وكان بيعهم فيها الملامسة، أما من يؤمها من التجار فيتخفرون بقريش أيضا، لأنها لا تؤتى إلا في بلاد مضر[5].

ولما أدركت قريش أهمية هذه القبيلة في المعادلة القبلية أشركتها في الإدارة المكية، ومنحتها

---

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص263، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص264، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص238.

[2]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص264، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص236.

[3]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص264، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص265، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص237.

[4]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص264، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص239.

[5]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص265، القلقشندي: المصدر السابق، ص264، الألوسي: المرجع السابق، ص265، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص 239-241.

بعض الامتيازات، كإشراكها في الإيجاز والإفاضة كما أسندت لبعض أفرادها دور الحكومة في سوق عكاظ[*][1].

كما كانت قريش حليفة قديمة لبني كنانة وبني بكر، حيث شهدت معهما أيام الفجار الأول والثاني: وقد سميت هذه الحروب بهذا الاسم لأنها وقعت في الأشهر الحرم[2]، وقد حدثت بين كنانة حليفة قريش وقيس عيلان إحدى بطون قبيلة هوازن.

وتذكر المصادر العربية أن سبب الحرب في اليوم الثاني من "**الفجار الأول**" أن شبابا من قريش وكنانة طافوا بامرأة من بني عامر جاءت إلى سوق عكاظ، فسألوها أن تسفر لهم عن وجهها، فأبت عليهم ذلك، فقام أحدهم وجلس خلفها فحل طرف ردائها، ثم شده بقوة حتى إذا قامت انكشف ذرعها عن ظهرها، فضحكوا عليها وقالوا لها في سخرية منعتنا النظر إلى وجهك وجدت لنا بالنظر إلى ظهرك، عندها نادت يا آل عامر فوقعت الحرب بين قومها من بني عامر وبني كنانة، ولكن توسط حرب بن أمية بينهما وتحمله لديات القتلى قد أرضى الفريقين وأوقفها[3].

في حين كان سبب وقوع اليوم الثالث، أن رجلا من بني جشم ابن بكر بن هوازن كان له دين على رجل من بني كنانة، ولواه به، فلما أعياه وافاه الجشمي في سوق عكاظ بقرد وجعل ينادي من يبعني مثل هذا الرباح بمال على فلان الكناني رافعا صوته،فلما طال نداؤه وسمعه رجل من بني كنانة، ضرب القرد فقتله، فهتف الجشمي يا آل هوازن، وهتف الكناني يا آل كنانة، فاجتمع الحيان وكادا أن يقتتلان لولا تدخل عبد الله بن جدعان سيد قريش وإصلاحه بينهما[4].

---

[*]-وفي ذلك يقول شاعرهم طريف العنبري:

أو كلما وردت عكاظ قبيلـــة ... بعثوا إلي رسولهـــم يتوســـــم

فتوسموني أننـــي أنا ذاكـــــم ... شاك سلامي في الحوادث معلم

تحتي الأغر وفوق جلدي نثره ... زعف تردّ السيف وهو مثلـــــم

حولي فوارس من أسيد شجعة ... وإذا غضبت فحول بيتي خضم

انظر: أبو سعيد الأصمعي: الأصمعيات، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، د-ت، ص140.

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص267، ابن سيده: المصدر السابق، ج1، ص159، ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ص594، القلقشندي: المصدر السابق، ص164.

[2]-Fransesco Gabrieli : Op-Cit, P30.

[3]-علي برهان الدين: المصدر السابق، ص127، محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب، ص324.
Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P31.

[4]-علي برهان الدين: المصدر السابق، ص127، محمد أحمد جاد المولى: أيام العرب، ص325، دراع الطاهر: المرجع السابق، ج1، ص85.

أما الفجار الثاني فقد تضمن خمسة حروب أو أيام وقعت بعد عشرين سنة من عام الفيل أي حوالي 590م، ولم يكن في أيام العرب أشهر منها، وفيها يقول عوف بن الأحوص[1]:

لما دنون للقباب وأهلـــــها أتيح لنا ذئب مع الليــل فاجـــــر
أتيحت لنا بكر وتحت لوائها كتائب يرضاها العزيز المفاخـــــر
وجاءت قريش حافلين بجمعهم وكان لهم في أول الدهر ناصـــــر
وكانت قريش لو ظهرنا عليهم شفاء لما في الصدر والبغض ظاهر
حبت دونكم بكر فلم تستطعهم كأنهم بالمشـــــرفية ســـــامـــــر

وأهمها اليوم الأول الذي يسمى بـــ"**يوم نخلة**"، وكان سببه أن البراض الكناني قد أتعب قومه فخلعوه وتبرؤوا منه، فالتحق بحي من قيس فطردوه أيضا، فصار ينتقل بين أحياء القبائل ومن سيد لآخر يطلب الحماية والجوار، حتى التجأ ذات يوم إلى حرب ابن أمية وتحالف معه. ثم شرب بمكة فهم بخلعه، لكنه استحلفه أن لا يفعل فتركه وشأنه شريطة أن يغادر مكة، فتوجه إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، الذي كان يبحث عن رجل يعبر له ببضاعة يرسلها إلى سوق عكاظ، فأبدى البراض استعداده للقيام بهذه المهمة، وفي الوقت ذاته كان رجلا من قيس عيلان يسمى عروة بن عتبة الكلابي المعروف باسم الرحال قد علم بالاتفاق الذي بين البراد والنعمان، فقدم إليه وقال له: أكلب خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة ونجد، عندها تراجع النعمان عن اتفاقه مع البراض وعهد بها إلى عروة، فتبعه البراض بعد مسيره وقتله غدرا[2]. وأصبح يضرب به المثل في الفتك فقيل أفتك من البراض[3]. وقد ذكر ذلك أبو تمام ذلك في بيتين من الشعر[4]:

والفتى من تعرفته الليالي والفيافي كالحية النضناض
كل يوم له بصرف الليالي فتكة مثل فتكة البـــــراض

وأخذ البراض القافلة إلى خيبر، وبعث رسولا إلى حرب بن أمية في مكة يخبره بالأمر ويحذره من ثأر قيس الذي قتل أحد رجالها. فاجتمع ملأ قريش ودرسوا القضية واتفقوا على

---

[1]-أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون: المفضليات، ج2، مطبعة دار المعارف، مصر، 1362هـ، ص165.

[2]-بن هشام: المصدر السابق، ص169، محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص326، توفيق برو: المرجع السابق، ص218، Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P31.

[3]-بن سعيد الحميري: المصدر السابق، ص481، الميداني: المصدر السابق، ج2، ص518.

[4]-أبو سعيد عبد الملك الأصمعي: المصدر السابق، ص253.

التفاوض مع عامر بن مالك سيد هوازن، فأتوه وحدثوه في الأمر محاولين إقناعه بوجوب الاكتفاء بقتل القاتل، وكادت مفاوضاتهم أن تأتي ثمارها لولا أن جماعة من قريش كانت بسوق عكاظ، فلما بلغها الأمر وما فعل البراض عادت إلى مكة لنصرة قومها في حال وقوع الحرب.

غير أن قيس عيلان اعتبر ذلك غدرا من كنانة لكون قريش حليفتها، وأقسم رئيسهم عامر بن مالك أن يمنع كنانة وقريش من دخول سوق عكاظ. فاندلعت الحرب بين الفريقين في موضع يسمى نخلة. إذ أسرعت قيس باللحاق بجماعة قريش حتى أدركتهم فيها، واقتتل الفريقان فانهزمت قريش وكنانة والتجأتا إلى الحرم، فكفَت قيس عن قتالها[1].

ولكنهما تواعدا العام المقبل في يوم آخر سمي بيوم "**شمطة**"، غير أن النزاع لم يبق محصورا بين قيس عيلان وكنانة وحليفتها قريش، بل انضم إلى كنانة وقريش حلفاؤهما من الأحباش وبني أسد بن خزيمة وكان على رأسهم حرب بن أمية ومعه عبد الله بن جدعان على الميمنة، وهشام بن المغيرة على الميسرة، وانضم إلى قيس عيلان حلفائهم من بني سليم وهوازن كان على رأسهم مسعود بن معتب الثقفي. وتقابلا الفريقان من جديد، ولكن النصر في هذه المرة أيضا كان لهوازن على كنانة. لكنهم عادوا من جديد للحرب في يوم "**العبلاء**" ومع ذلك فقد انهزمت كنانة أيضا[2]، وفي ذلك يقول خداش بن زهير[3]:

ألم يبلغكم أن جدعـــــــنا أيضا لدى العبلاء خندف بالقباء
ضربناهم ببطن عكاظ حتى تولوا طالعين من النجـــــــاد

لقد كان لهزيمة كنانة بالغ الأثر، إذ حز في نفسها أن تهزم ثلاثة مرات متتالية على يد قيس علان. لذلك أخذ رؤساء كنانة وحلفائها يستعدون للانتقام من قيس عيلان، فتكتلوا وأكثروا من التزود بالسلاح، حيث حمل عبد الله بن جدعان ثري قريش يومئذ ألف رجل من كنانة على ألف بعير، وتولى كل رئيسا منهم قيادة فرعه، وتقاتل الفريقان قتالا شديدا انتصرت فيه هذه المرة كنانة وحلفائها على قيس عيلان[4].

---

[1]-الثعالبي: المصدر السابق، ص129، علي برهان الدين: المصدر السابق، ص128، محمد أحمد جاد المولى: مرجع سابق، ص327.

Fransesco Gabrielli : Op-Cit, PP32-33.

[2]-الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص ص268، 269، توفيق برو: المرجع السابق، ص219.

[3]-الألوسي: المرجع السابق، ص269، محمد أحمد جاد المولى: المرجع السابق، ص328،

Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P33.

[4]-الميداني: المصدر السابق، ج2، ص519، توفيق برو: المرجع السابق، ص220،

Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P33.

ويذكر الأصفهاني أن زعماء قريش وهم حرب بن أمية وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو قد علقوا أنفسهم وقالوا: «لا نبرح حتى نموت مكاننا أو نظفر». فسموا بالعنابس أي الأسود الضارية[1].

أما آخر يوم في حرب الفجار الثانية فيسمى "**الحريرة**"، وقد اقتتل فيه قيس عيلان وكنانة فيه قتالا فاترا دون أن يسجل أحدهما النصر على الآخر، وفي النهاية امتثل الطرفان إلى عقد الصلح بينهما[2].

إن الدارس لجميع هذه الحروب يدرك حرص قريش على السلم على الرغم من مشاركتها في القتال إلى جانب حليفتها كنانة. فقد توسط كل من حرب بن أمية وعبد الله بن جدعان لإيقاف لهيب الحرب في العديد من أيامها. لأن استمرار الحرب يعني انعدام الأمن، وغياب هذا الأخير يعني توقف الحركة التجارية التي تتطلب وجوده بشكل أساسي، حتى تتمكن القوافل من المسير إلى كل الأسواق التي تريد الذهاب إليها، دون تعرضها إلى سلب أو نهب. كما أن استمرار الحرب يعني أيضا انتشار الفقر والجوع وهما دافعان قويان للإغارة على القوافل وسلب ما تحمله من بضاعة.

وقد كانت لقريش أيضا علاقات ودية مع قبيلة خزاعة، حيث يذكر البلاذري[3]: «أنه لما مات المطلب وكان القائم بأمر ابن أخيه عبد المطلب، وثب عمه نوفل على أركاح له، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنصر قومه ولم يردوا عليه، عندها التجأ إلى أخواله من بني النجار من الخزرج، فأجابوه ونصروه على عمه، فلما رأت خزاعة ذلك، قالت: والله لقد ولدناه كما ولدوه –يعني أخواله من بني النجار-، وأن جده عبد مناف ابن قصي من حبى بنت حليل ابن حبشية سيد خزاعة، فأتاه وجوههم وقالوا: يا أبا الحارث إننا قد ولدناك كما ولدوك ونحن بعد متجاورون في الدار، وقد أماتت الأيام ما كان بيننا من أحقاد فهلم فنحالفك، فقبل عبد المطلب عرضهم».

فأقبل ورقاء بن عبد العزى أحد بني مازن بن عدي بن عمرو بن لحي، وسفيان بن عمرو القمري، وعبد العزى بن قطم ودخلوا دار الندوة وكتبوا بينهم كتابا، وكان عبد المطلب في سبعة نفر من بني المطلب والأرقم بن نضلة بن هاشم ولم يحضر أحد من بني نوفل ولا عبد شمس. فلما فرغوا من الكتاب علقوه في باب الكعبة، وكان الذي كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن

---

[1]-المصدر السابق، ج1، ص9، السهيلي: المصدر السابق، ص120.

[2]-السهيلي: المصدر السابق، ص120، الألوسي: المرجع السابق، ص270، توفيق برو: المرجع السابق، ص220
Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P33.

[3]-أنساب الأشراف، ص71، الطبري: تاريخ الرسل، ج2، ص179.

كلاب، وتزوج عبد المطلب يومئذ لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن صاطر[1].

وقد جاء في هذا الكتاب مايلي[2]: «هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجال عمرو بن بيعة من خزاعة، ومن معهم من أسلم ومالك بن أفصى بن حارث، تحالفوا على التناصر والمواساة ما بلّ بحر صوفة، حلفا جامعا غير مفرق، للأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الشاهد، وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد، لا ينكث ما شرقت شمس على ثبير، وحنّ بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان وعمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول الأمد، يزيده طلوع الشمس شدّا وظلام الليل مدّا... فعلى عبد المطلب النصرة لهم مما تابعه عل كل طالب وتر في بر أو بحر، أو سهل أو وعر، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب في شرق أو غرب، وجعلوا الله على ذلك كفلا».

يمثل هذا النص الصيغة الرسمية للحلف الذي عقده عبد المطلب وأبنائه مع حلفائه من خزاعة. والأهداف التي عُقد من أجلها وهي: نصرة كليهما للآخر في السلم والحرب.

كما كانت لجهينة ومزينة وغطفان أيضا علاقات حسنة مع قريش، لأن غطفان كانت حليفة بني أسد، وهي بدورها حليفة لبني تميم، وهذه الأخيرة حليفة لقريش. وقد كان منهم حلفاء يعيشون في مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة القرشية تماشيا مع النظام القبلي السائد ببلاد الحجاز في تلك الفترة[3].

وكان لقبيلة عذرة هي الأخرى صلات قديمة مع قريش، توطدت أكثر بعد عقد هاشم للإيلاف معها. كما كان لقبيلة عذرة أيضا حلف مع جهينة، مما جعل هذه الأخيرة أيضا تحترم المصالح المكية وتسهل مرور القوافل التجارية في منطقة يثرب، ويصدق القول ذاته على بقية بطون قضاعة، النازلة على طول الطريق التجاري من مكة إلى الشام.

والحقيقة أن معظم المصادر تذكر أن قبيلة جذام قد حالفت هي الأخرى قبيلة قريش. لأن بعض رجال قبيلة سليم قد حالفوا زعماء مكة واستغلوا معا مناجم المعادن الواقعة في ديار بني سليم. ولما كانت سليم تنزل مع قبيلة هوازن القوية فقد كان لها حلف آخر مع ثقيف، والتي كانت على صلة حسنة بقريش[4].

---

[1]-أحمد زيني المشهور بدخلان: المرجع السابق، ص10.

[2]-البلاذري: أنساب الأشراف، ص71، أحمد زيني المشهور بدخلان: المرجع السابق، ص10.

[3]-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص22.

[4]-اليعقوبي: البلدان، ص154، صالح دراركة: المرجع السابق، ص60.

أما حول مكة من جهة البحر فقد كانت تنزل معظم بطون الكنانة مثل القين وغفار وبكر وبلحارث ومدلج وضمرة بن بكر والديل بن بكر، وذلك في المنطقة ما بين مواطن هذيل وأسد بن مدركة، وهذه البطون كلها كانت تجمعها علاقات حسنة مع قريش بحكم الانتماء المشترك للقبيلة الأم كنانة[1].

كما يبدو أن قريش الظواهر أيضا كان لها دورها في حماية المصالح المكية، حيث كانت تغزوا وتغير دفاعا عن قريش البطاح، التي كانت تسميهم الضب للزومهم الحرم. وقد دخل قسم منهم مكة مثل بني حسل بن عامر، فانضموا إلى قريش البطاح وانصهروا فيهم، وهم رهط سهيل بن عمر وإخوته. وتفخر قريش الظواهر على قريش البطاح بظهورهم للعدو وقتالهم له[2].

لقد نظرت قريش إلى طريق اليمن بأهمية لا تقل عن نظرتها لطريق الشام. حيث كانت لها أيضا علاقات حسنة مع كل القبائل التي تنزل على طول الطريق التجاري الجنوبي مثل قبيلة خثعم التي كانت تعيش في الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران. حيث وقفت هذه القبيلة في وجه الحملة الحبشية التي قام بها أبرهة على مكة سنة 570م[3].

إضافة إلى كل تلك الأحلاف التي جمعت بين قريش ومعظم القبائل العربية والتي كانت ذات طابع سلمي، فقد أقامت قريش أحلاف أخرى ذات طابع عسكري مع بعض القبائل الأخرى مثل القارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة وذلك بهدف نصرتها في حال دخلت قريش في حرب ضد عدو ما. وسمي هؤلاء الأحلاف بالأحابيش[4]، وعليه فهم ليسوا زنوجا من بلاد الحبشة كما ذهب لامنس، الذي قال بأن قريش كانت تعتمد على جيش من المرتزقة الأحابيش في حماية قوافلها أو الدفاع عنها عند وقوع الحرب[5].

علاوة على تلك العلاقات الاقتصادية والمصالح المشتركة بين قريش وغيرها من القبائل فقد سعت قريش إلى إقامة علاقات اجتماعية تعزيزا منها لتلك الروابط عن طريق الزواج. حيث تذكر المصادر أسماء العديد من النساء التميميات اللواتي تزوجن برجال من أسر قرشية شريفة[6].

---

(1)-اليعقوبي: البلدان، ص154، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص22. بشير قفاف: المرجع السابق، ص37

(2)-البلاذري: أنساب الأشراف، ص39، الثعالبي: المصدر السابق، ص98، صالح دراركة: المرجع السابق، ص60

(3)-أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص23.

(4)-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص90، فاطمة قدورة شامي: المرجع السابق، ص43، أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص22.

(5)-Lammens : L'arabie occidentale, pp273-277.

(6)-صالح دراركة: المرجع السابق، ص59. M.Watt : Op-Cit, P32.

كما حرصت قريش أيضا على توطيد روابطها مع تلك القبائل عن طريق تقديسها لمعظم آلهتهم وجلبها لوضعها حول الكعبة، فقد اتخذ بنو هذيل ابن مدرك بن إلياس بن مضر سواعا بأرض رهاط، وكان لكلب ووبرة من قضاعة ودا بدومة الجندل، وكان لقريش وبني كنانة العزى بنخلة، وكانت سدانتها وحجابتها في بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم. كما كانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب. وكذلك ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة[1].

حيث كانت معظم تلك القبائل تأتي مكة في موسم الحج لتؤدي مناسكها لأصنامها، ولتبيع منتوجاتها في الأسواق القريبة منها مثل سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذو المجاز، فتجمع بين العبادة والتجارة.

وفي الأخير، يمكن القول أن علاقة مكة بمختلف القبائل العربية قد أخذت أشكالا مختلفة حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والدينية لقبيلة قريش من جهة، والقبائل المجاورة لها من جهة أخرى.

المبحث الثاني: علاقات مكة بالدول المجاورة

عاصرت مكة في فترة ازدهارها أكبر إمبراطورتين في ذلك العصر، وهما الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الفارسية. هذا فضلا عن معاصرتها أيضا لدولتي اليمن والحبشة.

المطلب الأول: علاقات مكة مع الشام (الروم البزنطيين)

إن عجز بيزنطا للسيطرة على حدود إمبراطوريتها بسبب النهب المستمر لأطراف مدنها وغزو بعض القبائل المحيطة بها كالضجاعم وهم بنو سليح من قضاعة وغيرهم لقوافلها التجارية، قد دفعتهم إلى مسالمتهم، ليس لاتقاء شرهم فقط، ولكن للاستعانة بهم على خصومهم التقليديين الساسنيين.

وكان لظهور الغساسنة كقوة مهيبة في المنطقة وإخضاعهم لتلك القبائل دور بارز في سياسة البزنطيين في عهد الإمبراطور جستنيان "Justinian" (527-565م) القائمة على فكرة

---

[1]-الزبير بن بكار: المصدر السابق، ص417، ابن هشام: المصدر السابق، ص54، ابن سيده: المصدر السابق، ج1، ص293، الهمذاني: صفة جزيرة العرب، ص268، ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ص613، القلقشندي: نهاية الأرب، ص452، سليمان محمد الطيب: المرجع السابق، ص760، فليب حتي: المرجع السابق، ص138.

استعادة أملاك الإمبراطورية الرومانية القديمة، وإحياء مجدها في المنطقة[1].

غير أن الصراع الذي كان قائما بين الغساسنة حلفاء الروم البزنطيين والمناذرة حلفاء الفرس الساسانيين للسيطرة على الطرق التجارية في كافة شبه الجزيرة العربية قديما لم يسفر على انتصار أحدهما على الآخر، لتكافئ قوتهما في جميع المجالات. وبما أن كل منهما بحاجة إلى توفر منتوجات الآخر في أسواقه[2]، لهذا كان لا بد من إيجاد وسيط يقوم بنقلها بين معظم أسواق شبه الجزيرة، وقد لعب هذا الدور تجار قريش لاتباعهم سياسة الحياد من جهة، وتمتعهم بصمعة طيبة لدى سكان شبه الجزيرة، لوجود بيت الله في بلدهم، وقيامهم على خدمته وخدمة زواره. خاصة بالنسبة لسكان شمال شبه الجزيرة، حيث يرى المؤرخ إبراهيم الشريف أن علاقات مكة بشمال بلاد العرب ترجع إلى أيام النبطيين الذين كانوا يقومون على التجارة في هذا الجزء من بلادهم، وقد حافظ الحجازيون بما فيهم المكيون على تلك الصلات باتخاذهم تماثيل لأرباب كان النبطيون يعبدونها، فقدموا بها مكة ووضعوها حول الكعبة لعبادتها[3].

ومما يؤكد ذلك ما ذكرته كتب الأخبار بشأن عمرو بن لحي الذي سافر إلى بلاد الشام فرأى قوما يعكفون على أصنام لهم يعبدونها، فسألهم أن يعطوه واحدا منها، فأعطوه هبل الذي قدم به مكة ووضعه داخل الكعبة تعظيما له وأمر الناس بعبادته[4].

ونحن نعلم أهمية العلاقات الدينية وأثرها على العلاقات الاقتصادية، لأن وفود عدد من الحجيج من سكان المناطق الشمالية إلى المنطقة في موسم الحج يعد فرصة كبيرة للتعارف بين التجار وعقد الصفقات والأحلاف بين رؤساء القبائل وأرباب المال. وما اجتماعهم على موائد الطعام التي كان يضعها عمرو بن لحي، ومن بعده قصي بن كلاب وأبناؤه إلا دليلا ناطقا على أهمية وظيفتي السقاية والرفادة في تمتين العلاقات وتوطيدها.

وعلى ذكر قصي بن كلاب، فقد ذكر المؤرخ جواد علي[5] «...أنه قد استعان بقيصر الروم

---

[1]-رمضاني أم هاني: بيزنطا وشبه الجزيرة العربية من القرن الثالث إلى السادس الميلاديين (3-6م)، مذكرة= =لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم 2005-2006م، ص66، جرجي زيدان: المرجع السابق، ص250، Lammens : Islam croyances, P35.

[2]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص306، جرجي زيدان: المرجع السابق، ص251.

[3]-المرجع السابق، ص40.

[4]-الأزرقي: المرجع السابق، ص88، ابن الكلبي: المصدر السابق، ص97، ابن هشام: المصدر السابق، ص51، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص214.

[5]-المرجع السابق، ج4، ص117.

في نزاعه مع خزاعة». ولعله يقصد بذلك أن قصيا كان على علاقة حسنة مع الروم البزنطيين. وأن سياسته نابعة منهم. فمن المحتمل أن يكونوا هم من أشار على حلفائهم الغساسنة تقديم العون له، كما يجوز أن يكون بنو عذرة وهم من العرب النصارى النازلين على أطراف الشام قد ساعدوه بطلب من الروم.

ويربط المستشرق "منتو جومري وات" بين سيطرة قصي على مكة وتطور التجارة بين هذه المدينة وسوريا، فيقول[1]: «...أنه من الممكن الزعم أن طريق التجارة بين مكة واليمن كان لأمد بعد قصي بيد اليمنيين، ويستدل على صحة رأيه بما ورد في كتابات الإخباريين حول سبب عقد حلف الفضول لنصرة اليمني على المكي». فإذا صح ما يدعيه المستشرق "منتو جومري وات"، يكون ما قاله المؤرخ "نبيه عاقل"[2] «أن نقل التجارة بين اليمن ومكة كانت حكرا يمنيا، ونقلها بين مكة وسورية حكرا مكيا» صحيحا، وهذا يستدعي –حسب رأيي- أن تكون العلاقات بين مكة وبيزنطة علاقات ودية لسيطرة هذه الأخيرة على سوريا.

غير أن ذلك لا يعني أن الروم هم الذين قاموا بتنصيب قصي ملكا على مكة وتقديم المساعدة لهم –هذا إن قدموها فعلا- لأن معظم الإخباريين يؤكدون على أن قصي استعان بقومه من بني عذرة الذين تربى عندهم بعد زواج أمه برجل منهم. أي أنه اعتمد على صلة النسب والقربة التي تجمع بينه وبين أبنائه لأمه في استنفارهم وطلب العون منهم. ونحن نعلم أهمية النسب في إيقاظ العصبية القبلية.

على الرغم من ذلك، وانطلاقا من واقع مكة التجاري من جهة، ومصالح بيزنطا التجارية من جهة أخرى، بالإضافة إلى مشاكل الطرق التجارية في تلك الفترة، والدور الذي لعبت مكة في نقل تجارة اليمن إلى الشام[3]، يجب أن ننظر إلى ما يذكره المؤرخون حول الازدهار الذي حققته قريش والثراء الذي وصلت إليه في عهد قصي وأبنائه، على أنه دافع مهم مكن أبناء عبد مناف من عقد معاهدات مع جيرانهم[4].

بالرغم من الجدب الذي أصاب مكة في عهد هاشم بن عبد مناف، حيث يذكر ابن سعد[5]

---

[1]-M. Watt : Op-Cit, P36.

[2]-المرجع السابق، ص257.

[3]-زهية قدورة شامي: المرجع السابق، ص34، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص259.

[4]-مبروك نافع مبروك: المرجع السابق، ص142، Lammens : Islam Croyances, P36.

[5]-المصدر السابق، ص75، ابن هشام: المصدر السابق، ص86، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص162، ابن الأثير عز الدين: الكامل، ص16، صالح دراركة: المرجع السابق، ص154، أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ

«أن سنوات الجدب والقحط أصابت مكة، ذهبت بأموالهم فانتشر الفقر والجوع بين أهلها، عندها خرج هاشم –وهو يومئذ سيد قومه- إلى الشام وأظهر من الكرم وحسن المعاملة كعادته، فوصلت أخباره إلى قيصر أو بالأحرى إلى عامل الروم على بلاد الشام، فأمر بإحضاره ولما أدهشته صورة هاشم وحسن منطقه أظهر له من الود والمحبة، ما جعل هاشم يخبره أن قومه من قريش هم تجار العرب وطلب إليه أن يكتب له كتاب أمان يسمح لهم بدخول بلاده للبيع والشراء، فأجاب الحاكم طلبه وكتب له بذلك أمانا لكل تجار قريش القادمين إلى الشام في تجارة».

هذا يعني أن علاقات مكة مع بلاد الشام قد عرفت تطورا ملحوظا في عهد هاشم الذي استطاع فيما بعد أن ينظم مع بقية إخوته صلات تجارية وثقافية، وجعلوها على موسمين أحدهما في الشتاء، وفيه تتجه قوافلهم إلى اليمن، والآخر في فصل الصيف، حيث كانت تتجه إلى بلاد الشام[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يكد ذلك قوله تعالى: [لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ][2]، حيث فسر الطبري هذه الصورة مؤكدا على قيام قريش بهاتين الرحلتين المذكورتين فيها، وأن الله آمنهم من الخوف الذي كانوا عليه ممن يمرون بهم من القبائل، والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال التي تحملها قوافلهم[3]. وذلك بفضل وجود بيت الله بينهم وإشرافهم على خدمته، فهم مقيمون في حرمهم وأمنهم لأن الله تعالى يقول: [وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا][4]، وقوله أيضا: [...وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...][5]، لذلك فهم لم يكونوا بحاجة إلى حماية وهم داخل مكة، أما خارجها فقد تكفل الله بأمنهم ما داموا خدما لبيته، لذلك قال تعالى: [فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ]، ولم يقل (فليعبدوا ربهم) وهو رب كل شيء سبحانه، لارتباط الأمن بالبيت. أما قوله: [الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ]، فقيل أنها تعني الضيق الذي كانوا فيه قبل أن يأخذ هاشم الإيلاف[6].

العرب، ص153، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص67، محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص97.

[1]-ابن سعد: المصدر السابق، ص75، النويري: المصدر السابق، ص33، المخزومي: المرجع السابق، ص145، الفاسي: المصدر السابق، ج2، ص148، محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب، ص411،
Lammens : Les sanctuaires préislamique, P66, Emile dermenghem, Op-Cit, P35.

[2]-سورة قريش: الآيات 1-4.

[3]-جامع البيان في تفسير القرآن، ص703.

[4]-سورة البقرة: الآية 125.

[5]-سورة آل عمران: الآية 97.

[6]-الثعالبي: المصدر السابق، ص116.

وقد عممّ مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف، لأن جميعهم قد فعل ذلك فقال[1]:

يا أيها الرجل المحول رحله هل نزلت بآل عبد مناف
الآخذين العهد في إيـــلافهم والراحلين لرحلة الإيلاف

أما عن اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرها من العرب، فقد قال شاعرهم وهو يرد على بني أسد ما يدعونه من قرابة قريش[2]:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إيلاف
أولئك أومنوا خوفا وجوعا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

وبعد عقد هاشم لهذا العهد مع صاحب الأمر في سورية، ازداد نشاط المكيين التجاري معها. حيث تتفق الروايات العربية على وجود علاقات تجارية لقريش في سورية أكثر من أي مكان آخر. حيث ترى الباحثة بتريشيا كراون أن سوريا تبدو وكأنها البلد الوحيد الذي كانت لقريش معه صلات تجارية، نظرا لتلك القائمة التي جمعتها والتي احتوت على عدد لا بأس به من القرشيين، ممن كانت لهم تجارة معها، مثل: هاشم بن عبد مناف وأبو سفيان وصفوان بن أمية وعثمان، وسعيد بن العاص وأبنائه أبان وخالد وعمرو. وعبد المطلب وابنه الحارث وأبو طالب وعبد الله بن جذعان وأبو العاص بن الربيع، وأبو بكر وعمرو بن العاص وأبناء أبي زمعة وأبو جهل وأبو لهب وغيرهم من تجار مكة المشهورين[3].

لقد كان تجار قريش إذا انتهوا من البيع والشراء في أسواقهم الموسمية كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي المجاز، وأنهوا حجهم نظموا عيرهم وقوافلهم وتهيئوا للسفر إلى الشام، فأقاموا تجارتهم فيها وبدأوا بسوق دير-أيوب[*]، التي كانوا يزعمون بأنها كانت مسكن النبي أيوب υ[4]. ومتى انتهوا منها وانتقضت اعتدوا سبعين يوما ثم أقاموا سوق بصرى، وهي على مشارف الشام، ومن كبار مدنه القديمة. حتى أن اسمها كان يتردد كثيرا في أشعار العرب[5]. وكان أهلها على

---

(1)-الثعالبي: المصدر نفسه، 117.

(2)-أحمد عبد الرحمن عيسى: المرجع السابق، ص95.

(3)-المرجع السابق، ص206. .Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P25

(*)-وهي قرية بحوران من نواحي دمشق إلى الشمال من بصرى وإلى الغرب من أذرعات (درعا) وهي تعرف اليوم باسم (شيخ سعد).

(4)-سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص ص262-263.

(5)-النووي: المصدر السابق، ص37، جرجس داود: المرجع السابق، ص109، باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص208.

علاقة طيبة مع تجار وسكان الحجاز، حيث كان النبط كثيرا ما يحملون تجاراتهم بين الحجاز والشام. حتى أنني وجدت لبصرى من الشهرة عند الحجازيين ما لم أجده لدمشق نفسها، وذلك لأنها –في اعتقادي- محط رحال غالبية تجار العرب بما فيهم المكيين، الذين كانوا يقدمون عليها بحاصلات اليمن والحبشة وحتى الهند[1].

وفي هذا السياق يقول المؤرخ سعيد الأفغاني[2]: «...ولما عظم أمر قريش صارت عيرهم ترد بصرى في مقدمة ما ترد مدن الشام، وتعددت أسفارهم إليها، فليس في قريش تاجر إلا رحل إليها مرارا، وعرفها حق المعرفة كما عرف أغلب مدن الشام».

كما تذكر كتب السيرة أن رسول الله ρ سافر إليها مرتين، مرة طفلا عمره تسع سنين، ومرة رجل ابن خمس وعشرين سنة. حيث يذكر ابن إسحاق أن «أبا طالب خرج من مكة تاجرا ومعه ابن أخيه محمد قاصدا بلاد الشام، فلما نزل الركب ببصرى وكان بها راهب يقال له بحيرا في صومعة له خرج منها وصنع لهم طعاما دعاهم إليه قائلا: إني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم، عبدكم وحركم، فلبوا دعوته وحينها تنبأ لعبد المطلب بنبوة ابن أخيه»[3].

أما بالنسبة لأنواع المنتجات والبضائع التي كان المكيون يجلبونها من هذه السوق فقد كانوا يحملون منها الخمر الذي اشتهرت به الكثير من مدن الشام، وقد كانت العرب تذكرها في أشعارها قال أبو ذؤيب الهذلي[4]:

سلافة راح ضمنتـــــها إداوة مقيرة ردف لمؤخرة الرحـــــل
تزودها من أهل بصرى وغزة على جسرة مرفوعة الذيل والكفل

كما اشتهرت هذه السوق أيضا بسيوفها حتى قيل للسيف مشرف نسبة إلى مشارف الشام

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص307.

[2]-المرجع السابق، ص266.

[3]-ابن هشام: المصدر السابق، ص165، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص367، جرجس داود: المرجع السابق، ص109، إسماعيل علي معتوق: بحيرا، مجلة كلية الآداب، مج12، ج1، مطبعة جامعة الملك فؤاد الأول، 1950، ص75.

[4]-سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص370، باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص182، مصطفى النجار: المرجع السابق، ص68.

وبصرى أحدها. فكانت تنسب إليها السيوف البُصرية قال الشاعر[1]:

عليهن فتيان كساها محـــــرق وكان إذا يكسو أجاد وأنعم
صفائح بُصرى أخلصتها قيونها ومطردا من نسج داوود معلم

كما كانوا يذهبون إلى سوق أذرعات التي تقع قرب البلقاء وأمرها قريب من أمر بصرى حيث تأتي بعدها في شهرة والمكانة، وقد اشتهرت هي الأخرى بخمرتها التي تنسب إليها فيقال خمرة أذرعية، قال فيها أبو دؤيب الهذلي[2]:

فما إن رحيق سبتـــها التجـــــا ر من أذرعات فواد جـــدر
فما فضلة من أذرعات هوت بها مذكرة عنس كهادية الضحل

وقد كانوا يجلبون منها زيت الزيتون والقمح من حوران والبلقاء والجواري والمواد المصنعة كالأسلحة والمنسوجات وغيرها التي اشتهرت بها. وكانت غزة هي آخر المحطات التجارية التي زارها هاشم بن عبد مناف وغيره من تجار قريش[3].

حيث يذكر ابن سعد[4] «أن هاشم خرج في أصحابه إلى الشام حتى بلغ غزة فاشتكى فأقاموا عليه حتى مات فدفنوه بها[*]، ورجعوا بتركته إلى ولده. ويقال أن الذي رجع بها هو أبو رهم بن عبد العزى العامري، وهو يومئذ غلام ابن عشرين سنة».

وعلى الرغم من أن البيزنطيين قد سمحوا لتجار قريش بالدخول إلى أسواقهم والمتاجرة فيها فإنهم عملوا من ناحية أخرى على أن يضعوا أيديهم على الرأس الجنوبي لهذا الطريق الممتد من

---

[1]-سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص371.

[2]-باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص208، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص372، جواد علي: المرجع السابق، ص114.

[3]-الحميري: المصدر السابق، ص428، باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص208، صالح دراركة: المرجع السابق، ص62، مصطفى النجار: المرجع السابق، ص68.

[4]-ابن سعد: المصدر السابق، ص75.

[*]-وقال مطرود الخزاعي يرثيه:

مات الندي بالشام لما أن ثوى فيه بغزة هاشم لا يبعـــــد
لا يبعدن رب الفناء نعـــــوده عود السقيم يجود بين الجود
فجفانه رذم لمـــــــن ينتابـــه والنصر منه باللسان وباليـــد

انظر: البلاذري: أنساب الأشراف، ص63.

اليمن جنوبا حتى بصرى شمالا[1]، والاتصال مباشرة بمنابع التجارة الشرقية. فاستخدموا لذلك حليفتهم الحبشة التي استولت على اليمن، وسعت للاستيلاء على مكة، وبسط نفوذها على الحجاز.

لذلك يرى بعض المؤرخين أمثال "نبيه عاقل" أن حملة أبرهة على مكة كانت بإيعاز من الروم، الذين خططوا للاستيلاء على الطريق التجاري. وبالتالي فرضهم لحصار اقتصادي على أعدائهم الفرس، وتخلصهم من الضرائب الباهضة والرسوم التي كانوا يقدمونها إليهم حتى يسمحوا لهم بدخول أسواقهم أو مرور قوافلهم بطرقهم. ولما فشلت الحملة على مكة قام الروم بمحاولة سياسية بتمليك سيد من قريش عليها يدين بالولاء لهم، وهو عثمان بن الحويرث[2]، وهو الذي قيل أنه كان واحدا من بين أربعة رفضوا عبادة الأصنام وخرجوا بحثا عن الدين الصحيح. فتنصر بعضهم وانقلب بعضهم حنيفا. وكان هو من جملة من تنصروا، وقامت بينه وبين قيصر علاقات حسنة فنصبه ملك على مكة ومنحه لقب البطريق، وهو أحد الألقاب الملكية التي كان الروم يطلقونها على عملائهم من العرب[3].

لذلك فمن الممكن أن يكون عثمان مجرد عبد مأمور حرضه الروم ودفعوه للحصول على ملك مكة، ليتمكنوا من السيطرة على الطرق التجارية البرية وإخضاع جزيرة العرب لنفوذهم السياسي[4]، حيث يذكر مصعب الزبيري أن عثمانا قد جمع قومه بعد عودته إلى مكة وأخذ يرغبهم ويحذرهم في نفس الوقت من غضب الروم عليهم إن عارضوا مشروعهم، قائلا[5]: «يا قوم إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفهم، وقد ملّكني عليكم وأنا ابن عمكم وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن، فاجمع ذلك واذهب إليه وأنا أخافوا إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام، فلا تتاجروا به».

يبدو من هذا الخطاب أنه كلام رجل عرف من أين يبدأ قومه؟ وكيف يأتيهم؟، فقد هدّدهم بأن الروم سيمنعونهم من المتاجرة في بلادهم إن خالفوه وعصوا أمره. لأنه يعلم ما تعنيه التجارة

---

(1)-صالح دراركة: المرجع السابق، ص62.

(2)-المرجع السابق، ص259، محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ، ص423، جواد علي: المرجع السابق، ص114
Fransesco Gabrielli : Op-Cit, P22

(3)-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص210، بن هشام: المصدر السابق، ص306، السهيلي: المصدر السابق ص146، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص172، عباس محمود العقاد: المرجع السابق، ص158.

(4)-المرجع السابق، ص92. جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص92.

(5)-الزبير بن بكار: المصدر السابق، ص425، السهيلي: المصدر السابق، ص146، الفاسي المكي: شفاء الغرام ص190،محمد على دقة: السياسة العامة فى بلاد العرب قبل الإسلام، مجلة التراث العربي، ع27-28، دمشق 1987، ص222.

بالنسبة لقومه، وما تمثله أسواق بلاد الشام لهم. كما ذكرهم بأنه واحد منهم في محاولة منه لإيقاظ شعور الانتماء القبلي فيهم ظنا منه بأنهم سيخضعون له، ويستجيبون لأوامره.

لكن الملأ من قريش كانوا أبعد نظرا منه لعلمهم بأن أمره لا يهم الروم، وأن مسألة تمليكه عليهم هي غير حقيقية لأن لقب البطريق لم يكن الروم يمنحوه إلا لمن قد خدمات جليلة لهم.

أما بالنسبة لقطع تجارتِهِم معهم فهو أمر لا يمكن تحقيقه، لأن حدود الشام طويلة ومفتوحة. كما رأوا أنه ليس من مصلحة بلادهم أن ترتبط بأي من المعسكرين في تلك الفترة التي كان فيها الصراع بين الدولتين على أشده، مما يبرز أهمية الحياد في نظرهم[1].

وتزعم المعارضة ضد عثمان بن الحويرث هو ابن عمه أبو زمعة الأسود ابن المطلب الذي صاح في قومه قائلا: "إن قريشا لا تملك ولا تملك"، فسمعوا كلامه وطردوا عثمان من بينهم. ففشل بذلك المشروع بجعل مكة محمية بيزنطية. ومات عثمان مسموما بالشام على يدي عمر بن جفنة الملك الغساني[2].

يبدو أن فشل المشروع البيزنطي هو تحصيل حاصل لظروف مكة الاقتصادية بشكل خاص والدولية بشكل عام. غير أن موت عثمان على يد الملك الغساني التابع للبيزنطيين يدعوا إلى الشك والريبة. إلا أننا نستدل منه على احتمال وجود صراع على السلطة بين عثمان وعمرو كانت فيه الغلبة لهذا الأخير، الذي فكر في إمكانية استغناء البيزنطيين عنه إذا ما نجحوا في إقامة ملك بمكة يشبه حكم الغساسنة بالشام. وهو يعلم أهمية مكة الاقتصادية فضلا عن مكانتها الدينية في نفوس العرب، خصوصا بعد فشل حملة أبرهة عليها.

وجملة القول أن علاقات مكة قد تحكمت فيها الظروف الدولية لتلك الفترة بشكل كبير، غير أن حنكة رجالها والتزامهم الحياد قد مكنهم من الاستفادة من الصراع القائم بين أكبر إمبراطوريات ذلك العصر، فتحولوا إلى وسطاء تجاريين بينهم. لكن ذلك لا يعني عدم تعرض تلك العلاقات إلى الاضطرابات وبعض المناوشات من الطرفين. بسبب ما ذكره بعض الإخباريين عن حبس التجار المكيين من طرف الملك الغساني بأمر من قيصر الروم بعد فشله في جعل عثمان بن الحويرث ملكا على مكة.

---

[1]-إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص141، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص93، نبيه عاقل: المرجع السابق ص260.

[2]-مصعب الزبيري: المصدر السابق، ص210، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص 178،فاطمة قدورة شامي: المرجع السابق، ص44،. lammens : Islam croyances p38

ومع ذلك فقد عادت علاقاتهم معها إلى سابق عهدها نظرا لحاجة كليهما للأخر. ودليل ذلك ما ذكر عن البيوتات التجارية التي كانت موجودة بها قبيل البعثة. والتي قيل أن تجار الروم كانوا يستخدمونها بالإضافة إلى التجارة للتجسس على أخبار العرب وأعدائهم الفرس[1].

المطلب الثاني: علاقات مكة مع اليمن

لقد توسعت علاقات المكيين خاصة التجارية منها مع الجنوب والشمال، فأما علاقاتهم مع الجنوب فإنها قديمة قدم تاريخ المدينة –أي منذ نشأتها- حيث كانت القبائل اليمنية هي أول من نزل بمكة واستقر بها. وذلك بعد قدوم سيدنا إسماعيل ϖ وأمه إليها، فقد ذكر الأخباريون قدوم قبلتي جرهم والعماليق وكليهما من اليمن[2].

كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى القول بأن مكة قبل ذلك كانت عبارة عن محطة تجارية أسسها التجار اليمنيون، الذين كانوا ينقلون منتوجاتهم إلى بلاد الشام نظرا لوقوعها على طريق القوافل التجارية[3]. لذلك يمكن القول أنه توجد علاقات اجتماعية بين سكان البلدين قوامها روابط نسب ومصاهرات، ولنا في زواج سيدنا إسماعيل ϖ من امرأة من العماليق ثم بأخرى من جرهم. كما يقول الكميت في برة بنت مر ابن أدد أخت الضبة وهي أم أسد بن خزيمة وأم النضر بن كنانة، وهما شعبا واحدا[4]:

بني ابنة مر أين برة عنكـــم وعنا التي شعبا تصير شعبها
وأين ابنها عنا وعنكم وبعلها خزيمة والأرحام وعثاء حوبها .

غير أن العلاقات بينهما قد عرفت نوعا من التوتر في هذه المرحلة، حيث يذكر الإخباريين أن أحد الملوك التبابعة وهو اسعد أبو كرب[*] ابن قيس ابن زيد الأقرن ابن عمرو ذي الأذعار[5] قد

---

[1]-مصطفى الرافعي: المرجع السابق، ص22، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص308، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص25.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص31، المسعودي: مروج الذهب، ص18.

[3]-محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص85، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص12، محمد عبد الله النقيرة: إنتشار الإسلام في شرقي إفريقيا، ط6، دار المريخ، الرياض 1982، ص24.

[4]-ابن قتيبة: كتاب المعاني، ص525.

[*]-ويذكر الاصفهاني أنه يتبع بن أسعد بن حسان بن كلي كرب بن تبع الأقرن وهو أخر التبابعة، ملك اليمن والحجاز والعراق والشام. أنظر الأصفهاني: المصدر السابق، ص111.

[5]-القلقشندي: صبح الأعشا، ص23

قدم إلى الحجاز غازيا بعد مقتل ولده في يثرب، و روي عنه أنه قال لما وصله خبر مقتله[1]:

مـــا بـــال عيـــنـــك لا تنـــــام	كحلت أماقيها بسم الأســـود
أرقا لما فعلت اليهـــود بيـــــثرب	لثبـــت في غمدان كالمتبلـــد
وحلفت عهدا تبلغـــن لخيلـــــــهم	زبر الحديد عشية أو من غد
فجعلت عرصة منزلي في روضة	بين العقيق إلى بقيع الغرقـــد
وهنا بيثرب روحنا وصـــــدورنا	تغلي جلائلها بحرب محصد.

ولما قضى تبع لبانته من يثرب سار بقومه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين أمج[*] و عسفان[**]. أتاه نفر من هذيل بن مدركة فقالوا له[2]: «أيها الملك ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب، وهو بيت بمكة يعبده أهله». وقد قال اسعد في ذلك أيضا[3].

لمّا أتاني من هذيل أعـــبـــد	يتنصحون فرمت أمر لأعبد
قالوا بمكة كنز قوم داثـــــر	وجواهر من لؤلؤ وزبرجـــد
بيتا يطاف به وينحر حـــوله	بدن له حجر وركن أســـود
فأردت أمرا حال ربي دونه	والله يدفع عن خراب المسجد

غير أن أخذه بنصيحة الهذليين جعله يصاب بحمى شديدة لا يعرف لها مصدرا، ولما خاف من دنو أجله أرسل إلى حبرين يهوديين كان في قومه، يستشرهما عن سبب ما حل به، فقالا له[4]: «ما أراد الهذليون إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن ولا يهلكن كل من معك». وقد وصف تبع ذلك بقوله[5]:

---

[1]-عبيد ابن شرية: المصدر السابق، ص453

[*]-بفتح الهمزة والميم وهي بلد بيثرب وقيل واد من حرة بن سليم ويفرغ في البحر، أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص250، الفاسي: شفاء الغرام، ص355.

[**]-عسفان بضم أوله وسكون ثانيه موضع بين الجحفة ومكة، قريب من بطن مر. أنظر ياقوت: المصدر نفسه، ج4، ص121، عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص93.

[2]-عبيد بن شرية: المصدر السابق، ص452، بن هشام: المصدر السابق،ص14.

[3]-عبيد بن شرية: المصدر السابق، ص454.

[4]-عبيد بن شرية: المصدر نفسه، ص452، ابن هشام: المصدر السابق، ص14، الأزرقي: المصدر السابق، ص100، المسعودي: مروج الذهب، ص51، ابن كثير: البداية والنهاية، ص140.

[5]-عبيد بن شرية: المصدر السابق، ص454.

ما كنت أحسب أن بيتا طيبا لله في بطحاء مكة يعبد
حتى أتاني من قريضة عالم حبر تدين له اليهود وتفتدي
قالوا ازدجر عن قرية محجوبة لنبي مكة من قريش مهتدي

ثم سأل تبع الحبرين عن كيفية إصلاح نيته تجاه البيت، فطلبا منه أن يصنع ما يصنع أهلها يطوف به ويكرمه، لكنه سألهما أيضا عن الذي يمنعهما من أن يفعلا ما أوصوه به، فأجاباه بأنهما يعظمانه ويعلمان فضله لكن الذي حال بينهما وبينه هو تلك الأوثان التي نصبها أهله حوله، وهي في اعتقادهم طقوس شرك وهما كما نعلم من أهل الكتاب.

يذكر ابن هشام[1]: «أن تبّعا سمع لرأي الحبرين وأمر بالهذليين فقطعت أيديهم وأرجلهم، ثم دخل مكة وطاف بالبيت ونحر عنده وأقام به ستة أيام حسبما ذكر ينحر للناس ويطعم أهلها. كما زعموا أنه رأى في المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف[*]، ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه المعافر[**]، ثم رأى أن يكسوه مرة أخرى فكساه الملاء[***] والوصايل[****]، وكان تبع كما يزعمون أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم»، وقد قيل أنه قال في ذلك شعرا[2]:

فكسون البيت الذي حرم الله ملاء معصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا وسجدنا عند المقام سجودا

وقد جاء في فتح الباري في شرح صحيح البخاري أن النبي ρ نهى عن سب أسعد وهو أول من كسا البيت[3]. أما الأزرقي فقد ذكر تقريبا نفس الأحداث غير أنه خالف ابن هشام في زمن

---

[1]-عبيد بن شرية: المصدر السابق، ص453، ابن هشام: المصدر السابق، ص14، الأزرقي: المصدر السابق، ص101، البلاذري: فتوح البلدان، ص63.

Encyclopédie de l'Islam, T4, P332.

[*]-الخصف: جمع خصفة، وهو الثوب الغليظ جدا.

[**]-المعافر: وهي في الأصل اسم لبلد سميت به الثياب المعافرية التي تصنع فيه.

[***]-الملاء: جمع ملاءة، وهي ثوب لين رقيق النسج، وقطعة واحدة منه تسمى الريطة.

[****]-الوصايل: جمع وصيلة، وهي ثوب أحمر مخطط يشبه البرود اليمنية. انظر: ابن دريد: المصدر السابق، ج3، ص898، إبراهيم رفعت باشا: المرجع السابق، ص281.

[2]-الماوردي: المصدر السابق، ص205.

[3]-العسقلاني: المصدر السابق، ص458.

تبع، حيث جعله في أول عهد قريش[1]، غير أن الراجح أن يكون تبع قد قدم مكة في آخر عهد خزاعة وأول عهد قريش، وذلك لوجود نقش مؤرخ في سنة 378م ورد فيه اسم الملك كرب وابنه أبو كرب أسعد اللذان أقاما معبدا لإله السماء[2]. ولعل هذا ما يفسر قول الإخباريين بأن تبع وقومه كانوا على دين الوثنية. كما يفسر كذلك قول الحبرين بأن أهل مكة قد نصبوا الأصنام حول الكعبة، وحسب روايات الإخباريين فإن ذلك كان في عهد عمرو بن لحي زعيم خزاعة.

يبدو أن حج أبو كرب أسعد للكعبة وكسوته لها، قد رفع من مكانتها عند اليمنيين وقد ساعد قريشا فيما بعد في إعادة ربط علاقاتها مع اليمن. حيث تحدثت المصادر عن هاشم بن عبد مناف الذي سنّ رحلتي الشتاء والصيف، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام. وقد توطدت هذه العلاقات أكثر بعد أخذ أخيه المطلب العهد من صاحب اليمن للسماح لتجار قريش بالمتاجرة في أرضه[3].

لذلك فقد كان تجار قريش لا يتركون سوق من أسواقها إلا رحلوا إليه، أمثال: عبد المطلب بن هاشم، والعباس بن عبد المطلب، وجميع بني مخزوم منهم: أبو ربيع بن المغيرة، والوليد بن المغيرة، وهشام بن المغيرة وأبناؤه، وعبد الله بن أبي ربيعة الذي يلقب بعدل قريش لحكمته وهو أيضا من طلب من قريش أن يكسوا الكعبة وحده سنة وتكسوها جميع قريش سنة أخرى[4].

لقد كانت أول سوق يقصدونها سوق حباشة[*]، التي تبعد عن مكة بستة ليالي من جهة اليمن وقد تاجر فيها الرسول ρ قبل البعثة، حيث جاء في الحديث[5]: «لما استوى رسول الله ρ وبلغ أشده وليس له كثير مال استأجرته خديجة إلى سوق حباشة». وكانوا إذا انقضت هذه السوق ارتحلوا إلى سوق صحار وأقاموا بها من العاشر من رجب إلى الخامس عشر منه. ومنها ينتقل التجار إلى سوق الشحر[**]، ومكانه على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب، بين عدن وعمان. تقوم هذه السوق

---

[1]-الأزرقي: المصدر السابق، ص102، عبد القدوس الأنصاري: المرجع السابق، ص119.

[2]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص100، الفاسي المكي: شفاء الغرام، ص357.

[3]-ابن هشام: المصدر السابق، ص85، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص163، الألوسي: المرجع السابق، ج3 ص375، عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام، ص48، محمد حسين هيكل: المرجع السابق، ص97.

[4]-باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص209، أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص46.

[*]-فهي المتجر المتوسط بين الحجاز واليمن، والحباشة جماعة من الناس ليسوا من جنس واحد، ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها من مختلف القبائل والأجناس للتجارة. وقد سميت به سوق أخرى لبني قينقاع تقام في رجب أيضا. انظر: سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص258.

[5]-العسقلاني: المصدر السابق، ص594، الفاسي: شفاء الغرام، ج2، ص477، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص259،

[**]-والشحر مأخوذ من مشحر الأرض وهو سبخة الأرض، ومنابت الحموض وهي اسم للعديد من القرى والأودية

في النصف من شعبان إلى آخره، أما ما يباع فيها من بضائع فهي الأدم والبزّ والكندرّ والمرّ والصبر . وكان تجار قريش يتخفرون فيها ببني محارب بن صرب بن مهرة[1]. وبعد انقضاء هذه الأخيرة كانوا يرتحلون إلى سوق عدن[*]، فيقيمون بها العشر الأوائل من شهر رمضان. وميزة هذه السوق أن الذي يقصدها يستغني فيها عن الخفارة لقيام حكومة منظمة فيها باعتبارها إحدى مخاليف اليمن[2]. وهناك طريق تجاري يصلها بمكة يأخذ فيه المسافر على صنعاء وصعدة وجرش ونجران والطائف، وهناك طريق آخر يأخذ على البوادي وتهامة، وهو أقرب الطرق، إلا أنه على أحياء اليمن ومخاليفها تسلكه الحراس[3].

وكانوا إذا ارتحلوا من الشحر وعدن أقاموا سوق صنعاء[**]، وهي أشهر أسواق اليمن تأتيها العرب بالقطن والزعفران، والأصباغ والأدم والبرود. وكان هذان الصنفان الأخيران يجلبان إليها من معافر وهي إحدى قرى اليمن. أما نوع البيع فيها فكان الجس باليد[4]. لذلك فقد حمل تجار مكة منها المنسوجات الحريرية والجلود والأسلحة والمعادن النفيسة، بالإضافة إلى العطور والبخور بمختلف أنواعها، حيث كانوا يصدرونها إلى البلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط، نظرا لكثرة استعمال المعابد والكنائس لها[5].

أما آخر سوق كان تجار قريش يحضرونها في تلك الديار هي سوق حضرموت[***]، التي

والمراد بها هنا شحر مهرة، وهي قصبتها وليس لأهلها زرع أو نخيل وإنما يملكون الكثير من الإبل. انظر: البكري: المسالك والممالك، ص28، ابن حوقل: المصدر السابق، ص44.

[1]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص266، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص270، الألوسي: المرجع السابق، ج1 ص266، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص267.

[*]-وعدن مدينة صغيرة مطلة على البحر، اكتسبت أهميتها من مينائها الذي تنزل به مختلف المنتوجات والسلع. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص44، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص206.

[2]-ابن حوقل: المصدر السابق، ص47، الاصطخري: المصدر السابق، ص28، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص270، ابن حبيب: المصدر السابق، ص266، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص269.

[3]-الاصطخري: المصدر السابق، ص28.

[**]-يقول ابن حوقل: أنه ليس بجميع اليمن مدينة أكبر من صنعاء، وهي طيبة الهواء صيفا وشتاء، وبها أعظم آثار ملوك حمير وهو قصر غمدان. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص43، الألوسي: المرجع السابق، ص266.

[4]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص266، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص273.

[5]-حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص62، باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص210. عدنان الترسيسي: بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1990م، ص100.

[***]-وهي مدينة صغيرة شرقي عدن بالقرب من البحر، بها قبر النبي هود ﷺ. انظر: ابن حوقل: المصدر السابق، ص44.

كانوا يتخفرون فيها ببني آكل المرار، لأنه لم يكن يدخلها أحد إلا بخفارة، وكان معظم التجار يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة[1]. وقد اشتهرت هذه السوق بتجارة البخور الذي كانت منطقته الرئيسية تقع في أراضيها، وهي منطقة ظفار[2].

إن التراجع الاقتصادي الذي عرفته بلاد اليمن خلال القرن السادس الميلادي وبالخصوص بعد الغزو الحبشي لهم حوالي 525م، مكن المكيون من السيطرة على الطرق التجارية وعلى تجارة القوافل التي كانت في أيدي اليمنيين[3]. وقد استفاد المكيون كثيرا من تردي تلك الأوضاع في تحويل مدينتهم إلى مركز للتخزين، حيث كانوا يحملون البضائع الشامية في الصيف ويخزنونها حتى إذا جاء الشتاء نقلوها إلى اليمن، ثم أحضروا ما في أسواق اليمن ليذهبوا بها إلى الشام مع حلول فصل الصيف[4].

والحق أن كثرة تردد تجار مكة على أسواق اليمن وحسن تعاملهم مع تجارها، قد ولد في نفوس القرشيين واليمنيين مشاعر ود واحترام ظهرت نتائجها أثناء حملة أبرهة عليها. فقد خرج زعماء اليمن وأشرافها للوقوف في وجه أبرهة لمنعه من الوصول إليها. حيث يذكر الأزرقي[5]: «أنه لما عزم أبرهة على المسير إلى مكة لهدم كعبتها خرج إليه رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، فأجابوه، فقاتلهم بهم لكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا». وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب، فهو الذي ساعده في الدخول على أبرهة لأنه من أوصى به أنيسا سائس الفيل في الاستئذان له على أبرهة، وأن يشفع له عنده، مما يؤكد علاقات الود بينهما[6].

يبدو أن وقوف اليمنيين بجانب المكيين ضد عدو مشترك كان له كبير الأثر في نفوسهم لذلك فمن المحتمل أن تكون هزيمة أبرهة وانتصار أهل مكة عليه دافعا قويا لثورة اليمنيين ضد الأحباش والتخلص منهم.

---

(1)-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص267، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص270. عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص79.

(2)-بشير قفاف: المرجع السابق، ص38.

(3)-أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص37، Goustave Lobon : Op-Cit, P94.

(4)-ضرار صالح ضرار: المرجع السابق، ص35.

(5)-المصدر السابق، ص109، ابن كثير: البداية والنهاية، ص145، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص253.

(6)-المصدر السابق، ص43.

فخرج سيف بن ذي يزن على أبي يكسوم الذي خلف والده في ملك اليمن. حتى قدم على قيصر الروم وشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يساعده في إخراجهم شريطة أن يليهم هو بدلا عنه. لكن قيصر رفض طلبه. عندها خرج سيف من عنده متجها إلى عدوه ملك الفرس، فدخل على النعمان بن المنذر وهو عامله على الحيرة، وطلب أن يأخذه معه إلى كسرى أنو شروان (531-548م)، فأجابه إلى طلبه. وخرج معه فلما دخل على كسرى قال له سيف[1]: «أيها الملك غلبت الأغربة علينا في بلادنا، وجئتك لتنصرني، ويكون ملك أرضي لك. فقال له كسرى: بعدت أرضك عن أرضنا مع قلة خيرها، ما كنت لأورط فارس في بلاد الحبشة». ثم أجازه بعشرة آلاف درهم نثرها سيف بعد خروجه من مجلسه للناس. ولما بلغ ذلك مسامع كسرى استدعاه وسأله: لماذا عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس؟ فقال له: ما أصنع به وجبال أرضي كلها ذهب –يرغبه فيها- فجمع كسرى مرازبته الذين أشاروا عليه أن يرسل معه ما في سجونه من رجال حبسهم للقتل. ففعل كسرى ما أشاروا عليه به.

ثم خرج سيف من عنده بمن معه لقتال الحبشة الذي قال فيه[2]:

يظن الناس بالملكين أنهما قـد إلتأمـا
ومن يسمع بأمرهما فإن الأمر قد فهما
قتلنـا القيل يكسوما وارونا الكثيب دما

وأقام سيف ملكه في اليمن من قبل كسرى يكاتبه ويشاوره حتى قتل، فتولى أمر اليمن بعده ابنه معد يكرب. وكان آخر ملوك حمير، ثم صار الأمر بعده في يد الفرس[3].

لقد كان من الطبيعي أن يرفض قيصر عرض سيف بن ذي يزن لطرد الأحباش من اليمن، لأنهم الحلفاء الطبيعيين للروم، لذلك فمن الممكن أن تكون حملة أبرهة على مكة هي بإيعاز منهم، وخدمة لمصالحهم. كما يبدو أن تلك المصالح لم تكن لتخفى عن أعدائهم الفرس، الذين سارعوا لنجدة سيف بن ذي يزن وإخراج الأحباش من اليمن، ليحلوا محلهم، نظرا لأهميته الاقتصادية وما تعنيه أسواقه لهم. ولعله السبب ذاته هو الذي دفع بالفرس للتخلص من سيف فيما بعد، لأنهم أحسوا بأن هذا الأخير قد أدرك أن بلاده وقعت تحت احتلال يشبه الذي قبله، فحاول التخلص من سيطرته لذلك قتلوه.

---

[1]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص305، السهيلي: المصدر السابق، ص36.

[2]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص304، الأصفهاني: المصدر السابق، ص52.

[3]-وهب بن المنبه، المصدر السابق، ص306، الأزرقي: المصدر السابق، ص120.

ومع ذلك فقد كسب الفرس كثيرا من ضم اليمن إلى حوزتهم، حيث أصبحوا يسيطرون على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر. الأمر الذي جعلهم يطمحون للسيطرة على الطريق الحجازي التجاري البري[1]. لذلك فمن المحتمل أن يكون ما رواه الإخباريون عن إعطاء كسرى للعشرة آلاف درهم إلى سيف وكسوته له، مع رفضه لمساعدته، ثم ما حدث من نثر الدراهم وقوله له بأن جبال اليمن كلها ذهب إلا مجرد اختلاق لأن كل القرائن تؤكد التنافس الشديد الذي كان بين الفرس والروم للسيطرة على أهم المراكز التجارية في شبه الجزيرة.

أما عن موقف مكة بالنسبة للوضع الجديد في اليمن بعد طرد الأحباش منها، فقد أسرع عبد المطلب إلى تشكيل وفد لتهنئة سيف، تأكيدا منه على استمرار علاقات الود بينهما.

لأنه لما ظفر سيف بالحبشة وأتته وفود العرب لتهنئه، كان وفد قريش بينها، وقد تضمن: عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وأمية بن أبي الصلت الثقافي، وخويلد بن أسد في ناس من وجوه قريش، فأذن لهم فدخلوا عليه وهو في قصر غمدان بصنعاء[2]، ودنا عبد المطلب منه يستأذنه في الكلام، فقال له سيف: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك؟ فقال له عبد المطلب[3]: «إن الله Y قد أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا وأنبتك منبتا طابت أرومته، وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعه، وأنت أيها الملك رأس العرب الذي تنقاد له العرب، وعمودها الذي عليه العماد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلم يخمد ذكر من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه. أيها الملك نحن أهل الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا لكشفك الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة[*]». ثم قال له سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال له سيف: «إنك ابن أختنا، ثم قربه منه وقال: مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا[**] سهلا وملكا ربحلا[***] يعطي عطاء زجلا، قد

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع نفسه، ص151.

[2]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص306، الأزرقي: المصدر السابق، ص116، ابن كثير: البداية والنهاية، ص152، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص78، أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ، ص155.

[3]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص307، الأزرقي: المصدر السابق، ص118، أبو طالب المفضل الضبي: المصدر السابق، ص3، ابن كثير: البداية والنهاية، ص153، أحمد زكي صفوت: المرجع السابق، ص76.

[*]-يقال: رزئ فلان فلانا، أي قبل بره، وأرزى إليه، أي استند والتجأ إليه، والمعنى هنا أنهم جاؤوه ليهنؤوه لا ليصيبوا منه مالا ولا نفا.

[**]-مناخا بضم الأول تعني مبرك الإبل، وتطلق على المكان مجازا، وهو المراد هنا.

[***]-ربحلا بكسر الأول وفتح الثاني، أي عظيم في خلقه وملكه. انظر: أبو طالب المفضل الضبي، المصدر السابق، ص3.

سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكن الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم» [1]، ثم أمرهم بالتوجع إلى دار الضيافة.

إن الذي يسمع مقال عبد المطلب يدرك حنكته ودقة نظره، لأنه لم يكتف بمدح سيف بل مدح أسلافه من ملوك حمير، مذكرا إياه في الأخير أنه من أهل الله وسدنة بيته. لقد عرف عبد المطلب كيف يحدث الملك من غير أن يخطئ لسانه بما يسيء للأحباش لأنه يدرك جيدا من أين تؤكل الكتف.

وقد كان لهذه الزيارة عظيم الأثر في توطيد العلاقات بين البلدين خصوصا أن سيفا قد خص وفد قريش دون سائر وفود العرب من ثقيف وهوازن وغطفان في العطاء، لمكانتهم منه[2]، فالمسألة إذا ليست مسألة مدح أو إشادة لأن أمية بن أبي الصلت قد مدحه أيضا بقصيدة قال فيها[3]:

ليطلب الوتر أمثال بـــن ذي يزن	خيـــم في البحـــر للأعداء أحـــوالا
أتـــى هرقلا وقـــد شالت نعـــامته	فلـــم يجد عنده النصـــر الذي سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة	مـــن السنين يهين النفس والمـــالا
حتى أتى ببني الأحـــرار يقدمهـــا	تخـــالهم فوق متن الأرض أجبالا
بيضـــا مرازبـــة غلبـــا أســـاورة	أســـدا يربينا في الغضبات أشبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هيئا عليك التاج مـــرتفعا	في رأس غمدان دارا منك محلالا
واطل بالمســـك إن شالت نعامتهم	وأسبـــل اليوم في برديـــك إسبالا

والدارس لهذه القصيدة يدرك الفرق بينها وبين خطبة عبد المطلب، ففي الوقت الذي كان فيه أمية يبذل جهده في مدح سيف ومرازبة الفرس، والإشادة بفضلهم والحط من قيمة الأحباش إلى حد وصفهم بسود الكلاب. فقد التزم عبد المطلب ولم يأت على ذكر أي منهما بما يسيء إليهما، تحسبا منه لما قد يمس العلاقات التي تربط بلده بهما، مكتفيا بمدح سيف والإشادة بأسلافه، وعليه تكون خطبة عبد المطلب شبيهة بالخطب الدبلوماسية للرؤساء في وقتنا الحالي، لأنه يدرك جيدا أن

---

[1]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص308، الأزرقي: المصدر السابق، ص118، أبو طالب المفضل الضبي: المصدر السابق، ص3.

[2]-الأزرقي: المصدر السابق، ص120، وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص310.

[3]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص306، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص279، البكري: المصدر السابق، ص270، ابن كثير: البداية والنهاية، ص152، الأغاني: المصدر السابق، ص1201

الإساءة لأي دولة بالقول في مثل هذه المناسبات الرسمية تعتبر مساسا بكرامتها وحطا من قيمتها. ويمكنها أن تتخذ موقفا سلبيا كأن تمنع مثلا تجار قريش من الدخول إلى أسواقها.

المطلب الثالث: علاقات مكة مع الحبشة

أما علاقات مكة مع الحبشة فإنها بدأت منذ خرجت مكة بتجارتها إلى المجال الخارجي، لأنه في الوقت الذي اتصل فيه هاشم بقيصر والمطلب بأقيال اليمن قد اتصل أخوهما عبد شمس بالنجاشي ملك الحبشة وأبرم معه عهدا. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة لتجار قريش وجهة ومتجرا[1]. حيث يجمع معظم الإخباريين أمثال محمد بن حبيب، أن أولاد عبد مناف الأربعة قد صاروا في البلاد يأخذون الإيلاف والعهود من الملوك وأشراف القبائل لتجارتهم، فكان متجر هاشم إلى الشام والمطلب إلى اليمن وعبد شمس إلى الحبشة[2]، إلا أن ابن سعد يذكر أن عبد المطلب هو الذي عقد الحلف مع النجاشي لتتجار قريش في أرضه[3].

إن الدارس لرأي معظم الإخباريين يصل إلى نتيجة مفادها أنه توجد علاقات مباشرة لمكة مع الحبشة، ومؤسسها عبد الشمس بن عبد مناف. أما بالنسبة لرأي ابن سعد، فهو يلمح إلى وجود علاقات غير مباشرة بين مكة والحبشة، والتي كانت في نظره تتم عن طريق اليمن، لأن مؤسس تلك العلاقات في نظره هو المطلب، الذي عقد حلفا مع حاكم اليمن وحلفا آخر مع النجاشي حاكم الحبشة، الأمر الذي دفع ببعض المؤرخين أمثال باتريشيا كراون إلى التشكيك في وجود علاقات تجارية مباشرة لقريش مع الحبشة، معتقدين بذلك أنها كانت تنتقل عن طريق اليمن[4]. على الرغم من أن المصادر العربية قد صنفت الحبشة على أنها أكبر سوق للقرشيين الذين كانوا يجلبون منها الرقيق الأسود[5]، غير أن عدم ذكرها لأية معلومات تتعلق بأسماء الأماكن والأسواق التي كانوا يقصدونها قد جعل هؤلاء المؤرخين يصرون على نفي علاقات المكيين المباشرة معها.

لكن ذلك في اعتقادي لا يعد دليلا كافيا لنفي علاقات تجارية مباشرة بين مكة والحبشة، لأنه إذا سلمنا بإمكانية انتقال تجار قريش من اليمن إلى الحبشة فمن المحتمل أن يكون ذلك في بداية

---

[1]-إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص38، نبيه عاقل: المرجع السابق، ص257، محمد علي دقة، المرجع السابق، ص131، محمد مبروك نافع: المرجع السابق، ص142.

[2]-محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص164، ابن هشام: المصدر السابق، ص85، ابن الأثير: الكامل، ص16، السهيلي: المصدر السابق، ص48، النويري: المصدر السابق، ص32.

[3]-السهيلي: المصدر السابق، ص48، النويري: المصدر السابق، ص32.

[4]-باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص ص211، 213.

[5]-السهيلي:المصدر السابق، ص71، إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص38.

رحلتهم الأولى إليها، وهذا ما يذهب إليه بعض المؤرخين الذين أكدوا على استعمال المكيين لميناء الشعيبة للاتصال بالحبشة. على الرغم من أن قريشا لم تكن تملك سفنا خاصة بها، فإنها كانت تستخدم سفنا مستأجرة تعمل لحسابها[1]. كما تحدثت المصادر العربية عن إبحار عمارة بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاص إلى الحبشة الذي كان صديقا لملكها النجاشي[*][2].

كما يرى المستشرق "منتو جمري وات" أن اجتياح الأحباش لليمن قد مهد الطريق أمام المكيين لربط علاقات طيبة معهم، للسماح لهم بالاستمرار في إرسال قوافلهم لأسواق اليمن، وقد كان لهم ذلك[3].

يبدو أن تلك العلاقات الطيبة لم تدم طويلا نتيجة قيام حاكم اليمن الجديد بحملة على مكة، ورد ذكرها في معظم كتب الإخباريين. حيث يذكر "ابن هشام"[4]: «أنه بعدما استتب الأمر لأبرهة في اليمن بعد قتله لأرياط بنى كنيسة بصنعاء أسماءها القليس، لم ير مثلها في زمانها، ثم كتب إلى النجاشي أني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة غضب رجل من النسأة وأتى القليس فأحدث فيها، ثم خرج ولحق بأهله». في حين يذكر "بن سعد"[5]: «أن أبرهة بنى كنيسة وأمر الناس بالحج إليها، فمكث فيها رجالا يتعبدون وينسكون، وكان بينهم نفيل الغثعمي وهو يكره أبرهة، فلما كانت ليلة من الليالي الحوالك أتى بعذرة فلطخ بها قبلتها وجمع جيفا فألقاها فيها».

فلما أخبر أبرهة بذلك غضب غضبا شديدا، وسأل عمن صنع ذلك، فقيل له رجل من العرب من أهل البيت الذي يحجون إليه. عندها ازداد غضبه، وحلف ليسيرن إليه فيهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ويسأله أن يبعث له بفيله، فأرسله إليه ، عندها سار أبرهة بجنده إلى البيت يريد هدمه[6]. فلما سمعت العرب بذلك استنكروا عليه فعله ورأوا قتاله حقا عليهم،

---

[1]-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص312، ناصر بن سعد الرشيد: المرجع السابق، ص227.

[*]-وهذا ما تؤكده الحوادث التاريخية بعد ظهور الإسلام، حيث هاجرت جماعة من المسلمين المستضعفين هربا من قريش إلى الحبشة عن طريق ميناء الشعيبة، فأرسل قريش في طلبهم عمرو بن العاص الذي كان صديقا لحاكمها بهدية تمثلت في الأدم الذي كان من أعجب ما يأتيه من مكة.

[2]-ابن هشام: المصدر السابق، ص289.

[3]M. Watte : Op-Cit, P36, Lammens : Islam croyances, P36.

[4]-ابن هشام: المصدر السابق، ص30.، الأزرقي: المصدر السابق، ص109، ابن كثير: البداية والنهاية، ص145، الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص358، الزهور المقتطفة، ص119. المخزومي: المرجع السابق، ص37.

[5]-المصدر السابق، ص91.

[6]-ابن سعد: المصدر السابق، ص91، ابن هشام: المصدر السابق، ص30، الأزرقي: المصدر السابق، ص109.

فخرج إليه رجلا من أقيال اليمن يقال له ذو نفر فقاتله، ولكنه انهزم وأخذه أبرهة أسيرا –كما سبق الذكر -[1].

ثم مضى أبرهة في مسيرته، فلما كان بأرض خثعم اعترضه نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم شهران وناهس، ومن تبعهم من قبائل اليمن فقاتلوه، لكن أبرهة هزمهم وأخذه معه أسيرا.

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب الثقافي في رفقة من قومه معلنين استسلامهم وخضوعهم له، وأرسلوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة، فخرج أبرهة من الطائف وهو أكثر عزما، فلما نزل بالمغمس مات "أبو رغال".

وأقام أبرهة بجنده إلى أن بعث برجل يقال له "الأسود من مفصود" على خيل له يستطلع له أخبار مكة، فوجد عيرا لأهل تهامة من قريش فأصاب فيها مائة بعير لعبد المطلب بن هاشم[2]، فهمت كنانة وهذيل بقتاله، لكنهم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك. ثم بعث أبرهة إلى مكة رجل آخر يقال له "حناطة الحميري" ليأتيه بسيدها، فلما دخل حناطة مكة دله سكانها على عبد المطلب، فذهب إليه وقال له إن ملكنا لا يريد حربكم، ولا حاجة له في دمائكم فأجابه عبد المطلب بأنه أيضا لا يريدون حربهم، أما البيت فهو بيت الله وحرم خليله فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه.

ثم انطلقا حتى دخلا المعسكر، فسأل عبد المطلب عن صديقه ذو نفر ودخل عليه لكي يطلب منه أن يشفع له عند أبرهة، لكن هذا الأخير لم يكن يملك من الأمر إلا إن يرسله إلى صديقه أنيس سائس الفيل، فإستأذن له هذا الأخير على الملك، وأدخله عليه. فلما رآه "أبرهة" أجله ونزل عن سريره وجلس معه على بساطه، ثم قال للترجمان سله عن حاجته. فقال عبد المطلب: حاجتي أن ترد إليّ إبلي، عندها قال "أبرهة" لترجمانه: «قل له أنك كنت قد أعجبتني لما رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتك. أتكلمني في مائتي بعيرا أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك، قد جئت لأهدمه! ؟» فقال له "عبد المطلب": «أنا رب إبلي، وإن للبيت ربا سيمنعه»، ثم خرج عبد المطلب وقد رد "أبرهة" عليه إبله [3].

وقيل أن "عبد المطلب" لم يدخل وحده على "أبرهة" بل دخل معه يعمر بن نفالة بن عدي

---

[1]-ابن هشام: المصدر السابق، ص31، الأزرقي: المصدر السابق، ص109، الألوسي: المرجع السابق، ص252.

[2]-ابن هشام: المصدر السابق، ص31، الأزرقي: المصدر السابق، ص110، المسعودي: مروج الذهب، ص53.

[3]-ابن سعد: المصدر السابق، ص92، ابن هشام: المصدر السابق، ص32، الأزرقي: المصدر السابق، ص112، المسعودي: مروج الذهب، ص104، الألوسي: المرجع السابق، ص254، المخزومي: المرجع السابق، ص37.

سيد بني بكر وخويلد بن وائلة سيد هذيل، فعرضوا عليه ثلث أموال تهامة مقابل رجوعه إلى بلاده، لكنه رفض[1]، عندها انصرف "عبد المطلب" وأخبر قريش بالخبر، وأمرهم بالخروج من مكة للتحرز في رؤوس الجبال. ثم أخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه، وفي ذلك يقول عبد المطلب[2]:

اللهم إن العبد يمنع رحلـــــ ـــه فامنـــع حلالـــك
لا يغلبن صليبهم ومحالـــ ـــهم غـــدوا محالـــك
إن كنـــــت تاركهـــــــم وقبلتنا فامر ما بدا لك

ولما أصبح "أبرهة" وتهيأ لدخول مكة ووجه فيله إلى الكعبة بركة الفيل، في حين كان إذا وجهه إلى اتجاه آخر مشى مهرولا، وبقوا على تلك الحال حتى أرسل الله عليهم طيرا أبابيل من البحر أمثال الخطاطيف يحمل كل منها ثلاثة أحجار مثل الحمص أو العدس[3].

وقد وصف القرآن الكريم تلك الحادثة التاريخية في قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ][4].

وعند دراستنا لهذه النصوص دراسة موضوعية، وتحليلها تحليلا منطقي، يمكننا أن نستقرأ الأمور الآتية، والتي قد تساعدنا في كشف حقيقة تلك الحملة ومعرفة أهدافها البعيدة المدى:

1-يبدو أن مشروع بناء هذه الكنيسة قد تم الاتفاق عليه بين "أبرهة" حاكم اليمن الجديد و"النجاشي" حاكم الحبشة من جهة، وحاكم الروم البيزنطيين من جهة أخرى، على الرغم من اختلافهما معه في المذهب المسيحي. أما تنفيذه فقد أوكل إلى "أبرهة" عامل النجاشي على اليمن. ومما يدل على حدوث هذا الاتفاق بين الأطراف الثلاثة هو كتاب "أبرهة" إلى قيصر، يطلب منه أن يرسل إليه بالمهندسين والصناع وبعض المواد ليستعملها في بنائه لها، كما أرسل كتابا آخر إلى

---

[1]-ابن هشام: المصدر السابق، ص33، الفاسي المكي: شفاء الغرام، ص359، ابن كثير: البداية والنهاية، ص147.

[2]-ابن سعد: المصدر السابق، ص92، ابن هشام: المصدر السابق، ص33، المسعودي: مروج الذهب، ص105.

[3]-وهب بن المنبه: المصدر السابق، ص303، ابن سعد: المصدر السابق، ص93، ابن هشام: المصدر السابق، ص34، الأزرقي: المصدر السابق، ص114، المسعودي: مروج الذهب، ص105، ابن كثير: البداية والنهاية، ص147، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص257، ابن الوردي: المرجع السابق، ص150.

[4]-سورة الفيل: الآيات 1-5.

النجاشي يخبره فيه عن انتهائه من بنائها[1].

2-على الرغم من أن "أبرهة" قد صرح للنجاشي عن هدفه الديني من بنائه لتلك الكنيسة وهو صرف حجاج العرب عن التوجه إلى مكة وجلبهم للحج إليها، لكنه احتفظ بأهدافه الاقتصادية لأن جلب الحجاج إلى كنيسته لم يكن لأمر ديني فحسب[2]، خاصة أنه كان يعلم أن معظم سكان بلاد العرب على دين الوثنية، وأن حجهم إلى الكعبة لم يكن لغرض ديني فقط، بل كانوا يقصدون الأسواق التي تقام بالقرب منها، مثل: سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذو المجاز، وهي أسواق كانت تقام في موسم الحج، لذلك فهو يريد أن يكون له في اليمن موسما للحج شبيه بالذي في مكة، وبالتالي يعمل على تنشيط تجارته الداخلية والخارجية[3].

3-لذلك فمن السذاجة أن يصدق أي باحث بأن الحملة كانت بسبب قيام أحد أبناء القبائل العربية بتدنيسها. وأنها وليدة غضب "أبرهة" فقط، لأن كل الأحداث التي حدثت قبلها أو بعدها تؤكد أنها نتيجة لمخطط سياسي كان يطمح لإخضاع بلاد العرب عامة بما فيها الحجاز، للنفوذ الروماني الحبشي. وما تنصيب "أبرهة" لـــ"محمد خزاعي" سيدا على قبائل مضر وأمرهم له بأن يسير في الناس ويدعوهم إلى الحج إلى القليس إلا جزءا من مخطط بُدأ في تنفيذه منذ حوالي سنة 547م[4]. حيث يذكر المؤرخ "هاشم النعيمي"[5]: «أن حملة أبرهة للسيطرة على الحجاز لم تكن حملة واحدة، بل سبقتها عدة محاولات، منها حملته سنة 547م على ديار بني عامر وهي من مخاليف مكة النجدية، التي تبعد عنها بحوالي ثمانين ميلا، التي باءت بالفشل». وإذا كان طموح "أبرهة" هو فقط مجرد سلب مكة حجاجها، فلماذا عمل على التخطيط لتجهيز حملة جديدة عليها سنة 570م؟.

يرى بعض المؤرخين أن هذه الحملة كانت مرتبطة بظروف السياسة الدولية في تلك الفترة، والتي اتسمت بالصراع الدائم بين الدولتين الفارسية والبيزنطية، ومحاولة كل منهما بسط نفوذها على الجزيرة العربية، والسيطرة على طرقها التجارية، المارة بمكة. وقد استعملت كل منهما الدين

---

(1)-حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص50، دراع الطاهر: علاقات مكة التجارية بالدول المجاورة، مجلة المؤرخ العربي، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، 2000، ص275.

(2)-Lammes : Islam Croyances, P37.

(3)-عباس محمود العقاد: المرجع السابق، ص857. الخربوطلي: المرجع السابق، ص27.

(4)-أحمد إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص38.

(5)-حملة أبرهة الحبشي إلى مكة، أهدافها ونتائجها، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع37، جمعية الماجد للتراث، الإمارات العربية المتحدة، محرم 1423هـ-أفريل 2002م، ص8.

كوسيلة لبسط نفوذها السياسي، وتحقيق أطماعها الاقتصادية[1].

كما استعملتا أيضا زعماء الكيانات السياسية الصغيرة كعملاء وجواسيس تعتمد عليهم في نقل الأخبار، وحتى المساندة العسكرية إن لزم الأمر. فقد أصبح يهود اليمن عملاء سياسيين للفرس، أما المسيحيين منهم فقد أصبحوا عملاء للروم البيزنطيين. وقد انتهزت الدولة البيزنطية فرصة اضطهاد الملك الحميري ذو النواس للمسيحيين في اليمن سنة 523م، الذي هاجم مدينة نجران وهي أكبر معقل لهم، وخير أهلها بين الارتداد عن اعتناق الديانة المسيحية أو الموت حرقا، حيث حفر لهم أخاديد أحرقهم فيها[2]. وقد ذكر القرآن الكريم تلك الحادثة في قوله تعالى: [قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ][3].

حيث طلبت الدولة البيزنطية من حليفتها الحبشة المسيحية إرسال حملة تأديبية، نجحت في القضاء على الملك الحميري، ومن ثمة بدأت فترة الاستعمار الحبشي لليمن، وبدأ معها تنفيذ المخطط البيزنطي في تمسيح بلاد العرب وبسط نفوذها السياسي والاقتصادي عليها[4]. وما حملت أبرهة إلا جزءا منه، وما يؤكد ذلك أنه بعدما انهزم أبرهة اتجه الروم إلى اتباع سياسة جديدة للسيطرة على مكة، بتنصيب أحد أبنائها –كما سبق وأشرنا- ملكا عليها. غير أن عدم قبول المكيين له وطردهم من مكة جعلها تتلقى النكبة التالية.

هذا بالنسبة لأهداف الحملة وأسبابها القريبة والبعيدة المدى، أما فيما يتعلق بما ورد في تلك النصوص عن موقف عبد المطلب زعيم قريش منها فإنه يطرح علامة استفهام. إن إجماع تلك كل النصوص على جعل عبد المطلب يقف موقف المسالم السلبي، حتى أنه لم يحاول الاعتراض على غزو أبرهة لمدينته ولو بأبسط الأشياء، يتناقض وشخصيته وما عرف عنه من حزم وقوة، لأن ما ذكرته نصوص بشأن الحوار الذي دار بينه وبين أبرهة وسؤاله عن إبله وتركه السؤال عن البيت الذي هو دينه ودين آبائه قد جعل هذا الأخير يتنازل عن إعجابه له، كما جاء على لسان أبرهة: «قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني..». وإذا ما حاولنا استكمال المقطع الذي يتحدث عن رد فعل زعيم قريش وراعي مصالحها الاقتصادية والدينية يقول ابن هشام: «ثم

---

(1)-نادية صقر: المرجع السابق، ص32، توفيق برو: المرجع السابق، ص86.

(2)-نادية صقر: المرجع السابق، ص33، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص131، توفيق برو: المرجع السابق، ص84،

Emile Dermengrem : Op-Cit, P29.

(3)-سورة البروج: الآيات: 4-7.

(4)-توفيق برو: المرجع السابق، ص85.

انصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في الجبال، ثم أخذ بحلقة باب الكعبة ودعا ربه أن يحمي البيت»[1].

إن وقوف عبد المطلب لموقفه السلبي بالإضافة إلى اتباع قريش له يتنافى مع كل ما عرف عنهم إذا قارنّا موقفهم مع موقف القبائل التي تصدت لأبرهة على طول الطريق الذي يربط اليمن بمكة. هل كانت كل تلك القبائل أدرى من المكيين أنفسهم بمصلحتهم وأحرص على حمايتهم وحماية بيتهم الذي هو دينهم ومصدر ازدهار تجارتهم؟ ! طبعا لا، لأنه لا يمكننا أن نسلم بموقف عبد المطلب واهتمامه بإبله أكبر من اهتمامه بدينه. لذلك فلا بد أنه قد اتخذ بعض الإجراءات على الأقل بصفته سيدا لمكة، ودليلا على ذلك ما ذكرته نفس النصوص بشأن تشكيله لوفد ذهب به إلى أبرهة يطلب منه الرجوع إلى بلاده مقابل إعطائه ثلث أموال تهامة لكنه رفض[2].

يعتبر ما قام به عبد المطلب محاولة أولى لإغراء أبرهة ورده، ويبدو أن إخفاقها قد دفعه إلى اتخاذ إجراءات أخرى، على الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا شيئا عنها. لكننا إذا نظرنا نظرة دقيقة إلى ما ورد في النصوص من أحداث بعد ذلك نجد فيها نوعا من الارتباك وعدم التسلسل في الأحداث ذاتها. وذلك فمن المحتمل أن تكون تلك النصوص قد تعرضت إلى التحريف والتزييف حسب بعض المؤرخين، لأنها في مجملها كتبت في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، حيث انتشرت الفرق السياسية وتطاولت الشعوبية والمجوسية على العرب[3]. لأنه ليس من المعقول أن تحارب خزاعة ملك اليمن وتمنعه من دخول البيت. وتخرج معظم القبائل لقتال أبرهة بينما يترك عبد المطلب وقومه قتاله ويخرجون إلى الجبال، علما بأن ما عرفناه عن شخصية عبد المطلب يوم حفره لزمزم وليس له يومئذ غير ولد واحد[4]، يجعلنا ندرك أنه ليس بالرجل الجبان المتخاذل، ولو كان كذلك لما أصبح سيد مكة وزعيمها وكذلك ما عرفناه عن مشاركته في حروب الفجار فيما بعد[5] يؤكد ذلك.

ثم إن المعروف عن قريش القوة ورباطة الجأش وما صنعته لنفسها من مكانة مرموقة بين القبائل عن طريق الإيلاف، حيث أصبحت راعية لمصالحهم الاقتصادية ولمقدساتهم الدينية. لذلك فلو وقفت قريش فعلا ذلك الموقف المتخاذل لقضت على هيبتها وكبريائها أمام كل تلك القبائل، وهذا

---

[1]-ابن هشام: المصدر السابق، ص ص32-33.

[2]-ابن هشام: المصدر السابق، ص33، الأزرقي: المصدر السابق، ص112، المسعودي: مروج الذهب، ص104.

[3]-رياض هاشم النعيمي: المرجع السابق، ص12.

[4]-الأزرقي: المصدر السابق، ص84.

[5]-أحمد جاد المولى: أيام العرب، ص ص322-332، توفيق برو: المرجع السابق، ص ص217-218.

ما لا تتمنى قريش حدوثه أبدا.

أما بالنسبة لإدراك قريش أنها غير قادرة على مواجهة أبرهة وفيله ولجوئها إلى الله لحمايتها وحماية بيته، فإن ذلك لا يتم إلا بعد أن يتخذ أصحاب المنطق الحق بكافة الأسباب ويجربوا معظم الحلول الممكنة. ثم يعلنون عن عجزهم في النهاية ويتضرعون إلى الله تعالى لحمايتهم والدفاع عنهم وعندها لا يخذلهم الله أبدا. ولعل ذلك ما حدث فعلا عندما سلط الله Y جنوده على أبرهة وأرسل عليهم طيرا أبابيل قضت عليهم جميعا، ومنعتهم من تهديم بيته.

وفي الأخير فإنه يمكننا أن نستخلص مايلي: بما أنه لم يصل إلينا عن هذه الحملة نصوص في شكل نقوش صريحة معاصرة لتلك الفترة، فإن اعتمادنا على ما تناقلته كتب الإخباريين عن طريق الرواية الشفوية، التي تفتقد إلى الدقة التي يبتغيها الدارس للتاريخ، تجعل من بحثنا عن الحقيقة أمرا عسيرا، لكنه ليس مستحيلا.

لذلك فعلى الرغم من وجود تداخل واضح بين العوامل السياسية والاقتصادية والدينية التي أدت إلى تلك الحملة، فإنه يمكن القول أن أصحابها كانوا يسعون إلى تحقيق أهداف سياسية واقتصادية ودينية.

تتمثل الأهداف السياسية في إقصاء دولة الفرس والحد من نفوذها في نفس الوقت بسط نفوذ دولة البيزنطيين على كامل بلاد العرب بما فيها منطقة مكة لتحويلها إلى محمية بيزنطية ترعى مصالحها في المنطقة.

أما أهدافها الاقتصادية فتتمثل في السيطرة على كافة الطرق التجارية التي تمثل مكة نقطة التقائها، وبالتالي السيطرة على تجارة الطيوب العالمية التي يحتاجها العالم الأوروبي في الشمال.

في حين تتمثل الأهداف الدينية في نشر الديانة المسيحية بالقضاء على أهم مركز للوثنية في شبه الجزيرة العربية وهو مكة.

ومع ذلك فقد استمرت علاقات الود التي تربط مكة مع كل من الروم البيزنطيين والأحباش خاصة بعد خروجهم من اليمن. حيث تتحدث المصادر العربية عن صداقات بين تجار من قريش وحكام الأحباش قبيل ظهور الإسلام. كما ذكرت أيضا أن قوما من أشراف مكة تزوجوا بحبشيات، وكان لهم منهن أولادا من بينهم: نضلة بن هاشم بن عبد مناف، ونفيل بن عبد العزة، وعمرو بن ربيعة، والخطاب بن نفيل والد عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص وغيرهم كثير.

هذا فضلا عن وجود عدد كبير من العبيد الأحباش الذين كانوا يعملون في مختلف المهن

عند سادة مكة وأثريائها[1].

المطلب الرابع: علاقات مكة مع الفرس

أما علاقات مكة مع الفرس فكانت عن طريق الحيرة[*]، وهي مدينة واسعة الشهرة منذ القديم، تقع إلى الشمال من مدينة الكوفة، قيل أن الذي بناها هو بختنصر، وأنه بناها لتجار العرب، ثم صارت بعد ذلك عاصمة لملوك العراق من اللخميين[2].

لقد وصفها أحد الجغرافيون القدامى بقوله[3]: «كان مكان الحيرة من أطيب البلاد مكانا وأرقه هواء وأخفه ماء، وأغذاه تربة وأصفاه جوا، لكنها في الشتاء أبرد مكان وفي الصيف أحره»، ويجمع أهل الأخبار على اعتبار أن عمرو بن عدي المؤسس الحقيق لإمارة اللخميين في الحيرة، ففي ذلك يقول "البكري"[4]: «وعمرو أول من نزل الحيرة واتخذها دار مملكته».

كما أرجعوا الفضل إليه في تمصيرها من جديد بعدما كانت قد خربت زمنا وأقفرت من سكانها. ومع ذلك فقد سكنها ثلاثة طوائف من العرب هم: عرب الضاحية[**]، والعباد[***] والأحلاف[****].

---

[1]-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص119.

[*]-لقد اختلف الإخباريون في تفسير اسم الحيرة وسبب تسميتها به، فمنهم من زعم أنها مشتقة من الحيْرَة لأن تبع لما أقبل بجيوشه ضل دليلهم، فتحير في هذا الأمر، وقيل سميت به لأن تبع لما خلّف ضعاف جنده فيها قال لهم: حيروا به، أي أقيموا به. أما ما ذهب إليه بعض المؤرخين المحدثين في أنها كلمة من كلمات بني إرم. وأنها حرتا وحرتُو السريانية الأصل، ومعناها المخيم والمعسكر، وأن حيرتا Herta وحيرة Hira في التواريخ السريانية التي تعرضت لذكر الغساسنة تقابل كلمة الأرامية، والحير العربي من أصل سامي واحد. لأن المضرب والحمى والمعسكر ألفاظ تدل على نفس المعنى. انظر: عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص207، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص224، توفيق برو: المرجع السابق، ص125.

[2]-عبد المنعم الحميري: المصدر السابق، ص207، سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص376.

[3]-البكري: المصدر السابق، ص274، الحميري: المصدر السابق، ص207.

[4]-البكري: المصدر السابق، ص274، الحميري: المصدر السابق، ص208.

[**] –هم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر وهم التنوخيون الأوائل

[***] - هم قوم من النصارى العرب من قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور لهم ابتنوها لأنفسهم وقيل أيضا أنهم قبائل تعبدوا لملوكهم.

[****] -هم الذين لحقوا بأهل الحيرة، ولم يكونوا من تنوخ ولا من العباد، بل هم قوم حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم.

انظر: الحميري: المصدر نفسه، ص207، توفيق برو: المرجع السابق، ص125، عبد العزيز سالم: المرجع السابق،

وإلى جانب هذه الطوائف الثلاث، فقد كانت تقيم بها بقايا من الكلدانيين والبابليين القدامى. وطائفة من الفرس، إذ كان الأكاسرة يبعثون المرازبة والدهاقنة ليحكموا المدينة من قبلهم، لأنها تابعة لنفوذهم[1]. ومن أشهر ما يميز هذه المدينة قصري الخورنق والسدير وسوقها الذي يعرف بسوق الحيرة نسبة إليها. يذكر اليعقوبي أن الذي بنى الخورنق هو الملك النعمان بن المنذر بن امر القيس الذي يقصده عدي بن زيد في قوله[2]:

وتفكر رب الخورنق إذ أشر فت يوما وللهـــــدي تفكيـــر
سره حاله وكثر ما يـملـ ـك والبحر معرض والســـدير
فارعـــوى قلبـه وقال وما غبطة حي إلى الممات يسير

أما سوقها، فيقول فيه المؤرخ "سعيد الأفغاني"[3]: «لم يذكر هذه السوق أحد ممن تعرض لأسواق العرب مع عظم شأنها، وقصد تجار العرب إليها، وليس من المعقول أن يقصد تجار قريش وتجار الطائف بلاد فارس للتجارة ولا تكون لهم أسواق موسمية في العراق وهي طريقهم، وأهلها عرب». كما يذكر سوق أخرى أقل منها أهمية هي سوق الخنافس التي يجتمع فيها تجار العرب من جميع القبائل، مع تجار مدائن كسرى مرة كل سنة. لهذا فهو يقول أنه لا بد أن يكون هذا البلد مرتبطا بما جاوره من الأقاليم ارتباطا تجاريا وثيقا[4].

وبعد دراستنا للنص الأول يبدو أن مكة كانت واحدة من تلك الأقاليم والبلدان التي تربطها مع الحيرة علاقات تجارية، لأنه في الوقت ذاته الذي حصل فيه أولاد عبد مناف على عهود من اليمن والحبشة والروم حصل نوفل على عهد مماثل من كسرى للمتاجرة في بلاد الفرس[5]. لذلك اتصلت تجارة مكة بالعراق ولكنها لم تكن بنفس القوة التي كانت لها مع الدول الأخرى. ولما كانت تجارة الفرس متصلة اتصالا مباشرا بالتجارة الشرقية فإن تجارتهم مع شبه الجزيرة كانت بيد

ص226.

[1]-جواد علي: المرجع السابق، ص4، ص14، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص227، توفيق برو: المرجع السابق، ص125.

[2]-المصدر السابق، ص210.

[3]-المرجع السابق، ص378.

[4]-سعيد الأفغاني: المرجع نفسه، ص375.

[5]-ابن سعد: المصدر السابق، ص75، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص162، ابن الأثير: الكامل، ص16، النويري: المصدر السابق، ص33، المخزومي: المرجع السابق، ص145.

الحيرة، التي كانت تتسلمها ثم تجيزها إلى أسواق العرب[1].

لقد كان ملوك الحيرة يرسلون بتجارتهم إلى أسواق مكة كل سنة في حماية بعض قوافل العرب. حيث كان "النعمان بن المنذر أبو قابوس" يرسل كل سنة بلطيمة تباع له في عكاظ، ليشترى له بثمنها المنتجات اليمنية كالحرير. يقول "ابن هشام"[2]: «لما بلغ رسول الله ρ أربعة عشرة سنة، أجار عروة الرحال بن عتبة لطيمة[*] للنعمان بن المنذر كانت سببا في وقوع حرب الفجار بين كنانة وحليفتها قريش، وقيس عيلان وحلفائها».

أدى استيلاء الفرس على اليمن إلى حدوث تطورات خطيرة في علاقات مكة مع الفرس خاصة أن الفرس أخذوا يتدخلون في تجارة العربية الجنوبية، وصاروا يرسلون ببضائعهم إلى أسواق العراق ومنها إلى اليمن مباشرة، كما أخذ ملوك الحيرة يرسلون بلطائمهم أيضا إلى اليمن. وقد اثر هذا الوضع كثيرا في تجارة المكيين الذين خسروا أرباحا طائلة، لذلك لا يستبعد أن يكون الهجوم الذي وقع على لطيمة النعمان بتشجيع من أهل مكة، وذلك لإيقاع الضرر بملوك الحيرة التابعين للفرس، ولتخويف القوافل التي صارت تسلك طريق الطائف وتتجنب طريق مكة[3]. لهذا ترى المؤرخة "زاهية قدورة"[4]: «أن تلك الحرب كانت بهدف غلق طريق التجارة الفرس، الحيرة، اليمن والعكس».

خاصة أنه خلال الاحتلال الحبشي لليمن-أي قبل ذلك الزمن- كان الفرس يعولون على ما تحمله قوافل تجار قريش القادمة من اليمن، وذلك لسوء علاقاتهم مع الأحباش، خاصة في عهد أبرهة، ولكن قبل قيامه بحملته مكة، حيث كانت قوافل مكة تتولى نقل ما تيسر من منتوجات الحبشة التي كانت تصل إلى ميناء الشعيبة بموجب الإيلاف الذي عقدته مع الحبشة من جهة، وفارس من جهة أخرى إلى أسواق الحيرة ومنها إلى بلاد فارس. وذلك بفضل ما تمتعت به قريش من حصانة تلقائية بين القبائل المقيمة على طول الطريق، لأن قبائل مضر وحلفائهم كانوا يحترمون صلاتهم

---

[1]-إبراهيم الشريف: المرجع السابق، ص41.

[2]-المصدر السابق، ص169، محمد بن حبيب: المصدر السابق، ص135، الميداني: المصدر السابق، ص518، علي برهان الدين: المصدر السابق، ص126، أحمد محمد جاد المولى: أيام العرب، ص326.

[*]-اللطيمة: هي العير التي تحمل الطيب والبزة، والجمع لطائم وهي أيضا الأرين أي الحفر. انظر: ابن درير: المصدر السابق، ص986.

[3]-المرجع السابق، ص44.

[4]-جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص115، Lammes : Islam Croyances, P38.

المباشرة أو غير المباشرة مع قريش[1].

وقد استطعت من خلال دراستي لأهم ما جاء في دراسات بعض مؤرخين العرب، أن أجمع أسماء عدد كبير من تجار قريش الذين كان متجرهم إلى العراق منهم الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الذي كان يخرج كل سنة إلى سوق الحيرة لبيع العطور التي يأتي بها من اليمن، وكذلك أبو سفيان التي تذكر الروايات أنه قاد قافلة قريش وثقيف إلى العراق، والتي كانت تحمل الأدم والبرود وغيرها من المنتجات التي كان يأتي بها تجار قريش من الشام[2]، وعبد الله بن جدعان الذي أتى للمكيين بطعام يسمى الفالوذج الذي ذكره أمية بن أبي الصلت في شعر له يمدح فيه بن جدعان[3]:

له داع بمكة مشمـــــــعل وآخر فوق دارته ينادي

إلى ردح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وقيل أن "ابن جدعان" كان يكثر من التردد على العراق للتجارة، فوافد مرة على "كسرى"، فأكرمه وأطعمه الفالوذج، فلما تذوقه ابن جدعان وأعجبه طلب من كسرى أن يمنحه جارية تصنعه له إذا عاد إلى مكة، فأجابه إلى طلبه. وقيل أيضا أن أبو سفيان سار بتجارته إلى فارس ودخل على كسرى وقدم إليه خيلا عربية وأذم كهدية فقبل كسرى الأدم وأرجع له الخيل، وأعطاه مخدة، فلما دفعها أبو سفيان إلى الخازن أعطاه ثمانمائة إناء من الذهب وفضة[4]، وهذا عدد مبالغ فيه.

بالإضافة إلى تلك العلاقات التجارية التي ربطت البلدين، فقد ارتبط سكانهما أيضا بروابط اجتماعية وثقافية. حيث يرى ابن النديم أن قريشا تعلمت الكتابة من الحيرة، وذلك عن طريق حرب بن أمية الذي سافر إلى الحيرة كعادته للتجارة، فالتقى ببشر بن عبد الملك أخو أكيدر صاحب دومة الجندل، وكان يعرف الكتابة فأخذه معه إلى مكة وزوجه من ابنته الصهباء، فقام بشر بتعليم جماعة من أهل مكة الكتابة، وكان خطهم يومئذ الجزم[5].

---

[1]-باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص217، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص115.

[2]-سعيد الأفغاني: المرجع السابق، ص247، باتريشيا كراون: المرجع السابق، ص216، جواد علي: المرجع السابق، ج4، ص114.

[3]-ابن قتيبة: كتاب المعاني، ص380، الفاسي المكي: الزهور المقتطفة، ص178، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص87، عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص387.

[4]-محمد علي دقة: المرجع السابق، ص222، ناصر بن سعد الرشيد: المرجع السابق، ص227.

[5]-المصدر السابق، ص15، الألوسي: المرجع السابق، ج1، ص368، عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص314 إبراهيم الشريف: دور الحجاز، ص42.

كما يبدو تأثر المكيين واضحا بغيرهم من الأمم من خلال دخول مصطلحات أجنبية إلى لغتهم كالكراسي والآرائك وغيرها من الأسماء التي ائتلفها اللسان العربي وصارت تبدو كأنها عربية. هذا فضلا من استعمال المكيين للعملات السائدة في المنطقة كالدينار والدرهم وهنا لفظتان أجنبيتان. فالدينار هول فظة مشتقة من اليونانية –اللاتينية- دينا روس، وقد أشار إليه القرآن في قوله تعالى: [...وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...][1]. أما الدرهم فلفظة مشتقة من الدراخمة اليونانية وقد استعاره المكيون من الفرس نتيجة تعاملهم التجاري معهم[2].

وفي الأخير يمكننا أن نستنتج بأنه فعلا كانت توجد علاقات بين مكة وفارس، سواء بطريق مباشر أو غير مباشرة (عن طريق الحيرة)، رغم أنها لم تكن على نطاق واسع كتلك التي جمعتها باليمن وبلاد الشام وغيرهما من الدول المجاورة لها. وذلك عكس ما ذهب إليه بعض المؤرخين أمثال باتريشيا كراون التي قدمت في دراستها كل الأدلة عن تجارة قريش مع الفرس، لكنها فضلت في النهاية أن تنفيها من أساسها، حيث قالت[3]: «... ويصبح من العبث أن نتحدث عن تجارة لمكة مع الفرس وهو الأمر الذي سبق وقمنا بإيضاحه لأن تجارة مكة مع الدول الخارجية كتجارتها مع سوريا ومصر...». حتى أنها لم تذكر تجارتها مع اليمن لأنها اعتبرتها من العبث أيضا، حيث قالت[4]: «...وبالرغم من أن المصادر تشير لوجود علاقات تجارية لمكة مع اليمن، فيبدو أن المقصود بها هي تلك المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة، ورغما عن ذلك فإننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن البضائع التي كانوا يتاجرون فيها...».

إن نفي كراون لعلاقات مكة مع اليمن انطلاقا من ادعائها عدم معرفتها للبضائع التي كان تجار البلدين يتاجرون فيها، لا أساس له من الصحة، لأنها بنفسها تحدثت عن تجارة الطيوب وعن طريقها الذي ينطلق من اليمن إلى الشام مرورا بمكة. كما تحدثت أيضا عن دور المكيين في نقل الطيوب والعطور إلى بلاد الشام[5]. هذا فضلا عما ذكرته المصادر العربية عن عائلة بني مخزوم التي كانت تتاجر في بيع العطور التي تأتي بها من اليمن[6].

يبدو أن كراون تناقض نفسها عن قصد أو عن غير قصد بذكرها لحقائق وأدلة تقوم بعدها

---

(1)-سورة آل عمران: الآية 75.

(2)-عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص312.

(3)-المرجع السابق، ص118.

(4)-المرجع نفسه، ص119.

(5)-المرجع نفسه، ص ص110، 136.

(6)-Emile demenghem : Op-Cit, P33.

بنفيها دون سند تاريخي موضوعي، سوى أنها تريد زرع الشك في كل ما تقدمه المصادر العربية من معلومات. وعلى الرغم من أن المصادر العربية قد كتبت في فترة متأخرة (بداية من القرن الثاني الهجري 2هـ/ الثامن الميلادي 8م)مما يدعو إلى وجود بعض التناقضات فيها انطلاقا من اعتمادها على الرواية الشفوية، إلا أن ذلك لا يدفعنا إلى نفي حوادث تاريخية ذكرتها وأكدها القرآن الكريم، وهو المصدر الوحيد الذي لم يتعرض للتحريف والتزييف.

وجملة القول أن التأريخ لعلاقات مكة مع الحواضر الحجازية والقبائل، وكذلك مع الدول المجاورة لها ليس بالأمر السهل على الباحث المبتدئ، خاصة إذا تعلق الأمر بالعلاقات الاجتماعية والثقافية والتجارية، وذلك قبل القرن الخامس الميلادي (5م) أي قبل تولي قصي بن كلاب أمرها. بسبب غياب المرجعية التاريخية المتمثلة في المصادر الأثرية والكتابية كالنقوش التي تتحدث عن الحوادث التاريخية مباشرة، كحادثة غزو تبع إلى مكة وغيرها من الأحداث التي أخذت طابع الأسطورة أكثر منها حدثا تاريخيا حقيقيا. وذلك لتضارب روايات الإخباريين حولها، وعدم ضبطهم لتاريخ معين لها.

أما فيما يتعلق بعلاقات مكة منذ أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الميلاديين، فإن الأمور قد أصبحت أكثر وضوحا من سابقتها، لكن ذلك لا ينفي صعوبة البحث عن الحقيقة التاريخية وسط تضارب روايات الإخباريين وتناقضها في بعض الأحيان. لذلك فقد حاولنا الاستفادة بقدر الإمكان على ما ورد فيها من معلومات بعد إخضاعها للنقد التاريخي الموضوعي وتحليلها تحليلا موضوعيا، حتى يتسنى لنا الاقتراب ولو نسبيا من الحقيقة التاريخية. التي تؤكد ظاهرة العالمية لمكة من خلال تعاملها مع أكبر إمبراطورتين في المنطقة في تلك الفترة ومساهمتها في التجارة الدولية انطلاقا من موقعها الجغرافي الممتاز الذي مكنها من أن تكون نقطة التقاء الطرق التجارية، بفضل وجود بيت الله فيها وقيام أهلها على خدمته وخدمة زواره في موسم الحج الذي حولوه إلى موسم اقتصادي وثقافي، بإقامتهم لأشهر أسواقهم الداخلية فيه.

كما أن تنشيط التجارة الداخلية في مكة سمح لأهلها بجمع ثروات طائلة قد ساعدتهم على الخروج بتجارتهم من محليتها إلى أسواق الدول المحيطة بهم، مستفيدين من الإيلافات والعهود التي جمعتهم بأرباب المال من رؤساء القبائل الضاربة على طول الطرق التجارية، وملوك الدول المحيطة بهم.

وقد اعتمدوا على ذكائهم الخاص في توطيد تلك الصلات عن طريق المصاهرات السياسية التي تضمن لهم حماية تجارتهم في جميع أنحاء المنطقة. وكذلك باشتراكهم في تقديس أغلب

معبودات تلك القبائل والشعوب التي يقومون بزيارتها عن طريق جمعهم لها ووضعها حول الكعبة، حتى يسهل على العابدين لها تأدية مختلف شعائرهم وطقوسهم أثناء إقامتهم بمكة.

[وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا][1]،

(*) (1)

[1]-سورة القصص: الآية 57.

(*)-

(1) -

خـــــاتمة

بعد دراستنا المعمقة لمختلف الجوانب المتعلقة بمكة، وعلاقاتها مع الحواضر الحجازية والقبائل والدول المجاورة لها، نخلص إلى النتائج الآتية:

أولا: لقد أدركنا من خلال تتبعنا للهجرات البشرية القادمة من اليمن إلى مكة أهمية موقعها الجغرافي الذي يمثل نقطة التقاء معظم الطرق التجارية، وهذا ما يؤكد صحة الآراء القائلة بأنها كانت إحدى المحطات التجارية التي أسستها القوافل التجارية اليمنية على طول الطريق التجاري الممتد بين اليمن وبلاد الشام.

ويعد مجيء سيدنا إبراهيم بابنه إسماعيل وزوجه هاجر إليها، وظهور زمزم فيها سببا في جعلها مركز استقطاب واستقرار للعديد من القبائل اليمنية التي هاجرت من اليمن نحو الشمال. والتي ازداد عددها بعد بناء سيدنا إبراهيم وابنه –عليهما السلام- للبيت العتيق، والمناداة في الناس بالحج. لتصبح بعدها تلك المحطة قرية أو أُمًا للقرى المحيطة بها، ومن ثمة يمكننا أن نطلق عليها مصطلح المدينة نتيجة للتطور الذي مرت به، لأنها قبل أن تصبح مقرا لإقامة ثابتة قد بدأت كمكان يجتمع فيه الناس من حين لآخر، ثم أصبح ذلك المكان مع مرور الزمن مقر اجتماع لإقامة الطقوس الدينية، يجذب إليه مجموعة من الأسر والعشائر، لأنه إلى جانب توفره على مزايا طبيعية فقد أصبح مركزا لقوى روحانية لها القدرة على جذبه. وهكذا ظهرت مدينة مكة، التي أصبحت مقرا لإقامة مختلف طقوس الحج بعد بناء كعبتها. كما كان لطبيعة مكة الجغرافية أثرها في تكوين ذهنية وطريقة تفكير سكانها، ومن ثمة معتقداتهم.

ثانيا: عرفت مكة نقلة نوعية بعد تولي قصي ولايتها، وازدهرت أوضاعها ازدهارا ملحوظا.

فبالنسبة لأوضاعها السياسية، فقد كان إنشاء دار الندوة بداية لمرحلة جديدة تبلورت فيها النظم القبلية القديمة، وهو مظهر من مظاهر انتقال السلطة من شكلها البدائي البسيط إلى سلطة رئيس لمدينة أكثر تطورا وتنظيما. حيث أصبح مجلس الملأ هو وسيلة الحكم في مكة، وعلى الرغم من هذا التطور، فإنه من العسير أن نحدد لمكة نظاما للحكم، لأنه وإذا كنا قد تعرضنا إلى بعض مظاهر الزعامة بمكة في عهد قصي، الذي جمع كل السلطات في يده، فإن استمرارها بعده يعد أمرا معنويا. حيث اشتركت عدة شخصيات منهم في صنع قرارات مجلس الملأ، الذي كان أعضاؤه ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية فيها.

لذلك يمكننا القول، أن مكة قد عرفت نظاما دينيا وقبليا في البداية، على اعتبار أن مجتمعها قد حافظ على شكله القبلي، ثم تطور شيئا فشيئا حسب ما تقتضيه مصلحة المدينة، وذلك من خلال ظهور وظائف جديدة شكلت جهازه الإداري وأغلب مؤسساته الحكومية.

وبعد دراستنا لمختلف تلك الوظائف، خلصنا إلى ما يلي: تنقسم تلك الوظائف إلى نوعين هما: يتمثل النوع الأول في الوظائف المتعلقة بالكعبة، وخدمة زوارها. ويتعلق الثاني: بإدارة الشؤون العامة للمجتمع المكي القديم.

كما وجدنا أن قريشا قد أظهرت قدرة كبيرة على التنظيم، حيث استطاعت أن تنشئ نظاما إداريا أكثر تطورا وتنظيما، وإن بقي في جوهره تنظيما قبليا. لقد كان نجاح حكومة الملأ في المحافظة على تماسك مجتمعه مقرونا بتوزيع تلك الوظائف على كافة البطون القرشية، وبالتالي مساهمتهم جميعا في حكم مدينتهم وإدارة شؤونها. بعيدا عن جو التنافس والتناحر القبلي الذي كانت تعاني منه معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة.

ثالثا: أما بالنسبة لأوضاعها الاجتماعية، فقد عرفت هي الأخرى شكلا أكثر تنظيما، فبعد دراستنا للأسرة المكية وطريقة تكونها، ومكانة كل فرد فيها والعلاقات بينهم، ولمختلف عاداتهم وتقاليدهم الحسنة منها والسيئة، توصلنا إلى النتائج الآتية:

أن المجتمع المكي قد حافظ على تماسكه وقوته انطلاقا من النشأة السليمة لمعظم أسره، التي تكونت بطريقة منظمة عن طريق الزواج بشكله الرسمي، الذي عليه الناس اليوم تقريبا، على الرغم من وجود بعض الأنكحة الفاسدة التي كانت سائدة فيه، لأنه لم يكن لذلك الزواج أن يستمر لولا قيامه على أسس متينة، حيث حفظت لنا عاداتهم حق كل من الرجل والمرأة في اختيار كل منهما لشريكه، وفق أسس مرتبطة في الأصل بظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية التي تنشأ فيها تلك الأسرة.

غير أن هذا لا يمنع إمكانية حدوث خلافات يقومون بحلها عن طريق الطلاق الذي يعتبر الحل النهائي لمعاناة أحدهما أو كليهما، بسبب سوء اختياره. وعليه فقد تمتع أفراد الأسرة المكية بنوع من الحرية، رغم تعرض بناتها إلى الظلم عن طريق التفريق بينهن وبين اخوتهن في المكانة بتفضيل الذكور على الإناث، حيث لم يتوقف الأمر عند مسألة التفضيل فقط، بل تعداه إلى وضع حد لحياتهن منذ ولادتهن بواسطة الوأد. غير أن انتشار هذه العادة الذميمة في أوساط المكيين لم تكن منتشرة بنفس الدرجة التي كانت عليها عند باقي القبائل العربية.

وقد تطرقنا إلى مختلف الأسباب التي أدت إلى استفحال هذه الظاهرة في المجتمع العربي القديم بصفة عامة والمكي بصفة خاصة. ومع ذلك، فقد حافظت المرأة على مكانتها في المجتمع المكي القديم بمشاركتها للرجل في الكثير من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية، وحتى الحربية منها والثقافية، فكانت منهن التاجرة، والشاعرة، والكاهنة.

بالإضافة إلى وجود مثل تلك العادات السيئة، فقد انتشرت عادات أخرى حسنة كالكرم

والشجاعة وحماية الجار.

كما مكنتنا هذه الدراسة أيضا من تصنيف المجتمع المكي القديم حسب ثروة أفراده إلى ثلاث طبقات اجتماعية، هي: الطبقة الغنية، الطبقة المتوسطة، والطبقة الفقيرة.

رابعا: أما بالنسبة للأوضاع الاقتصادية، فقد أتاحت لنا دراستها معرفة مختلف النشاطات الاقتصادية التي مارسها المكيون القدامى، ومختلف مصادر عيشهم.

فقد كان لبيئة مكة وقسوة مناخها وما تميزت به جغرافيتها من جبال وصحار وشعاب دورا كبير في تحديد نشاط سكانها، الذين نجحوا في التأقلم معها واستغلال ما فيها. فمارسوا الصيد وتربية الحيوانات إضافة إلى بعض الحرف اليدوية، والتجارة التي شكلت المصدر الرئيس لعيشهم. حيث اشتهر المجتمع المكي بممارسته للتجارة، حتى أن بعض الإخباريين اعتبروا أن اسم قريش مشتق من التقرش وهو التجارة. وما يؤكد انكباب المكيين على تلك الحرفة، هي تلك الأسواق التي تقام في الأشهر الحرم، كسوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذو المجاز، إضافة إلى إرسالهم لقوافلهم إلى معظم أسواق العرب الخارجية، كسوق دومة الجندل، وسوق عدن وغيرهما.

خامسا: ومن النتائج التي توصلنا إليها بدراستنا لأوضاع مكة الثقافية، هي تعدد عناصر ثقافتها بين الشعر والأدب والكتابة واللغة ومختلف العلوم وغيرها.

وبالنسبة للغة، فيكفيها فخرا أنها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وذلك لما تتميز به عن باقي اللهجات العربية الأخرى، وذلك لما تتمتع به من غزارة الألفاظ ودقتها وعذوبتها، نظرا لعناية أصحابها بها. حيث أصبحت عنوانا لسمو مداركهم في جميع المجالات. ومما زاد من أهميتها هو استعمال أكثر العرب لها في منتدياتهم الرسمية مثل سوق عكاظ، فكانوا ينظمون بها أشعارهم وقصائدهم.

أما الكتابة، فقد كانوا كغيرهم من العرب القدامى قليلي الاهتمام بها، إلا إذا تعلق الأمر بكتابة السندات والرسائل وتدوين الديون وغيرها. وكذلك بالنسبة لقولهم الشعر، فلم يكونوا أشعر العرب بقدر ما كانوا أتجرهم، غير أن ذلك لا يعني أنهم تركوا قوله بل تفننوا في قوله بمختلف أغراضه. كما اعتمدوا على قول المثل والحكمة التي شكلت الدليل المناسب على تجاربهم ودقة نظرهم.

ولما كان المكيون شديدي التأثر ببيئتهم، فقد اكتسبوا العديد من المعارف منها: الكهانة، والعرافة، والقيافة، ومعرفة منازل النجوم للاستدلال بها أثناء تنقلهم من مكان إلى آخر. كما يبدو أن تأثر المكي ببيئته من جهة وبالمجتمعات القريبة منه من جهة أخرى يظهر بوضوح من خلال تعدد معتقداته وانتماءاته الدينية بين الحنفية والوثنية والنصرانية واليهودية، والأهم من ذلك أن تعايش المنتمين إليها في مجتمع واحد، مستفيدين من التسامح الديني الذي كان سمتهم الرئيسة في إقامة

علاقاتهم الداخلية والخارجية. على الرغم من انقسامهم إلى طوائف ، لكل طائفة منهم معتقداتها وطقوسها الخاصة بها. لكنهم يجمعون على فكرة واحدة، تتمثل في وجود الله كخالق للكون ومسير له. حيث كانوا يقرون بوحدانية الله لكنهم يشركون معه آلهتهم، هذا بالنسبة للمشركين، أما أهل الكتاب سواء كانوا نصارى أو يهودا فقد كانوا قلة بمقارنتهم مع المشركين، الذين شكلوا غالبية أفراد المجتمع المكي.

سادسا: لقد كان لازدهار مختلف أوضاع مكة الداخلية السياسة والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية أثره على خروج مكة من محليتها إلى العالم الخارجي، خاصة من الناحية الاقتصادية، حيث شكلت التجارة اللبنة الأولى التي بنى عليها المكيون القدامى علاقاتهم مع الحواضر الحجازية القريبة منهم، مثل يثرب والطائف، وكذلك القبائل المرابطة على طول الطرق التجارية. بالإضافة إلى علاقاتها الخارجية مع الدول المجاورة لها، كدولة الروم البيزنطيين، والفرس، والحبشة، واليمن.

إن المتتبع لعلاقات مكة مع حاضرتي يثرب والطائف يدرك مدى نجاح السياسة المكية تجاه هاتين الحاضرتين، حيث حاولت مكة احتواء كلا منهما، لأنها تعي جيدا أهميتهما الاقتصادية بالنسبة لها، فقد كان تكامل المجتمعات الثلاث، مجتمعي يثرب والطائف الزراعيين ومجتمع مكة التجاري يبدو واضحا. غير أن تبوأ المجتمع المكي لمكانة الريادة بينهما، كان بفضل سياسته الرشيدة وخبرته الواسعة في إقامة العلاقات الداخلية والخارجية، بالإضافة طبعا إلى وجود بيت الله في حاضرتهم، وقيامهم على خدمته، وخدمة زواره. أضف إلى ذلك احترام معظم القبائل لهم عن طريق الإيلافات التي عقدها زعماء مكة مع زعماء القبائل، والإغراءات المالية التي كانوا يقدمونها لهم، حتى تكون تجارتهم في مأمن خارج مدينتهم، لأنهم داخلها لم يكونوا بحاجة إلى حماية، لأن الله قد مكنّ لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء.

لقد كان لأسلوب اللين والحياد الذي انتهجته قريش في علاقاتها، سواء مع القبائل أو الحواضر الحجازية دور كبير في جعل مكة ترتبط بعلاقات حسنة مع معظم الدول المجاورة لها. حيث خرج أبناء عبد مناف بن قصي فعقدوا العقود وأخذوا المواثيق من ملوك الدول المجاورة لهم حتى يسمحوا لتجار قريش بدخول أسواقهم والمتاجرة فيها. ومع ذلك فإن تلك العلاقات الحسنة لم تدم طويلا بسبب طمع تلك الدول في السيطرة على شبه الجزيرة العربية بصفة عامة، ومكة على وجه الخصوص، نظرا لما تتمتع به هذه الأخيرة من مكانة اقتصادية ودينية ، لكن فشلها في تحقيق مخططها الاستعماري زاد من أهمية هذه المدينة وأكسبها شهرة إلى شهرتها. لذلك، فقد استمرت مكة في علاقاتها مع تلك الدولة لأن مصالحها مرتبطة بها.

الفهارس

أولا: فهرس الآيات الكريمة

ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية

ثالثا: فهرس الأعلام

رابعا: فهرس الأماكن

خامسا: فهرس القبائل

سادسا: فهرس الموضوعات

أولا: فهرس الآيات القرآنية

نص الآية	رقمها	الصفحة
-البقرة-		
[وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا...].	125	133
[وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ...].	128-127	27
[وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ...].	170	44
[فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ...].	200	17
[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ...].	282	81
-آل عمران-		
[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...].	14	71
[مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا..].	67	90-89
[...وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...].	75	160
[إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا...].	96	3
[...وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...].	97	133
-النساء-		
[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ...].	23	56
-المائدة-		
[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ...].	94	67
-الأنعام-		
[...وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...].	92	5
[ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...].	143	7
-الأنفال-		
[وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...].	35	3
[وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...].	60	71

-إبراهيم-		
[وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ...].	4	80
[رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ...].	37	26-25
-النحـــل-		
[وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ...].	7-5	69
[وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا...].	14	68-67
[وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا...].	59-58	59
[...وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ].	103	80
[وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً...].	112	6
-الإسراء-		
[وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ...].	31	60
-الكهـف-		
[قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي...].	109	82
-الحـج-		
[وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا...].	27-26	27
-النـور-		
[وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...].	33	55
-النمـل-		
[إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ...].	91	5
-القصص-		
[...أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا...].	57	121
[إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...].	85	7
-فـاطـر-		
[...وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...].	12	68

-الشـورى-		
[وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...].	7	5
-الزخرف-		
[وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ].	31	118-117
-الفتـح-		
[وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ...].	24	2
-النجـم-		
[أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى... أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى]	21-19	113 ،100
-الواقعة-		
[وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا].	5	7
-القلـم-		
[ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ].	1	86
-البـروج-		
[قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ...]	7-4	153
-البـلـد-		
[لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ].	2-1	4
-التين-		
[وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ].	3	5
-العلـق-		
[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ...]	4-1	82
-الفيل-		
[أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...].	5-1	151
-قريش-		
[لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ...].	4-1	133

ثانيا: فهرس الأحاديث

نص الحديث	الصفحة
«إن الله حبس على مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين...»	02
«الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض...»	05
«من صبر على حرّ مكة تباعدت منه جهنم مسيرة مائة عام...»	19
«عدنان بن أدد بن زيد الثرى بن أعراق الثرى...»	28
«لا تسب ربيعة ولا مضر إنهما كانا مؤمنين...»	28
«نحن قريش بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا»	33
«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى من كنانة قريش»	33
«أيها الناس إن صريح ولدي آدم عليه السلام من الأولين والآخرين أبناء كلاب بن مرة...»	34
«أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعالك...»	47
«خير النساء ركبن الإبل، صالح ساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاهم على زوجه...»	51
«انكحوا الأبكار فإنهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما...»	51
«لا شغار في الإسلام»	54
«ولم يكن لهم يومئذ الحب ولو كان لهم لدعا لهم فيه...»	66
«ارموا بنو فلان فإن أبيكم كان راميا...»	67
«ما بعث الله نبيا إلا يرعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله قال نعم...»	70
«الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة...»	71
«بطونها كنز وظهورها حرز وأصحابها معانون عليها...»	71
«لقد شهدت في دار بن جدعان حلفا ما أحب أنّ لي به حمر النعم...»	78
«لقد رأيت عمرو بن لحي أبو خزاعة يجر قصبه في النار...»	96

ثالثا: فهرس الأعلام

أسماء الأعلام	الصفحة
إبراهيم	هـ، 13، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 32، 53، 85، 89، 90، 91، 93، 96، 97، 163
أبرهة أبرهة	69، 93، 97، 115، 116، 137، 144، 145، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 158
ابن الأثير	58
ابن الكلبي	70، 90، 96، 99
ابن حزم	و
ابن حوقل	20، 21
ابن خردادبة	د، 19
ابن سعد	و، 117، 132، 136، 148، 149
ابن سيده	8
ابن عباس	7، 24، 70، 118
ابن كثير	و، 6، 16
ابن ماجه	و
ابن هشام	و، 14، 29، 141، 149، 153، 158
أبو أحيحة سعيد بن العاص	55، 64، 65، 79
أبو البقاء بن الضياء	9
أبو القيس بن الأسلت	64
أبو بكر	87
أبو تمام	125
أبو جهل	134، 160
أبو ربيع بن المغيرة	142
أبو رغال	115، 116، 150
أبو سفيان	47، 48، 52، 56، 64، 75، 79، 112، 127، 134، 159
أبو سليط طريف بن تميم	65

أبو طالب	53، 135
أبو عمرو بن أمي	64
أبو غبشان الخزاعي	32، 34، 40
أبو قيس بن عبد مناف	127
أبو لهب	134
أحمد إبراهيم الشريف	ز
أحمد جاد المولى	ز
الأخنس بن شريف	18، 114
أرياط	149
الأزرقي	ز، 2، 7، 13، 16، 20، 22، 26، 29، 30، 116، 141، 144
أسد بن خزيمة	139
أسماء بنت مخرمة	79
إسماعيل	هـ، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 33، 53، 56، 66، 67، 70، 71، 85، 89، 90، 123، 139، 163
الأسود بن عبد المطلب	63
الأسود بن مفصود	150
الأصبهاني	91
الاصطخري	د، 110
الأصفهاني	ز
الأصمعي	59
الأكثم بن صيفي	50، 71، 85، 86
الألوسي	ز، 55، 71، 108
أم خارجة عمرة بنت سعد	51، 57، 58
أم عليط	55
آمنة بنت أبان بن كليب	54
أمية بن أبي الصلت	81، 82، 112، 146، 147، 159
أمية بن خلف	74
أمية بن عبد شمس	54، 61

أنمار	28
أوس بن حارثة	52
أوس بن حجر	54
إياد	31، 81
باتريشيا كراون	134، 160
بجيلة	28
بحيرا	135
البخاري	و، 7
بختنصر البابلي	28، 105، 156
البراض الكناني	125، 129
بروكلمان	10
بشر بن عبد الملك	80، 159
بطلميوس	11، 22
البلاذري	14، 73، 127
بهرام جور ملك الفرس	35
تبّع أسعد أبو كرب	17، 139، 141، 142، 161
تخمر بنت قصي	84
توفيق برو	ز
تيم بن مرة	48
الثعالبي	121
جستينيان	130
جواد علي	ز، 11، 74، 114، 131
جوشم بن جلهمة الجرهمي	28
جيداء بنت خالد بن جابر	54
الحارث بن كلدة الثقفي	88
حارث بن مضاض	16، 29
حارثة بن عوف	52
حبى بنت حلي	34، 127

حرب بن أمية	60، 64، 80، 124، 125، 126، 127، 159
الحكم بن أبي العاص	112، 158
حليل بن حبشية الخزاعي	34، 40
حمزة بن عبد المطلب	83
خالد بن الوليد	48
خداش بن زهير	126
خديجة بنت خويلد	52، 53، 78، 142
الخطاب بن نفيل	76، 155
خويلد بن أسد	146
خويلد بن وائلة الهذلي	150
دلمن بن عبد الملك	110
ذو النواس الحميري	153
ذو نفر	144، 149، 150
رابط الثقفية	112
ربيعة بن حرام	28، 34
رزاح بن ربيعة	34، 37
رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف	112
روبرت مكايفر	42
الزبير بن عبد المطلب	83، 85، 86
الزرقاء بنت زهير	87
زمعة بن الأسود بن عبد المطلب	138
زمعة بن عبد المطلب	63
زهرة بن كلاب	18، 34، 61، 78
زهير بن جناب الكلبي	119
زيد بن عمرو بن نفيل	60، 91، 92، 94، 101، 102
السائب بن أبي وداعة	18
السائب بن السائب المخزومي	76
سارة	هـ

سبتيمو مسكاتي	45
سبيعة بنت عبد شمس	60، 72، 112
سريقة	55
سعيد الأفغاني	157
سفيان بن عمرو القمري	127
سلمى بنت عمرو	52، 57، 108
سليمان	101
سهيل بن عمرو	52
السهيلي	8، 95
سيف بن ذي يزن	112، 144، 145، 146، 147
شامة بنت مهلهل بنت عوف	28
الشرقي بن القطاني	2
الشمردل بن قباب الكعبي	88
صاعد الأندلسي	79
صالح دراركة	121
صفوان بن أمية	48، 55، 56، 75، 134
صفية بنت المغيرة بن عبد الله	56، 94
صفية بنت عبد المطلب	72، 73
صلصل بن أوس	119
الصهباء بنت حرب	80، 159
الطبري	و، 3، 6، 38، 58
عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل	51
عاتكة بنت مرة	57
العاص بن وائل	55، 78، 113
عامر بن شجم اليشكري	58
عامر بن مالك	126
العباس بن عبد المطلب	83، 113، 142
عبد الدار	34، 42، 43، 45، 46، 47، 73، 96

عبد العزى	34، 42، 43، 78، 96
عبد الله بن جدعان	55، 63، 78، 124، 126، 127، 159
عبد الله بن ربيعة	142
عبد الله بن عبد المطلب	69، 94
عبد الله بن عمرو بن العاص	3
عبد المطلب	35، 47، 51، 53، 56، 64، 69، 72، 73، 81، 83، 84، 85، 87، 91، 93، 97، 102، 109، 112، 117، 127، 128، 135، 142، 144، 146، 147، 150، 151، 153، 154
عبد شمس بن عبد مناف	47، 57، 112، 127، 148، 159
عبد قصي	34، 96
عبد مناف بن قصي	34، 42، 45، 54، 57، 61، 96، 108، 112، 120، 127، 133، 134، 146، 148
عبيد بن شرية	23
عتبة بن ربيعة	47، 84
عثمان بن الحويرث	90، 100، 137، 138
عدنان بن أدد	28، 34
عدي بن زيد	156
عروة بن الورد	107
عروة بن عتبة الكلابي	125
عروة بن مسعود	112، 118
العسقلاني	و
عكرمة بن عامر	43، 46
علي بن أبي طالب	18
عمارة بن الوليد	149
عمر بن الخطاب	18، 48، 82، 113، 155
عمر فروخ	82
عمرو بن الحارث الغبشاني	30
عمرو بن العاص	113، 134، 149، 155

عمرو بن تميم	119
عمرو بن جفنة الغسان	138
عمرو بن عثمان المخزومي	55
عمرو بن عدي	156
عمرو بن عوف الشداخ	35
عمرو بن لحي	32، 38، 40، 96، 97، 98، 99، 131، 142
عمرو بن مرثد	123
عمرو بن نفيل	54
عنترة بن شداد	88
الفاسي	43
فاطمة بنت عمرو	69
فاطمة بنت مر الخثعمية	87
الفاكهة بن المغيرة	52
فليب حتي	43
فهر بن مالك	33
القزويني	110
قس بن ساعدة الإيادي	82، 85، 86، 93
قس بن منبه بن بكر	111
قصي بن كلاب	ح، 16، 22، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 40، 41، 42، 43، 46، 47، 48، 61، 72، 74، 78، 83، 84، 85، 96، 97، 118، 119، 131، 132، 160، 163
القلقشندي	و
قيدار	28
قيس بن عاصم السعدي	64
قيس بن عاصم المنقري	85
كسرى أنو شروان	145، 159
كعب بن لؤي	35، 40، 85
كلاب بن مرة	34

لامنس	37، 43
لبى بنت هاجر بن عبد مناف	128
لويس مامفورد	23
الماوردي	2، 3، 8
مجد الدين الشيرازي	2
محارب بن صرب بن مهرة	143
محمد الخزاعي	152
محمد بن حبيب	58، 65، 99، 123
محمد بن عبد الله	2، 5، 9، 19، 24، 33، 34، 37، 51، 53، 54، 66، 67، 70، 71، 76، 78، 87، 90، 91، 96، 135، 141، 142، 158
المخزومي	2
مزيقيا بن ماء السماء	29، 30، 106
مسافر بن عمرو بن أمية بن المغيرة	63
مسروق بن وائل الكندي	144
مسعود بن مالك الثقفي	60، 111، 112، 116، 127
مسعود بن معتب الثقفي	115
المسعودي	ز، 24، 25، 29، 87
مسلم	و
مصطفى الرافعي	106
مصعب الزبيري	و، 100
مضاض بن عمرو	28
مضر	28، 31
مطرود الخزاعي	133
المطلب	57، 58، 127، 142، 147، 148
معاوية بن أبي سفيان	43، 46
معدّ بن عدنان	28، 83
المقديسي	د
نابت بن إسماعيل	27، 29

نابونيد	11
نافع بن علقمة	18
نبيه عاقل	ز
النجاشي	148، 149، 151، 152
نزار بن معد	28، 30، 31
نضلة بن هاشم بن عبد مناف	155
النظر بن كنانة	33، 34، 85، 139
النعمان بن المنذر	35، 125، 145، 157، 158
نفيل بن حبيب الخثعمي	150
نفيل بن عبد العزى	54، 64
نوح	96
نوفل بن عبد العزى	127، 128
نوفل بن عبد مناف	54
النووي	8، 9
هاجر	هـ، 22، 23، 24، 163
هاشم النعيمي	152
هاشم بن عبد مناف	33، 47، 52، 54، 57، 61، 63، 78، 82، 84، 108، 109، 120، 121، 128، 130، 132، 133، 134، 136، 146، 148
هذيل بن مدركة	97، 140
هشام بن العاص بن المغيرة	17
هشام بن المغيرة	79، 126، 142
هشام جعيّط	32
الهمذاني	23، 74
هند بنت أبي عتبة	51، 52، 84
هند بنت المغيرة بن عبد الله	56
هوستن سميث	65، 66
وج بن عبد الحي	111

ورقة بن نوفل	9، 90، 100، 101، 102
وقاء بن عبد العزى	127
الوليد بن المغيرة	74، 118، 142
ياقوت الحموي	2
يزيد بن زمعة بن الأسود	48، 134
اليعقوبي	د، 19
يعمر بن نفالة بن عدي	150

خامسا: فهرس الأماكن

أسماء الأماكن	الصفحة
أذرعات	136
بئر السبع	هـ، 24
بصرى	76، 119، 134، 135، 136
البلقاء	96، 136
تهامة	25، 36، 99، 125، 143، 150
تيماء	101، 105
جرش	143
حباشة	142
الحبشة	ط، 62، 116، 117، 120، 129، 130، 135، 136، 145، 148، 151، 158، 166
الحجاز	ب، د، 11، 12، 13، 15، 28، 30، 36، 67، 79، 87، 100، 105، 106، 110، 111، 114، 115، 122، 128، 134، 136، 139، 142، 146، 152
الحجون	16، 17، 29
حضر موت	111، 143
حوران	81، 136
الحيرة	119، 122، 125، 145، 156، 157، 158، 159، 160
خيبر	101، 125
دمشق	134
دومة الجندل	80، 123، 159، 164
ذو المجاز	76، 80، 130، 134، 152، 164
سوريا	134، 160
الشام	ب، هـ، 24، 30، 32، 37، 52، 62، 63، 65، 66، 75، 78، 79، 91، 96، 98، 100، 108، 109، 117، 119، 120، 121، 122، 129، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 138، 142، 144، 148، 159، 160
الشحر	142

صنعاء	143، 146
الطائف	جـ، ط، 19، 75، 76، 99، 104، 108، 110، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 129، 143، 150، 157، 158، 166
ظفار	144
عدن	142، 143، 164
العراق	36، 65، 76، 82، 121، 123، 156، 157، 158، 159
عرفات	15، 77، 97، 111
عكاظ	64، 65، 76، 77، 80، 93، 124، 126، 130، 134، 152، 158، 164
عمان	142
غزة	109، 119، 136
فارس	75، 159، 160، 166
قباء	104، 105
القدس	10
مجنة	76، 77، 80، 130، 134، 152، 164
مر الظهران	77
المزدلفة	15، 97
مصر	75، 120، 160
المغمس	115
مكة	لم أفهرسها لأنها ذكرت في معظم فصول المذكرة
منى	16، 77
نجد	125
نجران	101، 129، 143، 153
نخلة	76، 99، 125، 126، 130
الهند	75، 135، 145
واد العقيق	104، 105
يثرب	ح، 10، 52، 100، 101، 104، 105، 106، 107، 110، 128، 140، 166
اليمن	ب، هـ، 22، 24، 26، 29، 30، 65، 75، 76، 78، 79، 101، 106، 108، 117، 119، 121، 129، 130، 132، 135، 136، 139، 140، 142، 144، 145، 147، 149، 151، 152، 153، 154، 155، 158، 160، 163، 166

ثالثا: فهرس القبائل

اسم القبيلة	الصفحة
أسد	123، 126، 128، 129، 134، 139
الأوس	100، 106، 109، 130
بجيلة	130
تميم	119، 122، 128
ثقيف	99، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 128، 159
جديلة	123
جذام	128
جرهم	14، 16، 20، 28، 29، 31، 75، 76، 78، 95، 106، 139
جهينة	29، 111، 128
الحيا	129
خزاعة	16، 20، 28، 29، 31، 32، 34، 35، 37، 38، 71، 76، 84، 85، 96، 106، 127، 128، 131، 142، 154
الخزرج	100، 106، 107، 108، 109، 127، 130
دوس	130
ربيعة	123
سليم	76، 126، 128
طيء	120، 123
عذرة	34، 37، 111، 128، 132
عقيل	76
العماليق	22، 23، 25، 26، 75، 105، 106، 139
غطفان	119، 128
غفار	129
القارة	129
قريش	هـ، و، 5، 8، 17، 33، 35، 36، 37، 38، 40، 41، 43، 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 55، 56، 60، 62، 63، 69، 72، 80، 84، 85، 87،

قريش	93، 95، 97، 98، 99، 101، 102، 108، 109، 111، 112، 113، 114، 115، 116، 119، 120، 121، 122، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 135، 136، 137، 138، 141، 142، 143، 146، 147، 148، 150، 151، 153، 154، 157، 158، 159، 164، 165، 166.
قريضة	106، 140
قضاعة	35
قضاعة	120، 128، 130
قيس	60
قينقاع	106، 142
كلب	122، 123، 130
كنانة	29، 33، 35، 60، 111، 116، 124، 126، 127، 129، 130، 139، 158
مزينة	111، 128
المصطلق	76، 77، 129
مضر	123
النضير	106
هذيل	111، 129، 130 ، 139، 150
هوازن	76، 111، 124، 126، 128

سادسا: فهرس الموضوعات

مقدمة ..... أ

الفصل الأول: لمحة تاريخية عن مكة

المبحث الأول: أسماء مكة ومعانيها 2
المبحث الثاني: جغرافية مكة 11
المبحث الثالث: نشأة مكة وتطورها 21

الفصل الثاني: أوضاع مكة في عهد قصي بن كلاب وأبنائه

المبحث الأول: الأوضاع السياسية 40
المطلب الأول: نظام الحكم 46
المطلب الثاني: التنظيم الإداري 46
المبحث الثاني: الأوضاع الاجتماعية 50
المطلب الأول: الأسرة المكية 50
المطلب الثاني: القبيلة ومكانتها الاجتماعية 61
المطلب الثالث: القيم الأخلاقية عند المكيين 63
المبحث الثالث: الأوضاع الاقتصادية 66
المطلب الأول: الصيد 66
المطلب الثاني: تربية الحيوانات 68
المطلب الثالث: الموارد المائية في مكة 72
المطلب الرابع: الصناعة 73
المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية والدينية 79
المطلب الأول: الأوضاع الثقافية 79
المطلب الثاني: الأوضاع الدينية 88

الفصل الثالث: علاقات مكة بالحواضر الحجازية والقبائل والدول المجاورة

المبحث الأول: علاقات مكة مع الحواضر الحجازية والقبائل 104
المطلب الأول: علاقات مكة مع يثرب 104
المطلب الثاني: علاقات مكة مع الطائف 110

المطلب الثالث: علاقة مكة مع القبائل 118
المبحث الثاني: علاقات مكة بالدول المجاورة 130
المطلب الأول: علاقات مكة مع الشام 130
المطلب الثاني: علاقات مكة مع اليمن 139
المطلب الثالث: علاقات مكة مع الحبشة 145
المطلب الرابع: علاقات مكة مع الفرس 156
خاتمة 161
الملاحق 167
قائمة المصادر والمراجع 184
الفهارس
أولا: فهرس الآيات..... 203
ثانيا: فهرس الأحاديث 206
ثالثا: فهرس الأعلام 207
خامسا: فهرس الأماكن 217
رابعا: فهرس القبائل 219
سادسا: فهرس الموضوعات 221

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب المقدسة

1-القرآن الكريم

2-التوراة

ثانيا: المصادر

1- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) (ت257هـ): صحيح البخاري، ج2، ج4، ج7، دار مطابع الشعب، القاهرة، د-ت.

2- البغدادي (أبو جعفر محمد بن حبيب) (ت245هـ): المُحبر، تح: إليزة لختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، لبنان، د-ت.

3- البلاذري (أحمد بن يحيى) (ت279هـ): أنساب الأشراف، تح: محمد حميد الله، ج1، دار المعارف، مصر، 1959م.

4- : البلدان وفتوحها وأحكامها، تح: سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة، 1412هـ-1992م.

5- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد) (ت668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ط3، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981م.

6- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي) (ت630هـ): الكامل في التاريخ، مج2، دار صادر، بيروت، 1385هـ-1965م.

7- ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك) (ت630هـ): منال الطالب في شرح طوال الغرائب، ج1، تح: محمود محمد الطنحاوي، دار المأمون للتراث، دمشق، د-ت.

8- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) (ت597هـ): المنتظم في أخبار البشر، تح: محمد عبد القادر عطا، ج1، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م.

9- ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) (ت367هـ): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.

10- ابن خردادبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله) (ت300هـ): المسالك والممالك، ط1، مكتبة المثنى، بغداد، 1889م.

11- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن) (ت808هـ): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج1، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1961م.

12- : المقدمة، دار الفكر الإسلامي، 2004م.

13- ابن سعد: طبقات الكبرى، مج1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1960م.

14- ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي) (ت456هـ): جمهرة أنساب العرب، تح: إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، 1948م.

15- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن علي) (ت671هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، مج3، دار صادر، بيروت، لبنان، د-ت.

16- ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى): كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

17- ابن سلمان اليمني (أبو محمد عبد الله بن أسعد) (ت768هـ): مرآة الجنان وعبر اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مج1، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ-1993م.

18- ابن سلام (أبو عبيد القاسم) (ت224هـ): كتاب الأمثال، تح: عبد المجيد قطامش، ط1، دار المأمون للتراث، دمشق، 1400هـ-1980م.

19- ابن القاسم (أبو القاسم عبد الرحمن) (ت339هـ): الأمالي في المشكلات القرآنية والحكم والأحاديث النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د-ت.

20- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله ابن مسلم) (ت276هـ): المعارف، تح: ثروت عكاشة، ط2، دار المعارف، مصر، د-ت.

21- : تفسير غريب القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، 1378هـ-1958م.

22- : الشعر والشعراء (طبقات الشعراء)، مطبعة ليدن، د-ت.

23- : كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، ج1، تح: سالم الكرنكوي، دار النهضة الحديثة، بيروت، لبنان، 1953م.

24- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدى إسماعيل) (ت774هـ): البداية والنهاية، ج1، تح: أحمد بن شعبان أحمد، ط1، مطابع دار البنيان الحديثة، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، 2003م.

25- : قصص الأنبياء من القرآن والأثر، تح: صدقي جميل العطار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003.

26- : تفسير القرآن العظيم، ج3، دار الأندلس للطباعة، بيروت، لبنان، د-ت.

27- ابن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب): كتاب الأصنام، تح: أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، 1965م.

28- : أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تح: أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة، 1965م.

29- ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني): السنن، ج2، د-ت.

30- ابن النديم (ت بعد 377هـ): الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1995م.

31- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) (ت213هـ): سيرة النبي ρ، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1975.

32- ابن الوردي (زين الدين): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد رفعت البدراوي، ج1، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1389هـ-1970م.

33- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد) (ت429هـ): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ج1، تح: خالد عبد الغني محفوظ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005

34- الجاحظ (أبو عثمان عمرو): البيان والتبيين، مج1، تح: عبد السلام هارون، ط4، دار الفكر، بيروت، لبنان، د-ت.

35- : الحيوان، مج1-3، تح: يحيى الشامي، ط3، دار مكتبة الهلال، 1990م.

36- : رسائل الجاحظ، ج1، تح: عبد الأمير علي مهنا، ط1، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1988م.

37- الجرهمي (عبيد بن شرية): أخبار عبيد بن شرية في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، الهند، 1347هـ.

38- الحلبي (علي برهان الدين): السيرة الحلبية، د-ت.

39- الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، ط2 مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، 1980م.

40- الزبيري (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله) (ت236هـ): كتاب نسب قريش، تح: إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1953م.

41- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله) (ت250هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، تح: علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 1424هـ-2003م.

42- الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر): كتاب الجغرافيا وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب، تحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د-ت.

43- السمعاني (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور) (ت262هـ): الأنساب، ج1، تح: عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، د-ت.

44- السهيلي (أبو القاسم عبد الرحمن) (ت571هـ): الروض الأنف، ج1، مطبعة الجمالية، مصر، 1914م.

45- الشنتمري (يوسف بن سليمان بن عيسى) (ت476هـ): أشعار الشعراء الستة الجاهليين، ج1 ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401هـ-1981م.

46- الشهرستاني: الملل والنحل، ج3، المطبعة الأزهرية، 1951م.

47- الأصبهاني (أبو الفرج علي بن حسين بن محمد) (ت بعد 356هـ): الأغاني، ج1، 2، 7، تح: محمد حسين الأعرجي، المؤسسة الوطنية، الرغاية، الجزائر، 1992م.

48- الأصفهاني (حسن بن عبد الله) (ت310هـ): بلاد العرب، تح: حمد الجاسر، صلاح العلي، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، د-ت.

49- الأصفهاني (حمزة بن الحسن): تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط3، دار الحياة، بيروت، 1965.

50- الاصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي) (ت القرن 4هـ): المسالك والممالك، تح: جابر عبد العالي الحيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961.

51- الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) (ت216هـ): الأصمعيات، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، د-ت.

52- الطبري (أبو جعفر بن جرير) (ت310هـ): تاريخ الملوك والأمم، ج2، مكتبة خياط، بيروت، لبنان، 1965م.

53- : جامع البيان عن تأويل آيات القرآن، ج4، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1984م.

54- الظبي (أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم) (عاش في القرن 03هـ): الفاخر في الأمثال العربية، ط1، مطبعة النهضة، تونس، 1353هـ-1934م.

55- العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر) (ت852هـ): فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مج3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د-ت.

56- الفاسي المكي (محمد بن أحمد بن علي) (ت832هـ): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تح: مصطفى محمد الذهبي، ج1، 2، ط2، مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1999م.

57- : الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تح: محمد زينهم، محمد عزب، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 1425هـ-2004م.

58- القرشي (أبو زيد محمد بن الخطاب) (عاش في القرن 3هـ): أشعار العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.

59- القرشي (الزبير بن بكار) (عاش في القرن 2هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها، تح: محمود محمد شاكر، ج1، مطبعة الميداني، القاهرة، 1381هـ.

60- القزويني (زكريا بن محمد محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، لبنان، 1380هـ-1960م.

61- القلقشندي (أبو العباس أحمد) (ت756هـ): صبح الأعشا، ج1، دار الكتب المصرية، 1340هـ.

62- : نهاية الأرب في معرفة أسباب العرب، تح: إبراهيم الأبياري، ط1، القاهرة، 1959.

63- الماوردي (أبو الحين علي بن محمد بن حبيب) (ت450هـ): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د-ت.

64- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن بن علي) (ت346هـ): مروج الذهب ومعاني الجوهر، ج2، تح: يوسف أسعد داغر، ط1، دار الأندلس، بيروت، 1965م.

65- التنبيه والإشراف، تح: عبد الله إسماعيل، دار الصاوي للنشر، القاهرة، 1357هـ.

66- المقديسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد) (ت380هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تح: محمد أمين الضناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.

67- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) (ت518هـ): مجمع الأمثال، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1961.

68- النويري (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب) (ت733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر 16، دار الكتب المصرية، 1955م.

69- الهمذاني (أبو بكر أحمد بن محمد): مختصر كتاب البلدان، د-ت.

70- الهمذاني (الحسن بن أحمد بن يعقوب) (ت334هـ): صفة جزيرة العرب، تح: محمد بن علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1974م.

71- : كتاب الإكليل، ج1، تح: محمد علي الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1963م.

72- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق) (ت284هـ): البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1422هـ-2002م.

73- : تاريخ اليعقوبي، مج1، دار صادر، بيروت، د-ت.

74- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تح: حياة علون، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1985.

75- عبد ربه الأندلسي: كتاب العقد الفريد، ج1، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1384هـ-1965م.

76- مسلم (أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم) (ت261هـ): صحيح مسلم، ج4، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1972.

77- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تح: سعد زغلول عبد الحميد، دائرة الشؤون الثقافية العامة، د-ت.

78- وهب بن المنبه: كتاب التيجان في ملوك حمير، ط1، مطبعة مجلس، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1347هـ.

ثالثا: المراجع العربية

1- إبراهيم الشريفي التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرنا منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر، ط2، 1971.

2- إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية، الحج وشعائره الدينية، ج1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1344هـ-1925م.

3- أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي: شرح المقامات الحريرية، ج2، د-ت.

4- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج6، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د-ت.

5- أبو عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، تح: ظافر كوجان، دار اليقظة العربية، بيروت، 1969.

6- أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م.

7- : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000.

8- أحمد أمين سليم: جوانب من تاريخ العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1998م.

9- : تاريخ العرب القديم، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1998.

10- أحمد الهاشمي بك: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ط14، مطبعة السعادة، 1347هـ-1928م.

11- أحمد بن محمد المكي: أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تح: الحافظ غلام مصطفى، ط1، دار الصحوة، القاهرة، 1405هـ-1975م.

12- أحمد جمال العمري: الشعراء الحنفاء، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1981م.

13- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهية، ج1، ط2، مطبعة مصطفى البابلي، مصر، 1381هـ-1962م.

14- أحمد زيني المشهور بدخلان: السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج1، المطبعة الميمنية، مصر، 1306هـ.

15- أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون: المفضليات، ج2، دار المعارف، مصر، 1352هـ

16- أمين دويدار: صور من حياة الرسول ρ، ط3، دار المعارف، مصر، 1953.

17- ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، تح: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996.

18- باتريشيا كراون: تجارة مكة وظهور والإسلام، تر: آمال محمد بروبي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، 2005.

19- توفيق برو: تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق، سورية، 1981.

20- جرجس داود داود: أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1408هـ-1988م.

21- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980.

22- : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ط2، جامعة بغداد، 1413هـ-1993م.

23- جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1966.

24- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، ج1، ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1964.

25- حسين عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع الجاهلي، مكتبة النهضة، القاهرة، مصر، د-ت.

26- حضرة محمد أفندي غنيم: خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام، ط1، العامرة الشرفية، مصر، 1916.

27- حماد بن حامد السلمي: الشوق الطائف حول قطر الطائف، ط1، دار الشريف للطباعة، جدة، المملكة العربية السعودية، 1420هـ-1999م.

28- رؤوف شلبي: المجتمع العربي قبل الإسلام، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د-ت.

29- رشيد الناضوري: المدخل في التحليل المقارن الموضوعي، التاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1977م.

30- رمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1981.

31- روبرت مكيفر: تكوين الدولة، تر: حسن صعب، ط2، دار العلم للملايين، لبنان، 1984.

32- سبتيمو مسكاتي: الحضارات السامية القديمة، تر: السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة، د-ت.

33- سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1974.

34- سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، ط4، دار الفكر، 1402هـ-1982م.

35- سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، تر: عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، د-ت.

36- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، 1988.

37- ضرار صالح ضرار: العرب من معين إلى الأمويين، ط3، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1966.

38- عاتق بن غيث البلاوي: معجم معالم الحجاز، ج3، ط1، دار مكة، 1979م.

39- عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، د-ت.

40- : التاريخ والمؤرخون العرب، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

41- عبد القدوس الأنصاري: الكعبة أسماء وعمارات ومعبدا لا معبودا وتاريخا قبل الإسلام، مطابع جامعة الملك سعود، 1404هـ-1984م.

42- عبد اللطيف الطيباوي: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، ط3، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1402هـ-1982م.

43- عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج1، ط1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، د-ت.

44- عبد المجيد قطامش: الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988.

45- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، ط5، مكتبة الأنجلو-مصرية، القاهرة، 1975.

46- عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ط3، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، د-ت.

47- عدنان الترسيسي: بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى، اليمن، العربية السعيدة، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1990م.

48- علي الدين محي الدين: عبادة الأرواح والقوى الخفية في المجتمع العربي الجاهلي، ط1، مطابع الملك سعود، 1384هـ.

49- عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1970.

50- : تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1384هـ-1964م.

51- : تاريخ الأدب العربي، ج1، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1385هـ-1965م.

52- فاطمة قدورة الشامي: تطور تاريخ العرب السياسي والحضاري من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، دار النهضة العربية، د-ت.

53- فرتز هومل وآخرون: التاريخ العربي القديم، تر: فؤاد حسين علي وزكي، محمد حسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.

54- فليب حتي، جبرائيل جيتبور وآخرون: تاريخ العرب المطول، ج1، ط4، دار الكشاف، 1965.

55- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج1، تر: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1948م.

56- كمال الصليبي: الإطار الخارجي لجاهلية العرب، مطابع الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1984م.

57- كمال خلايلي: معجم كنوز الأمثال والحكم العربية النثرية والشعرية، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1998.

58- لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2003.

59- لويس ممفورد: المدينة عبر العصور، تر: إبراهيم نصحي، مكتبة الأنجلو-مصرية، القاهرة، 1964.

60- محمد إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط4، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1994م.

61- محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ρ في العهد المكي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1399هـ-1979م.

62- محمد أحمد باشميل: من معارك الإسلام الفاصلة فتح مكة، ط1، دار الفكر، بيروت، 1399هـ-1979م.

63- محمد أحمد جاد المولى وآخرون: قصص القرآن، ط6، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، 1937م.

64- : أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، 1988م.

65- محمد بن عبد الله بن عايض بن عوض الغبان: فضائل مكة الواردة في السنة جمعا ودراسة، ج1، ط1، دار ابن الجوزي، 1421هـ-2001م.

66- محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، 1999.

67- : الحضارة العربية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996.

68- محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط9، مكتبة النهضة المصرية، 1965.

69- محمد حيدر أبادي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط2، مطبعة التأليف، القاهرة، مصر، 1956م.

70- محمد عبد الله النقيرة: انتشار الإسلام في إفريقية ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، السعودية، 1982م.

71- محمد علي مختار: الحنفية والحنفاء، ط1، مطابع جامعة الملك سعود، 1984.

72- محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، مكتبة النهضة العربية المصرية، القاهرة، 1959.

73- محمد مبروك نافع: تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام، ط2، مطبعة السعادة، مصر، 1952.

74- محمد مصطفى النجار: عرب الجزيرة بين الجاهلية والإسلام، دار الطباعة المحمدية، الأزهر، مصر، د-ت.

75- محمود سلام زناتي: نظم العرب قبل الإسلام، القاهرة، 1992م.

76- محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج1، 2، 3، تح: بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1314هـ.

77- مصطفى الرافعي: حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1960.

78- مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، يناير، 1987م.

79- المطهر بن طاهر المقديسي: كتاب البدء والتاريخ، ج3، باريس، 1903م.

80- مقبل بن هادي الوادعي: الصحيح المسند من دلائل النبوة، ط1، دار الأرقم، الكويت، 1405هـ-1985م.

81- نادية حسين صقر: الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط1، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية، 1401هـ-1981م.

82- ناصر بن سعد الرشيدي: تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي، مطابع الملك سعود، 1404هـ-1984م.

83- نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، ط3، دار الفكر، دمشق، 1403هـ-1983م.

84- هشام جعيط: نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط3، دار الطليعة للنشر والطباعة، بيروت، 2005.

رابعا: المراجع بالفرنسية

1- Fransesco Gabrieli : Mohamet, édit Albin Michel, Paris, 1962.

2- Fustal de caulanges : La cité antique, Imprimerie savernoise, 1959.

3- Gustave Lebon : La civilisation des arabes, imprimé par Image, Syracuse, Italie, 1969.

4- Imile dermenghem : La vie de Mohamed, édi Charlot, Paris, 1950.

5- James. G. Février : Hisstoire de lécture, Payot, Paris, 1959.

6- Lammens : Les sanctuaires préislamites dans l'arabie occidentale, imprimerie catholique Beyrouth, 1926.

7- : L'Islam croyances et institutions, imprimerie catholique, Beyrouth, 1926.

8- : L'arabie occidentale avant l'Hégire, Imprimerie catholique, Beyrouth, 1928.

9- Mohammed Essad Bey : Mahomet (571-632), Payot, Paris, 1956.

10- Sédiilot. L.B : Histoire générale des arabes, Paris, 1977.

11- W.M.Watt : Mahomet à la Meque, Imprimerie Bossière à Saint amand, Paris, 1958.

Les Encyclopédies :

1- Encyclopédie de l'Islam, Tome 4 et 5, Paris, 1985.

2- Encyclopédie de l'Islam, E.K.

خامسا: المعاجم والقواميس

1- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) (ت321هـ): جمهرة اللغة، ج1، 7، تح: رمزي منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1987.

2- ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل) (ت458هـ): المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ج1، تح: مصطفى السقا، حسين نصار، ط1، 1377هـ-1958م.

3- ابن منظور (محمد بن مكرم) (ت1311م): لسان العرب، ج6، دار المعارف، د-ت.

4- الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله) ت 626هـ: معجم البلدان ج4، 5، فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ -1990م.

5- الحميري (نشوان بن سعيد) (ت573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج1، تح: حسين عبد الله العمري وآخرون، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1420هـ-1999م.

6- الزبيدي (محمد الدين أبو الفيض السيد مرتضى): تاج العروس، مج1، 3،2، تح: علي شبرى، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م.

7- الفيروز أبادي (مجد الدين محمد): القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983.

8- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) (ت285هـ): الكامل في اللغة والأدب، مج3، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ-1999م.

9- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د-ت.

10- النووي (أبو زكريا محمد الدين بن شرف))ت676هـ): تهذيب الأسماء واللغات، ج1، الطباعة المنيرية، مصر، د-ت.

سادسا: الرسائل الجامعية

1- دراع الطاهر: الديانات القديمة في الحجاز قبل الإسلام من خلال المصادر العربية والكتب السماوية، رسالة نيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة لجامعية 1990-1991.

2- : المجتمع العربي القديم من خلال كتابات أصحاب السير والكتاب القدامى، ج2، أطروحة لنسل شهادة الدكتوراه في التاريخ القديم، السنة الجامعية، 2002-2003.

3- ابن موفق بومدين: الهجرات اليمنية نحو الشرق الإفريقي وأثرها الحضاري (الصومال-الحبشة-مصر نموذجا)، مذكرة شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية 2006-2007.

4- رمضاني أم هاني: بيزنطا وشبه الجزيرة العربية (من القرن 2 إلى القرن 5 الميلاديين، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية 2005-2006.

5- قفاف البشير: الصلات الحضارية بين مصر وشبه الجزيرة العربية منذ قيام الدولة الوسطى ونهاية الدولة الحديثة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم، السنة الجامعية 2005-2006.

سابعا: الموسوعات والدوائر المعارف

1- أحمد راتب عرموش، أسعد السحمراني وآخرون: موسوعة الأديان، ط2، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1423هـ-2002م.

2- أحمد الرزاق الحلفي: موسوعة الأعلام في تاريخ العرب والإسلام، ج7، ط1، دار البشير، 1420هـ-2000م.

3- عباس محمود العقاد: موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، مج1، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1970.

4- كمال شربل: الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، ط1، 1418هـ-1998م.

5- محمد سليمان الطيب: موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية وتاريخية، ط1، دار الفكر العربي، 1414هـ-1993م.

6- مسعود خوند: الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج12، بيروت، لبنان، 2004.

7- دائرة المعارف الإسلامية، مج3، د-ت.

ثامنا: الدوريات

1- أحمد بن عبد الرحمن حسن: من دلالات سورة قريش، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع1، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1977.

2- أحمد أمين: عكاظ والمريد، كلية الآداب، مج1، ج1، ماي 1933.

3- إسماعيل علي معتوق: بحيرا، مجلة كلية الآداب، مج12، ج1، مطبعة جامعة الملك فؤاد الأول، القاهرة، 1950.

4- آنوليتمان: بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، مج1، ج1، مطبعة جامعة الملك فؤاد الأول، القاهرة، 1953م.

5- خليل يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، مج3، ج1، القاهرة، 1958م.

6- دراع الطاهر: علاقات مكة التجارية بالدول المجاورة، مجلة المؤرخ العربي، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، مصر، 2000.

7- ونوبة نادي مرسي: نشاط مكة التجاري قبيل الإسلام، مجلة المؤرخ العربي، ط1، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 2000.

8- زينب محمد صبري بيرة حكلي: ظاهرة الحجاب في الأدب الجاهلي، مجلة الأحمدية، ع1، دار البحوث للدراسات، 1998.

9- سلطان المعاني: في حياة العرب الدينية قبل الإسلام من خلال النقوش، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، سوريا، 1993.

10- صالح دراركة: إيلاف قريش، ملاحظات حول عوامل الملكية قبل الإسلام، مجلة الدراسات التاريخية، ع17-18، جامعة دمشق، سوريا، 1984م.

11- عبد الحليم النجار: في اللهجات العربية وأُول اختلافها، مجلة كلية الآداب، مج15، ج1، ماي 1953م.

12- عبد الحميد العبادي: أحابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا، كلية الآداب، مج1، ج1، 1933م.

13- عبد العزيز صالح: المرأة في النصوص والآثار العربية القديمة، ط1، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، 1985.

14- عبد اللطيف زكي أبو هاشم: الحنفية ديانة إبراهيم، ع44، مجلة آفاق الثقافة والتراث، جمعية الماجد، 1424هـ-2003م.

15- عبد المنعم عبد الحميد سيد: المعوية الشودية في النقوش النبطية، مجلة المؤرخ العربي، ع9 مج1، القاهرة، 2001م.

16- فؤاد حسين: أداة التعريف في اللغة العربية، مجلة كلية الآداب، مج7، مطبعة الاعتماد، مصر، 1944م.

17- محمد إقبال عدوي: من قضايا النقد القديم الحكمة والمثل، المفهوم والعلاقة، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع34، جمعية الماجد للتراث، 2001م.

18- خالد معرك: أضواء على بعض الأمثال في القرآن الكريم، مجلة آفاق الثقافة، ع1، جمعية الماجد، مارس، 1995م.

19- محمد بيومي مهران: مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، ع1، المملكة العربية السعودية، 1977م.

20- محمد رضا الشماسي: اللغة العربية في التاريخ والدين والمجتمع، مجلة الكلمة، ع5، بيروت، لبنان، 1994م.

21- محمد شكري الذاكري: الطب في الجاهلية، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع19، جمعية الماجد للتراث، 1999م.

22- نجيب محمد البيهبتي: البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي وتياراته الكبرى، مجلة كلية الآداب، مج14، ج1، 1952م.

23- هاشم النعيمي: حملة أبرهة الحبشي إلى مكة، أهدافها ونتائجها، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع37، جمعية الماجد للتراث، الإمارات العربية المتحدة، محرم 1423هـ-أفريل 2002م.